مدن الملح
تقاسيم الليل والنهار

* تركز مدن الملح ، بصورة جلية، على العناصر الملحمية بحيث ينتقل القارىء ضمن مراحل تطور المجتمع على نفس الخطى التي قطعها أبناء ذلك المجتمع إبان ذاك التحول.

روجر الن

* إن عبد الرحمن منيف يقدم نموذجاً جديدة للبطولة الروائية المضادة للبطولة التاريخية، إنها بطولة اللابطولة. إنها البطولة الروائية التي ترى كل معاني البطولة وقيمها وسموها ونبلها في الحياة، فهي بطولة العصر العربي الراهن الفاقد لكل البطولة. إنها بطولة التروي والانحدار والانحطاط.

عبد الرزاق عيد

* لعل تجربة مدن الملح تكون أوسع وأجرأ تجربة روائية عربية تناصية وأكثر تطوراً في حدود معرفتنا بالرواية العربية.

نبيل سليمان

* مدن الملح بروحها الملحمية. . . أوديسا اجتماعية، تنقلنا إلى حقبة من ماضي جزء من العالم العربي في مرحلة من الزمن.

اي. تي. اي - كرونيكل

الخطوط: قنوع
صمم الغلاف: نذير نبعة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هاتف ٨٦٩...
تلكس LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

عبد الرحمن منيف

مدن الملح



تقاسيم الليل والنهار

عبد الرحمن مُنيف

رواية

مدن الملح

تقاسيم الليل والنهار

طبعة جديدة منقحة

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

ذاك الغيم جاب هذا المطر

مثل بدوي

يقول أحد أبطال مسرحية تشيخوف: الأخوات الثلاث:

«لقد آن الأوان! ثمة شيء هائل يتقدم نحونا، ثمة عاصفة قوية نقية تتهيأ، عاصفة سوف تكنس من مجتمعنا، عما قريب، الكسل واللامبالاة والأوهام والضجر الفاسد...

«إننا لن نشارك في تلك الحياة، ولكننا نحيا من أجلها اليوم. إننا نعمل ونتألم ونخلقها، وفي هذا وحده يقوم هدف وجودنا، وتقوم، إذا أردتم، سعادتنا».

«إن ما نخاله وهماً قد يكون، في بعض الأحيان، حدساً بالممكن، وإنه في رؤية الممكن تكمن احتمالات وقوة المستقبل.»

أنا يسيس نن

يقول الرياضيـون:

بما أن...

لذلك...

إذن...

وقت الهزائم، وفي المنافي،
يطيب الحديث عن التاريخ أو وهم التاريخ

مطالع القرن، العقود الأولى.

العالم، كل العالم، في ذلك الزمن الرجراج، المليء بالتوقع والاحتمالات، البطيء كسلحفاة، السريع المتغير كبرق السماء، يتلفت، يتساءل، يرهف السمع الى الدوي القادم، ويترقب بخوف الغد الذي سيأتي.

في ذلك الزمن كل شيء مطروح لإعادة النظر، لإعادة القسمة: الأفكار، المناطق، الدول، حتى الملوك والسلاطين والأمراء الصغار.

دول تنهض فجأة، وأخرى تغيب.

القارات تقسم حسب خطوط الطول، وخطوط العرض.

المناطق والشعوب تجزىء أو تلحق، تبعاً لرغبات الأقوياء، الذين يتخذون القرارات، وتبعاً لمصالحهم وقدرتهم على المساومة ونقض الوعود والعهود.

الملوك والسلاطين، ومعهم الجواكر، يُخترعون في التو واللحظة ليتولوا الأمور، أو يحكم عليهم بالنفي الى الجزر البعيدة لكي يموتوا هناك منسيين، وبصمت.

هكذا كان العالم في مطالع هذا القرن. أما موران، هذه الصحراء الغارقة في الرمال والنسيان، فكان أمراؤها المائة يتنازعون أجزاءها كما تتنازع النسور. كانت «دولهم» تكبر وتصغر، وبعض الأحيان تنتهي، تبعاً للأمطار والجراد، وتبعاً للغزوات أو الهواء الأصفر الذي يصل الى هذا المكان النائي مع المسافرين. فإذا نجت موران من هذه الويلات، وبدأ ابناؤها ينظمون القصيد ويغنونه،

وتكررت سباقات الخيل، وخرجت الصبايا الى العيون دون خوف، وأصبح الناس يشبعون، فعندئذٍ لا بد أن يتكفل امراؤها المائة بتحويلها الى جحيم. إنهم يصابون بنوع خاص من الجنون، وهذا الجنون، والذي يتكرر كل بضع سنين، يأتي فجأة، وينتهي فجأة أيضاً، لكن خلال الفترة القصيرة التي يكون، يخلّف من الضحايا والأحقاد والثارات ما يجعل الحياة خوفاً مستمراً وثارات لا تنتهي.

مرخان بن هديب الذي كان أميراً لموران وما جاورها، ولمسيرة يومين في كل اتجاه، هزم في غزوة من غزوات الجراد. طمع به جيرانه الأمراء، استغلوا ضعفه وعيون الماء التي كانت في إمارته، خلال سنة وصول الجراد الطيّار، فبعثوا حلالهم للماء، ثم جاءت جندهم بعد الحلال، ولأنه لا يمكن لأميرين أن يجتمعا على عين واحدة للماء، فقد اضطر مرخان بن هديب، مرغماً وصاغراً، لأن يجلو، بعد أن هزم.

قالت نجمة المثقال، عرافة الحدرة وما جاورها، حين بلغها خبر هرب مرخان:

- العين ما تحمل اثنين خاصة بمثل هذي السنين...

وبعد قليل وبسخرية:

- أما لو السيل جاز ومشى فكان فيها ما ينقال. وظني أن مرخان ما له ردة، راح وما يرجع.

وحين بعث مرخان من منفاه الى نجمة يسألها أخبار الأيام الآتية، أجابت:

- السيل إذا به حيل يمشي ويسقي، وإذا فاض وزاد عن حدة اما يرغي ويطمي أو يدوّر الحدور.

وحين طلب منها أن توضح أكثر قالت:

- السيل إذا وشّل يغور، لكنه لا بد في يوم من الأيام يفور.

ولأقربائها قالت نجمة المثقال لما سألوها عن احتمال عودة مرخان:

- هذا راح وراحت عليه، لكن يجوز الله يبعث له واحد من عقبه يسوي اللي هو ما قدر عليه، فخل الثريا تطلع... ونشوف.

أما كيف نجا مرخان بن الهديب، وكيف استطاع الهرب، فأقوى الروايات تؤكد أن مفلح بن مياح هو الذي حماه، ويسّر له الخروج، إذ حينما جاءه رسول من بني سحيم يطلب منه أن يكون معهم ضد مرخان، قال كلمة انتقلت فيما بعد، ويتذكرها الكثيرون. قال ابن مياح:

- اللي يشرب من بير ما يرمي بها حجر، وأنا ومرخان، والشهادة لله، كنا جميع واختلفنا، لكن لا أرفع عليه سيف، ولا أرضى يلحق به حيف، فاتركوه على باب الله، أما إذا صار غير شي فأنا وأنتم قوم الى قيام الساعة.

وبنو سحيم، في تلك الفترة، كانوا بحاجة ماسة الى سكوت ابن مياح، أكثر مما كانوا يأملون كسبه، لذلك غضوا النظر ومرخان يقطع الصحراء، تركوه. وهكذا نجا.

ولأن الأمراء المهزومين يظلون أسرى الماضي، ويصبح مستقبلهم وراءهم، كما قال حكيم قديم، فإن مرخان بن هديب، بعد أن شتم وهدد، وبعد أن أقسم الايمان الغليظة، بالانتقام من بني سحيم، لم يحاول أن يفعل شيئاً، كما أنه لم يسمح لأحد بالمحاولة، خاصة من رجاله وأقربائه، وهكذا غرق في خيبته أولاً، ثم في الصلاة بعد ذلك!

كان يصلي مئات الركع كل يوم، وكان، بين تسليم وصلاة جديدة، يدير وجهه نحو موران ويبكي. كان يرفع الى السماء وجهاً متضرعاً مبللاً بالدموع، طالباً من الله أن ينزل ببني سحيم العذاب، أن يفني جمعهم، ويهلك ضرعهم ويقطع نسلهم. ولأن خيبته كانت ثقيلة، وصلاته بطيئة الوصول الى المكان الذي يريد، فقد هدّه اليأس وقيل انه أصيب بالخبل!

خريبط كان الابن الثاني لمرخان. كان يصلي وراء أبيه، لكن موران، والعودة الى موران، تشغله أكثر من الصلاة. وهذا الحنين ولدته أحاديث الليل، والأغاني الآتية من هناك، إضافة الى أحلام الشباب، وتلك الخصوبة التي تتولد من لقاء البحر والصحراء. أما في النهار فإن مجلس أمير الفراهيد،

وتكررت سباقات الخيل، وخرجت الصبايا الى العيون دون خوف، وأصبح الناس يشبعون، فعندئذٍ لا بد أن يتكفل امراؤها المائة بتحويلها الى جحيم. إنهم يصابون بنوع خاص من الجنون، وهذا الجنون، والذي يتكرر كل بضع سنين، يأتي فجأة، وينتهي فجأة أيضاً، لكن خلال الفترة القصيرة التي يكون، يخلّف من الضحايا والأحقاد والثارات ما يجعل الحياة خوفاً مستمراً وثارات لا تنتهي.

مرخان بن هديب الذي كان أميراً لموران وما جاورها، ولمسيرة يومين في كل اتجاه، هزم في غزوة من غزوات الجراد. طمع به جيرانه الأمراء، استغلوا ضعفه وعيون الماء التي كانت في إمارته، خلال سنة وصول الجراد الطيّار، فبعثوا حلالهم للماء، ثم جاءت جندهم بعد الحلال، ولأنه لا يمكن لأميرين أن يجتمعا على عين واحدة للماء، فقد اضطر مرخان بن هديب، مرغماً وصاغراً، لأن يجلو، بعد أن هزم.

قالت نجمة المثقال، عرافة الحدرة وما جاورها، حين بلغها خبر هرب مرخان:

- العين ما تحمل اثنين خاصة بمثل هذي السنين...

وبعد قليل وبسخرية:

- أما لو السيل جاز ومشى فكان فيها ما ينقال. وظني أن مرخان ما له ردة، راح وما يرجع.

وحين بعث مرخان من منفاه الى نجمة يسألها أخبار الأيام الآتية، أجابت:

- السيل إذا به حيل يمشي ويسقي، وإذا فاض وزاد عن حدة اما يرغي ويطمي أو يدوّر الحدور.

وحين طلب منها أن توضح أكثر قالت:

- السيل إذا وشّل يغور، لكنه لا بد في يوم من الأيام يفور.

ولأقربائها قالت نجمة المثقال لما سألوها عن احتمال عودة مرخان:

- هذا راح وراحت عليه، لكن يجوز الله يبعث له واحد من عقبه يسوي اللي هو ما قدر عليه، فخل الثريا تطلع... ونشوف.

أما كيف نجا مرخان بن الهديب، وكيف استطاع الهرب، فأقوى الروايات تؤكد أن مفلح بن مياح هو الذي حماه، ويسّر له الخروج، إذ حينما جاءه رسول من بني سحيم يطلب منه أن يكون معهم ضد مرخان، قال كلمة انتقلت فيما بعد، ويتذكرها الكثيرون. قال ابن مياح:

- اللي يشرب من بير ما يرمي بها حجر، وأنا ومرخان، والشهادة لله، كنا جميع واختلفنا، لكن لا أرفع عليه سيف، ولا أرضى يلحق به حيف، فاتركوه على باب الله، أما إذا صار غير شي فأنا وأنتم قوم الى قيام الساعة.

وبنو سحيم، في تلك الفترة، كانوا بحاجة ماسة الى سكوت ابن مياح، أكثر مما كانوا يأملون كسبه، لذلك غضوا النظر ومرخان يقطع الصحراء، تركوه. وهكذا نجا.

ولأن الأمراء المهزومين يظلون أسرى الماضي، ويصبح مستقبلهم وراءهم، كما قال حكيم قديم، فإن مرخان بن هديب، بعد أن شتم وهدد، وبعد أن أقسم الايمان الغليظة، بالانتقام من بني سحيم، لم يحاول أن يفعل شيئاً، كما أنه لم يسمح لأحد بالمحاولة، خاصة من رجاله وأقربائه، وهكذا غرق في خيبته أولاً، ثم في الصلاة بعد ذلك!

كان يصلي مئات الركع كل يوم، وكان، بين تسليم وصلاة جديدة، يدير وجهه نحو موران ويبكي. كان يرفع الى السماء وجهاً متضرعاً مبللاً بالدموع، طالباً من الله أن ينزل ببني سحيم العذاب، أن يفني جمعهم، ويهلك ضرعهم ويقطع نسلهم. ولأن خيبته كانت ثقيلة، وصلاته بطيئة الوصول الى المكان الذي يريد، فقد هدّه اليأس وقيل انه أصيب بالخبل!

خريبط كان الابن الثاني لمرخان. كان يصلي وراء أبيه، لكن موران، والعودة الى موران، تشغله أكثر من الصلاة. وهذا الحنين ولدته أحاديث الليل، والأغاني الآتية من هناك، إضافة الى أحلام الشباب، وتلك الخصوبة التي تتولد من لقاء البحر والصحراء. أما في النهار فإن مجلس أمير الفراهيد،

وما يجري في هذا المجلس، خلال تلك الفترة الحافلة بالدوي وإعادة النظر، جعله يحلم أكثر، خاصة وأن النصائح الوقورة الميتة التي تتردد في مجلس أبيه مساء كل خميس، وتشلّه، كان يقابلها تحريض لا يهدأ ولا يتوقف ـ وكل يوم، في مجلس أمير الفراهيد، ثامر الفرهود ـ لأن يتحرك.

قال خريبط، ذات يوم، لعمه دحيم:

ـ راس مزهر بن سحيم ما ينراد له فيالق وبيارق، ينراد له ظلمة حرامية وطلقة بندقية، وبعدها إذا أمسى جمر يصبح رماد، ونرجع ولا كأنه كان.

هز العم دحيم رأسه موافقاً، وخرج صوته هامساً:

ـ اللي تقوله، يا ابن اخي، ما عليه خلاف، لكن هذه الطلقة ما تصحّ كل يوم، تصير بالعمر نوبة، وما لها أخت، فإذا ما صِبْت بها انصبت، وراحت عليك.

والتفت العم بطرف وجهه نحو المكان الذي يصلي فيه مرخان، فلما تأكد أنه غارق في صلاته، قال:

ـ والأخير، يا ابن اخي، انْ نتحضر، وحين ننوي ما نعلّم أحد بطارينا، وإذا تأكدنا ندس بليلة ما بها ضو قمر، وهناك اللّي يموت منا يلقى قبر بديرتنا، وإذا ظفرنا...

ولم يستطع دحيم أن يتصور النصر، اعتكر وجهه قليلاً، قال بحسرة:

ـ بس بعد بينا وبين ذاك مشوار، أيام وسنين!

ما ان مرت شهور، حتى لم يعد خريبط يطيق الانتظار. ظل أبوه وأخوه الكبير يصليان، وفي مساء الخميس يشتمان مزهر، ويتذكران. أما هو وأخوه الأصغر، عايد، وعمه دحيم، ونتيجة الأحلام، وكلمات قالها ثامر الفرهود: «الوقت كالسيف أن لم تقطعه يقطعك»، إضافة الى ذلك الدوي الذي أخذ يضرب الشطآن، وتمتد اصداؤه الى الأمراء المائة المتنازعين، فقد انزلق، وعدداً من الرجال، في ليلة ظلماء، ووجهته موران، عبر الصحراء، فوصل بعد شهر. وفي مثل ظلام الليلة التي سرى فيها رمى ورجاله الحبال وتسلقوا أسوار

قصر مزهر بن سحيم، واختبؤوا الى الفجر. وحين كان مزهر، مع أضواء النهار الأولى، يتفقد خيله، وقبل أن يصلي صلاة الصبح، خرج الرجال المختبئون وقتلوا مزهر، وبمقتله هزم بنو سحيم، وعاد آل هذيب من جديد.

هكذا تقول الروايات الرسمية التي دوّنها، فيما بعد، مؤرخو خريبط، رغم أن معظم الشهود قد غادروا هذه الحياة الى الحياة الأخرى، ورغم أنه لم يبق من معالم تلك المرحلة شيء يدّل عليها.

وتقول رواية لم يسجلها المؤرخون، لكن تناقلها الناس في وقتها، أن امرأة سهّلت لخريبط ورجاله الدخول والاختباء! قيل نتيجة عشق أو نتيجة مال، أو ربما بسببهما معاً. وقيل ان ثامر الفرهود، قبل وصول خريبط بشهور، اشترى عدداً من رجال مزهر، وكان هؤلاء وسيلة خريبط في الدخول والاختباء، ثم في النتائج التي حصلت بعد ذلك!

بمقتل مزهر بن سحيم سقطت «دولته» لأن الدول، في تلك الفترة، مرتبطة بأمرائها، فما دام الأمراء أحياء وأقوياء، فإن «الدول» موجودة ومستمرة، وقد تمتد وتتسع، تبعاً لقوة الأمراء وتحالفاتهم. أما إذا هزم الأمراء، أو قتلوا، فالدول تندثر، ولو الى حين، إذ يحاول ابناء الأمراء المهزومين، مرة أخرى، «استعادة» مُلك الآباء والأجداد، لتبدأ دورة لا تنتهي من الكر والفر، وأخيراً من الثأر.

خريبط وهو يعود هذه المرة، كان العالم يجتاز هذه الفترة من الزعازع والتقلبات الكبرى، وأن يكون في هذا الجانب، أو في ذاك، معناه الربح الكامل أو الخسارة الكلية. أن يكون مع الذين سيربحون، لا بد أن يحصل على شيء ما. وأن يكون في الجانب الآخر، لا بد أن يخسر كل شيء، وبالتالي ينضم الى قافلة المغادرين الى النسيان والصمت فالموت، إذا لم يكن قد قتل منذ البداية، كما حصل للمئات، للآلاف، من الذين كانوا يبحثون عن ملك الآباء والأجداد!

هل هو الذكاء؟ الحظ؟ القدر؟

إن أياً من هذه الكلمات لا تعني شيئاً، إذ تختلف بمعناها، بدلالاتها، بين

أن تكون كلمات المنتصرين أو كلمات المهزومين. وما دام خريبط قد انتصر، وفي تلك الفترة بالذات، فإن موران، البلدة الصغيرة المنسية، في هذه الصحراء الشاسعة، امتدت واتسعت، إلى درجة لم تعد تُعرف حدودها!

قالت نجمة المثقال، عرافة الحدرة وما جاورها، حين جاءها رسول من بني سحيم يسألها كيف ترى الأيام الآتية:

- الدنيا دالوب، يوم فوق والثاني تحت!

وحين ألّح عليها يريد أن يعرف أكثر، روت:

- لو دامت لغيرهم ما وصلت لهم.

وحين أصّر على أن يعرف أكثر، تلفتت وردت بحدة:

- هالحين ما عادت الثريا تكفي، يلزم ندوّر نجم ثاني وننشده، ونشوف، فترجعون، بالسلامة، ما هو بهذي السنة، ولا اللي بعدها، ترجعون لما يتلاقى العقرب بسهيل ومعهم بنات نعش!

كان من السهل أن يبقى رأس مزهر بن سحيم بين كتفيه فترة أطول، وكان من الممكن أن يبدو رأساً جليلاً حين يشتعل بالمجد والشيب، لو أنه لم يلعب تلك اللعبة الخطرة: التحرش بأصدقاء بريطانيا، والذهاب الى أعدائها، طلباً للمساعدة والعون. إذ ما كاد مزهر يبعث بجماعات من رجاله لمطاردة مرخان ابن الهديب، حتى اصطدم بثامر الفرهود، فوقعت بين الرجلين. بدأت بالقطيعة بينهما حين رفض ثامر تسليم مرخان، ووصلت الى التهديدات فالتحدي، أما حين طلب مزهر معونة الأتراك ودعمهم في مواجهة الفراهيد والانكليز، فقد حكم على نفسه أن يسير في طريق ليس لها إلا أحد خيارين: اما النصر أو الموت.

لماذا فعل مزهر ذلك وارتكب تلك الغلطة القاتلة؟ وهل الذكاء ما دفع خريبط لأن يختار الآخرين؟ ؟

الكلمات العاهرة ذاتها تقفز كالجنادب. فالذكاء والشجاعة، قراءة الرياح والنجوم، استشارة المسنين من الآباء والأجداد والجدات، وحتى قراءة التاريخ ومعرفة أيام العرب، إن أياً من هذه الكلمات لا تفسر اختيارات الرجلين، حتى لو أضيف اليها المكان الذي «اختاره» مرخان، وبالتالي فرض على خريبط أن يكون فيه، وليس في أي مكان آخر.

الدول الكبيرة التي كانت، في أوقات سابقة، تتسامح، وتتظاهر أنها لا تعرف ولا ترى، حين يتنازع الصغار على المياه والمراعي، وكانت تتركهم يقتل بعضهم بعضاً، وتحتمل أيضاً ضجيجهم، وأحياناً طيشهم، لم تعد الدول قادرة على الاحتمال والتسامح في هذه الفترة.

فما كاد مزهر يذهب الى أعداء بريطانيا، وفي ذلك الوقت بالذات، حتى اعتبر عدواً، ولا بد أن ينتهي. أما حين قتله خريبط، فقد أعطى الدليل أنه

يمكن أن يكون الصديق الذي يعتمد عليه، خاصة وأن ثامر الفرهود لم ينسه لحظة واحدة، إذ ظل يبعث اليه بهداياه، وبعث أيضاً عدداً من رجاله، ومعهم بعض الأصدقاء، لكي يساعدوا خريبط ويكونوا قريبين منه.

ولأن الكبار، في هذه المرحلة، ليس لديهم الوقت لأن يتعاملوا مع هذا العدد الهائل من الأمراء الصغار والشيوخ، ولكي يمنعوا انتقال هؤلاء الأمراء من ضفة الى أخرى، كما كانوا يفعلون في السابق، فقد قامت بريطانيا، ربما نتيجة القرعة، أو تنفيذاً لتوصية من أحد رجالها الحالمين والمحبين للصحراء وضوء القمر وصنع الملوك، باختيار خريبط. لزّمته الأمراء الصغار وحماية طرق القوافل، وطلبت منه مراقبة الجيران والأتراك وشواطىء البحر، من ناحية الشرق.

وخريبط الذي لم يكن يتصور أو يطمح أكثر من العودة الى موران، وأن يكون أميراً على هذه البلدة وما حولها من الواحات والعيون، فإذا وصلت حدودها لمسيرة يومين من كل ناحية يكون قد استعاد ملك الآباء والأجداد، فينام هادىء البال قرير العين، لكن ما ان تم اختياره عميداً للأمراء الصغار، وممثلاً عنهم، حتى تحرك فيه شيء مجنون: لا بد من كل الصحراء، لأنها وحدها التي تحمي من الأعداء والزمن وغدر الأيام.

وهكذا بدأت موران تمتد وتتسع، ولأن لخريبط قامة مديدة، وجسداً خشناً قوياً، وكان فتياً أيضاً، فقد رأى ما لا يراه الذين حوله، وسمع ما لم يسمعه غيره، ووصلت اليه أموال لم تصل لأحد، ومع الأموال الأسلحة والمستشارون. ولأنه حافظ على ملابسه الخشنة، وظل مع الجند، وكان لا يتردد، في أحيان كثيرة، أن يعطي بسخاء، فقد أصبح بنظر الكثيرين مختلفاً عن غيره من الأمراء. أما حين تذكر صلوات أبيه وأدعيته، كيف كان الناس يهزون رؤوسهم امتثالاً وخشية وخشوعاً، فقد قال لعمه ذات يوم:

- ما تقدر على البدوان، أولاد الحرام، إلا بواحد من ثلاثة: الذهب أو السيف، أو جنة الخلد التي تجري من تحتها الأنهار.

والعم دحيم الذي هز رأسه اقتناعاً، كان شديد الغبطة أن ابن أخيه كبر خلال هذه الفترة القصيرة، قال له بحزم:

- اللي تقوله يا ابن آخي صحيح وما عليه خلاف، وهذا ينطبق ما هو بس على البدوان، وعلى أهل الحضر...

وأضاف دحيم بعد قليل بنبرة مختلفة:

- وهذي موران غدارة تأكل زادك وتنبش حدرك، فيلزم الواحد يتوقى ويحرص، وما ينام إلا نومة الذيب.

لم تمضِ سنوات حتى أصبحت موران تدين بالطاعة والولاء لخريبط، تدفع له الزكاة وتقدم الجنود، وتصلي وراء الأئمة الذين بعث بهم الى كل مكان، واصبحت موران أيضاً «دولة كبرى» في هذا الخضم الصحراوي الذي لم يعرف من قبل كيف يصل الى صيغة يمكن أن يرضي نفسه أو يرضي أصدقاءه.

نجمة المثقال التي تصلها الأخبار الى الحدرة مشوشة متناقضة، وبعد فترة ليست قصيرة، لما عرفت أن خريبط بن مرخان استولى على القصر وقتل مزهر بن سحيم، فوجئت، وقالت باستغراب:

- اللي يمشي بالليل يدبي ما يرمح، وهدّة ابن مرخان هدّة ملحوق، فناظروا اللي وراه: هم اولاد مزهر أم أولاد العماليق وأولاد الفراهيد؟

وأضافت تخاطب نفسها:

- صحيح أن الملدوغ من الحبل يخاف، لكن سوايته ما يسويها إلا ملحوق أو مجنون، أو واحد قلبه من الهم خالي.

تطلعت الى السماء ملياً وقالت بصوت صلب:

- النجوم في السما رجوم، العابرة تشير ما تقول، والسايرة لها أول وبها ذيول، والثريا تدور بين العرش وبنات نعش، فإذا وصل مرخان وحكم أقص يدي وأعطيها للكلاب!

ليس المهم ما قالته نجمة المثقال، لأن الناس لا يتذكرون إلا ما يريدون، ولا يسمعون إلا ما يحبون سماعه، وهكذا ملأ خريبط حياة الناس، أيامهم ولياليهم، بالضجيج واستعدادات الحرب وانتظار الجنة!

وإذا كان ثامر الفرهود البداية، فإن خريبط، وهو يتقدم في العمر، وفي غزو المناطق المحيطة به، والتي تتسع سنة بعد أخرى، تجاوز الفراهيد كلهم، خاصة حين جاء بتلر، القائد العسكري الانكليزي للمنطقة كلها، في زيارة الى موران. قال له خريبط:

- حنا والفراهيد أولاد عم. أخذوا منا واخذنا منهم، وفضلهم ابد ما ننساه، لكن تعرف، الله يسلمك، هذول البدوان - روسهم ايبس من الصفاة، وما يرضون إلا واحد منهم، فنشوف أن تبعثوا لنا خوياً لكم يجلس هنا ونتفاهم وياه.

ولم تتأخر بريطانيا في إرسال مجموعة من المستشارين والرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم، ليس فقط في رماية المدفعية والرشاشات، وإنما أيضاً في أمور أخرى كثيرة، ولم تنس أن ترسل معهم الأموال والهدايا.

وبدا واضحاً، من خلال الحركة والضجة، ومن وصول الشيوخ الى موران أن شيئاً ما يُعَد، ولا بد أن تظهر نتائجه في وقت غير بعيد.

وخريبط الذي بدأ أميراً لموران، ولا يختلف عن غيره من الأمراء، ما لبث أن تغير نتيجة اتساع الامارة وتزايد قوة الأمير، أكثر من ذلك لم يتردد في أن يعلن نفسه سلطاناً لموران، كما اقترح بتلر. وبهذه الطريقة لم يعد يختلف عن الأمراء الآخرين فقط، وإنما يختلف عن السلاطين أيضاً، فهو يريد أن يصبح قبيلة وحده، «وليس قردين وحارس» كما كتب أحد المؤرخين عن أبيه مرخان، واصفاً هروبه مع عائلته الصغيرة ولجوءه الى ثامر الفرهود.

يذكر رجال خريبط المقربون أنه تزوج في اليوم التالي لمقتل مزهر بن سحيم، وكان هذا زواجه الثاني، بعد الزوجة التي تركها عند أبيه. أما بعد ذلك، من أجل أن يعزز علاقاته بالقبائل، بالمناطق، ومن أجل أن تكون له قبيلة خاصة به، فقد تزوج خلال خمس سنين قدر سنوات عمره، كما تقول

الشيخة زهوة بفخر، أما بعد أن أغتنى واستقر فلم يعرف أبداً عدد زوجاته أو عدد ذريته، خاصة من الإناث!

وسنة بعد أخرى يزداد خريبط قوة ونفوذاً، ويزداد عدد أولاده وعدد زوجاته، كما أن البلدان الأخرى المحيطة به تثير شهيته، وتحضره على أن يضمها، فإذا استطاع، خلال فترة طويلة، أن يؤجل تحريك قواته من أجل الوصول اليها واخضاعها، فإنه لم يتوقف عن أمرين: الحديث عن ضرورة ضم هذه البلدان، لأنه وحده القادر على قيادتها؛ وإرسال مجموعات من المسلحين في غارات هنا وهناك، لقطع الطريق، لسلب القوافل، لاعتداءات على الحدود، لكن هذه المجموعات دائماً تابعة أو مرسلة من الطرف الآخر، وبالتالي تسبب له الضرر وتشكل خطراً عليه، ولا بد أن يفعل شيئاً لمنعها، لوضع حد لها!

وحين تبلغ الأمور حداً معيناً، حداً مناسباً، يتغاضى الذين كانوا يمنعونه من غزو احدى هذه البلدان، فيغيب المستشارون، أو يسافرون، ويعود قسم منهم الى الهوايات التي شغلتهم خلال فترة معينة، وجاءوا الى موران من أجلها! يعود هؤلاء الى التنقيب عن الآثار، أو دراسة طبقات الأرض، أو الى القنص والتعرف على طبيعة الصحراء. ويبدأ خريبط حملة جديدة من حملاته، تكون نتيجتها توسيع السلطنة وجباية الزكاة، وارسال أئمة جدد لكي يقيموا شعائر الدين القويم في البلدان التي أصبحت خاضعة له.

هكذا كانت معظم الحملات التي قام بها خريبط، ولأنه يريد أن ينشىء قبيلة جديدة، وسلطنة تختلف عن كل ما قام في هذه الصحراء، فكان يريد من أبنائه أن يكبروا بسرعة، وأن يساهموا في إقامة هذا الملك، لكي يكونوا مثله حريصين عليه، وقادرين على استعادته إذا غدر الدهر ودارت الأيام. ولذلك بذل جهداً خاصاً في تربيتهم، وتكليف مجموعة من الرجال الذين يثق بهم ملازمتهم واعدادهم للأيام الصعبة القادمة، وباعتبار أن منصور وخزعل وفنر هم الأكبر بين الأخوة، فقد وجه اليهم معظم الاهتمام، لكن منصور قتل في احدى الحملات، وقد سبب مقتله حزناً لأبيه لا يمكن أن ينساه، ومع ذلك التفت الى خزعل والى فنرلعل أحدهما أو كليهما يكون امتداده الحقيقي على هذه الأرض.

احدى الهوايات التي كانت تروق للسلطان خريبط، ولم يتوقف عن ممارستها: أن «يقرا» على رؤوس الاولاد. كان، في أحيان كثيرة، يقضي ساعات الصباح من كل يوم اثنين، اليوم الذي حدده لابنائه، لكي يكونوا في حضرته، ليتأكد من أحوالهم، ويسألهم عن طلباتهم، ولكي يحل مشاكل امهاتهم ايضاً! وبعد ان يصدر أوامره بما يجب أن يُفعل، وعرفان الهجرس يكتب هذه الأوامر، لتبلغ الى من يلزم، لا بد من أن يبدأ حديثاً من خلال سؤال او تعليق، من أجل ان يلقي على الاولاد دروساً في التاريخ والحروب والاخلاق والحكمة. كانت الاحاديث تبدأ عامة، بعيدة، ثم لا تلبث أن تصبح خاصة تماماً: كيف فعل عندما بدأ بإقامة السلطنة، من كان معه ومن كان ضده، وماذا فعل كل واحد من هؤلاء. أي نوع من الخصوم واجه، وكيف تصرفوا وكيف تصرف ليتغلب عليهم!

كان يفيض في الحديث، يسترسل، ولا يتردد، بعض الاحيان، في أن يؤدي الدور كما لو أنه يقع مرة اخرى. والاولاد حسب الاعمار والمدارك، إذ يتابعون مدهوشين، معجبين، كان يستهويهم أن يتوقفوا عند العجائب والخوارق. وكان السلطان يستجيب، يعيد ذكر الاحداث مع تفاصيل إضافية، وينظر الى الأثر الذي تخلفه كلماته في عيون الأطفال والحرس وبعض المرافقين. وكلما كان الاعجاب اكبر، والاثر أوضح يزداد رغبة في أن يروي المزيد.

كان يقول لطالع العريفان، احد المشرفين على القصر، والمسؤول عن الاولاد بشكل خاص، أثناء غياب السلطان:

- الاولاد، يا طالع، مثل الخيل، ما تتروض إلا إذا صحت بآذانها، وما تشرب

إلا بالصفير. ومرة بعد مرة تصير تفهم وتجاوب، أما إذا تركتها، ما قريت عليها، تراها تتعبك أو تضيع منك!

وأبناء السلطان الذين يستعدون لهذا اليوم، إذ يلبسون أحسن ثيابهم، ويتعطرون، كان عليهم ان يحملوا من أمهاتهم عبارات معينة أقرب إلى التورية، هي بمثابة رسائل موجهة إلى جلالته. والسلطان الذي يعرف سلفاً معنى هذه الرسائل، وأغلبها تتضمن الشوق والرغبة في الوصال، لا يجيب إجابات واضحة، الأمر الذي يربك الصغار والامهات معاً. فحين تستعاد الرسائل، كيف نقلت، ماذا أجيب عنها، تتغير تماماً، وكثيراً ما سبّبت مشاكل لحامليها ومرسليها، الامر الذي يضطر الامهات لتوجيه رسائل ادق واكثر وضوحاً في الأسابيع اللاحقة! والاولاد بين تأكيد الامهات الذي لا ينفك يتزايد بضرورة نقل الرسائل بدقة، ثم نقل الإجابات بدقة اكبر وبحرفيتها، وحرص السلطان على أن تفهم تلك الدروس، لا يعرفون كيف يتصرفون او ماذا يقولون!

قال طالع لنائبه ناهي الفرحان في صباح اثنين من هذه الاثنينات:

- لولا أنه جمل ما حمل هالمحامل، يا ناهي!

ولما ظل ناهي صامتاً، اضاف:

- ما يشبعن ولا يرتاحن، ولا يخلن احد يرتاح!

ورغم ان ناهي يعرف عمن يتحدث، وعن اي شيء يجري الحديث، فقد تساءل ببلاهة:

- كلامك مثل صلاة البدو يا ابو جازي: ركوع وتسليم، وما يندري ويش تريد تقول!

وبعد قليل وهو يضحك:

- وإذا ببطنك سالفة سولفها يا ابو جازي.

قال طالع العريفان بنزق:

- ابن الهجرس يخط وريقات يقول فيها: إلى من يلزم للتنفيذ. ودغيم السرهود

بقلمه الاخضر يحولها بعد ما يكتب: نُظر. وحنا بين الهجرس والسرهود، وبين وليدات طويل العمر وحريماته، ضعنا يا ناهي. وهالحين ينراد لنا علام الغيوب حتى يكشف لنا الدروب.

رد ناهي بسخرية:

- يا أبو جازي: مقرود على مفرود، لكن إذا ما أحد سأل، وإذا ما احد قال، تظل بأرضها.
- لكن الحريمات لا يتعبن ولا يسكتن يا ابن الحلال.
- خلهن يدوخن صاحب الامر والنهي.
- وهو ما يعرف غيرنا: ها يا طالع؟ شنهو سويت بالقضية الفلانية والقضية الفلانية؟ وما نخلص الا إذا سكتن أو إذا سافر.
- طول البال ما مثله يا أبو جازي.
- منين نجيب طول البال مع العجيان والحريمات؟
- الصبر زين ومعه كل شيء يهون.

وتتكرر القصص ذاتها، وطلبات الامهات والصغار تزداد فترة بعد اخرى، تبعاً لزيادة عدد الاطفال الذين ينضمون للقاء يوم الاثنين. وعرفان الهجرس يدون قدر ما تسعفه يده البطيئة على الكتابة، بعد أن يبلل القلم بشفتيه، ثم يبيّض الطلبات بثلاث نسخ، يضع واحدة في ملف جلالته للحفظ، والثانية في ملفه للعلم، ويرفع الثالثة لدغيم السرهود، الذي يمهرها بالختم والتوقيع، مع عبارة لا تتغير: «نُظر، للتنفيذ» وتحال مرة اخرى الى عرفان، الذي يحتفظ بها بين أوراقه، بحيث تتجمع النسخ الثلاث لديه مرة اخرى، ولا يحولها الى طالع للتنفيذ الا إذا كانت الطلبات ضرورية، او جرى التأكيد عليها مرة بعد مرة!

ولأن لكل ساكن من سكان القصر طلبات تتناسب مع أهميته ودرجة قرابته من السلطان، ولأن الكثيرين متساوون من حيث الاهمية او القرابة، او هكذا يتظاهرون، او يتظاهر الذين يتابعون طلباتهم، ويريدون تنفيذها على الفور،

وقبل غيرها، فإن ما يتولد من الصخب والالحاح يفوق طاقة المشرفين والمكلفين بالتنفيذ، مما يؤدي إلى التأخير والتغيير، وبعض الاحيان الى الخلاف. وما إن تصل الشكاوى إلى المراجع العليا، وقد تبلغ مسامع السلطان، حتى يتغير كل شيء: يوقف تنفيذ جميع الطلبات، وقد يُستبدل المنفذون بغيرهم، مع ما يترتب على ذلك من التحديات والضغائن.

وبقدر ما يكون أصحاب الطلبات الكثيرة والالحاح المبالغ فيه مثيرين ومزعجين للمشرفين على القصر، بحيث يتساءلون كيف لا يشبع هؤلاء وكيف لا يتعبون، فإن الذين لا يطلبون ولا يحملون الرسائل، أو الذين تكون طلباتهم متباعدة ومتواضعة، يثيرون الاستغراب والتساؤل ايضاً!

فنر الوحيد، او بالأحرى من القلائل جداً، ليس له مطالب ولا يحمل رسائل. كان يجلس مقابل أبيه يسمع ويتابع، وإذا نظر فإلى تلك الوجوه الصغيرة التي تنقل بتلعثم رسائل غالباً ما تكون أبياتاً من الشعر، او امثالاً، لا تعرف كيف تنقلها. أو تقدم قصاصات من الورق، مرت على أيدٍ كثيرة قبل أن تستقر في يد السلطان، وتتضمن في معظم الاحيان طلبات الامهات وحاجاتهم. كان فنر يتابع هذه المشاهد باستغراب اول الامر، ثم بدافع حب الاستطلاع، وحب المعرفة بعد ذلك!

قال طالع العريفان، ذات يوم، يحدث عمير خال فنر:

- . . . وتلقاه، يا مبارك، كله عيون وآذان. يسمع ويخزن، ولا تسمع منه لا حس ولا نفس، وما له، مثل غيره، طلبات وشرهات. وإذا سأله طويل العمر إن كان له طلب او حاجة جفل، وقال: ما أريد إلا سلامتك يا طويل العمر.

وحين وجد عمير فرحاً، وقد استثاره الاطراء، تابع بمكر:

- وعين فضة ما علّمته الدين وحده، علمته، فوقه، الاخلاق والادب!

وأضاف بعد قليل، وخرج صوته همساً:

- والمرجلة . . . بعد.

والسلطان الذي ظل مفتوناً بإظهار قوته، وإشعار الآخرين بضرورة وأهمية كل موقف اتخذه، وبالتالي رجاحة العقل الذي كان وراء ذلك الموقف، كان يستعيد قصصاً ربما يعرفها الآخرون مثله أو أفضل منه، لكنه يريد أن يستخلص منها الدروس، ويريد لأولاده أن يستوعبوا جيداً ما يقول.

بعد شهور، ولما تأكد أن فنر أكثر الاولاد رغبة في سماع هذه القصص، وقدرة على استيعابها، قال ذات ليلة لعمه دحيم:

- . . . وتعرف، يا طويل العمر، الدلال يفسد الاولاد، وكل حرمة من الحريم ما عندها سالفة الا وليدها، ترطّل به، تدلله، فإذا الاولاد ما تعبوا، إذا ما عرفوا الحر والبرد، وإذا ما خاطروا، تراهم أبد ما يصيرون رجال يعتمد عليهم.

ابتسم دحيم وعلق:

- ظني أن اللي شفناه ما أحد يشوفه يا أبو منصور، والتعب اللي تعبناه ما راح يمر مثله، لكن أيامنا اختلفت عن أيامهم، وزمانا غير زمانهم.
- لكن يلزم ندربهم ونعلمهم، يا عم؛ ويلزم نقرا على روسهم.
- بس ما نخوطر بهم يا أبو منصور.
- الشدايد راحت، يا عم، وهالحين كلها سوالف ودق قهوة وطراد وقنص. وإذا حزّت ولزّت تمشيطلحى وهزة عصا، وإذا سلم العود الحال تعود.
- الحق اللي تقوله، يا أبو منصور.
- ما هو بس كذا، يا عم، يلزم تأديب الولد حتى لو زعلت أمه، لأن الولد بدون أدب، بدون حرب وضرب يضيع منك ويضيع عليك.
- الحق اللي تقوله، يا أبو منصور. بس مثل ما يقول الشوام: مرة على الحافر ومرة على النافر، لأن هذول اولاد، بعد ما طلع لهم ريش.
- كبروا يا عم، صاروا رجال، وإذا كبر ولدك خاوه.

وصمت الرجلان طويلاً. تذكرا أشياء كثيرة،تذكرا لما كانا صغيرين، في أية ظروف عاشا، وأية صعوبات واجها، وكيف كانت الأيام السابقة وكيف هي الآن. قال دحيم، وخرج صوته عميقاً من صدره:

- اللي راح راح يا أبو منصور، والخوف، هالحين، من اللي يجي. واشوف نفسي خايف، وأخاف أموت وأنا خايف، لأن لا أحد من اللّي نشوفهم حولنا يعرف شلون تعبنا. . .

هز رأسه عدة مرات ثم أضاف:

- هالحين كل شي يجيهم على البارد المستريح.

قال خريبط، وهو يترنم بحزن:

- «لا يعرف الشوق الا من يكابده   ولا الصبابة الا من يعانيها»

وبعد قليل:

- صحيح انا حضرنا لكل شيء اللي يلزمه، بس يلزم نشد عليهم، وعساهم يقدرون على هذا الحمل.
- إنشاء الله ما نقابل وجه ربنا الا ووفينا اللي علينا يا أبو منصور.

رد السلطان وهو يضحك:

- لا تخف يا عم، وحنا بعدنا شباب وحيلنا قوي.

ترافق هذا الكلام مع إشاعات متكتمة سرت في قصر الروض، ولأنها تتعلق بالسلطان، فقد ظلت تنقل بحذر، وتروى وراء أبواب مغلقة. قيل إن فضة غضبت وتركت القصر. وقيل ان السلطان غضب عليها وطردها. أما المحاولات التي جرت للشفاعة لها واسترضائه عليها فقد فشلت، ومما أكد ذلك أن اقامتها عند أهلها طالت، كما ان السلطان يبدو هذه الأيام ضيق الصدر، نزقاً، خلافاً لفترات سابقة.

أما أسباب غضب فضة، وهجرها للقصر، او طردها منه، فكل إنسان يراها

بشكل مختلف عن الآخرين، اثنتان من زوجات السلطان اكدتا ان الشيخة، امي زهوة، اغلظت القول لفضة، وقالت إحدى الزوجتين إنها ضربتها، وطلبت منها مغادرة القصر. وقالت كبرى بنات السلطان إن أباها هو الذي طلب منها أن لا تريه وجهها بعد اليوم. أما وطفة التي استعادت اعتبارها بعد أن جاءها ولد ذكر، فإنها حين تُسأل عن السبب تبتسم ابتسامة كبيرة، ولا تجيب. لكن طريقتها في التصرف توحي انها اصبحت المفضلة لدى السلطان، وأن فضة لم تعد شيئاً بالنسبة له، وهذا ما حملها على الغضب، ثم مغادرة القصر!

موزة التي رافقت سيدتها، ترددت عدة مرات على القصر، ونامت في إحدى الليالي، ولم يُستطع فهم الدوافع لمجيئها او لنومها، كما لم يستطع احد ان ينتزع منها كلمة واحدة. الذين يكرهون فضة قالوا ان موزة جاءت لتحمل ذهب سيدتها. وإن هجر السلطان لها أصبح مؤكداً. أما الذين يتعاطفون مع السيدة والوصيفة فقد اكدوا ان عودة موزة لها علاقة بترتيب القصر، خاصة غرفة نوم فضة، لأنها ستعود خلال أيام. وقال غير هؤلاء ان السلطان ذاته طلب من موزة البقاء، وقد اختلى بها وقتاً غير قصير، وحمّلها رسالة وهدايا الى فضة، وكلفها ان تسترضيها، كي تعود!

قالت احد صديقات موزة ان موزة كانت طوال الشهرين الاخيرين في حالة حزن شديد. كانت تبكي باستمرار، ولم تعد تطيق الجلوس مع احد، كما عافت نفسها الأكل، حتى ان من يراها لا يصدق انها هي ذاتها، إذ فقدت لونها وجحظت عيناها، وتبدو أكبر من عمرها. وتضيف هذه الصديقة انها حين حاصرت موزة، طالبة منها ان تبوح لها عما في صدرها، تلقت اجابة من كلمتين «ستي وسيدي»، وكانت تهز رأسها بلوعة ولا تضيف شيئاً آخر! وهذا ما يفسر مغادرة فضة لقصر الروض وغيابها الطويل، وأيضاً الوضع النفسي الذي ميز تصرفات السلطان وعلاقاته.

لولوة، خادمة وطفة، اسرت لبعض من تثق بهم، ان قابلة القصر، وريدة، اعترفت لسيدتها، في اليوم الثالث لولادة الامير الجديد، مفرح، ان فضة طلبت منها بالحاح، وعرضت عليها مبلغاً كبيراً من المال، ان هي قامت بخنق الطفل بعد معرفتها انه ذكر، ولكن القابلة رفضت القيام بهذا العمل، فهددتها بالطرد

من القصر ومعاقبتها، وقالت لولوة ان سيدتها ابلغت السلطان، وحين شك بالامر استدعيت القابلة واعترفت له. ولا بد ان يكون هذا هو السبب فيما جرى من تطورات لاحقة!

تهاني، وصيفة الشيخة، اكدت ان الرهان الذي تم بين السلطان وفضة حول الحمل الثالث هو السبب الحقيقي وراء كل ما حصل. فالسلطان الذي نسي الرهان، او تجاوزه، بعد ولادة الولد الثالث، بفترة قصيرة، ولم يعد الى ذكره، ولا يحب أن يذكره به احد، عكس فضة لم تنس الرهان يوماً واحداً، بل وقيل إنها أبلغت اهلها بالامر، فاشاع الاهل موافقة السلطان، وانه سيعلن ذلك في وقت قريب، الامر الذي ولد هذا الغضب، ثم ما تلاه. وزيادة في تأكيد هذه القصة ان السلطان تزوج خلال فترة قصيرة من مغادرة فضة لقصر الروض، واصطحب الزوجة الجديدة في رحلة قنص، خلافاً لمرات سابقة، حيث كان يصطحب فضة.

تقول تهاني ذلك، وهي تبتسم، وتنظر في الوجوه، لتشعر كل من يسمعها ان امي زهوة وراء ما جرى، وإنها وحدها التي تقرر كل شيء في القصر.

طالع العريفان، وعادته انه لا يحب القيل والقال، ولا يتكلم الا مضطراً، والى اقرب الناس، قال لناهي الفرحان، وقد بلغته الاخبار والشائعات:

- اهل فضة، يا ناهي، ما ينعطون وجه، وسالفتهم مثل سالفة اللي تردفه وراك، ما ان يركب حتى يمد يده بالخرج. فهذول، بعدهم ما سمعوا كلمة الا وراحوا يقسّمون: هذا لنا وهذا لنا، وعيون طويل العمر تشوف، وتصله الاخبار. فإذا طويل العمر ما ضرب الخشم ما تدمع العين، والصواب إنه سيّر بنتهم عليهم، وقال لهم: افطنوا زين والزموا حدودكم، يا جماعة الخير!

- اخاف تكون سالفة مثل سوالف كثيرة قبلها، يا ابو جازي، وباكر او اللي عقبه، اذا جتّه بالصبّي الرابع ترجع مثل ما كانت، واهلها يركبون نوبة ثانية.

- ما علينا يا ناهي. ومن قبل قالوا: اللي يتجوز امنا عمنا!

- خلنا، يا ابو جازي نناظر ونشوف توالي السالفة.

ولم تمض بضعة أسابيع حتى حصل امرلم يخطر ببال، فقد تزوج السلطان بفتاة اخرى من آل المدلجي ايضاً.

وخلال الأيام التي استغرقها التحضير للزواج امتلأ القصر بالهمس والاشاعات، وهذه المرة بوضوح وبصوت مسموع: «اختارها طويل العمر من آل المدلجي حتى يثبت لفضة ان المدالجة معه ما هم معها، وإنه يقدر على كل شيء». وقال احد خدم فضة، وكانت تحوم حوله الشكوك انه ينقل لسيدته كل ما يدور في قصر الروض «عمتي هي اللي اختارتها، وباكر تشوف عيونكم». أما تهاني فقالت كلمات غير واضحة: «غير السلطان بقصر الروض ما احد كبير» وقال غير هؤلاء اشياء اخرى.

وطفة ظلت تنفي اخبار الزواج الجديد، واكدت خادمتها لولوة ان السلطان بعث يطلب عودة اولاده الصغار الذين اصطحبتهم فضة معها، وسوف يعودون بين يوم وآخر دون امهم!

عودة موزة، المفاجئة، وما رافقها من ضجة، غيّرت الكثير مما كان يقال: دخلت جناح سيدتها ورابطت فيه، وتظاهرت انها لم تسمع الاسئلة التي وجهت اليها، لكن بدت في عينيها اشياء كثيرة واضحة، دون كلمات. ومما زاد في القلق والاشاعات ان السلطان استدعاها، ومكثت في جناحه ساعة كاملة، واكدت اثنتان من الخدم انهما شاهدتاها تضحك في حضرته، وامر لها بالشاي ايضاً. وبعد ذلك بساعتين، او ثلاث ساعات، وقبل الغروب بقليل، غادرت القصر ورافقتها ثلاث سيارات.

ناهي الفرحان جاء راكضاً لطالع بعد ان سمع الاخبار، ورأى بنفسه اشياء كثيرة، قال وهو لا يخفي قلقه:

ـ الله ستر، يا ابو جازي، حنا ما حطينا ارواحنا بهذي الطلايب، ترى كثيرين اذا خلصوا من طويل العمر، ما راح يخلصون من بنت المدلجي، لانهم ما تركوا شيء بحقها الا وقالوه، واولاد الحلال كثر، وعلم الله انهم وصلوا كل شي.

ـ حنا ما علينا، ما قلنا ولا سمعنا!

وبعد قليل وكأنه شعر بميزة الحذر الذي لا يفارقه:

ـ الحق اللي تقوله يا ناهي، ومن قبل قالوا: إن تكلمت بالليل فاخفت، وان تكلمت بالنهار فالتفت، لكن البني آدم ما يتعلم الا من كيسه.

وسارت الامور بعد ذلك وفق شكل لم يتوقعه احد: وصلت العنود بنت سالم المدلجي إلى قصر الروض، ترافقها نسوة كثيرات، معهن موزة، وأُفرد لها جناح خاص في المبنى الرئيسي، بجانب جناح فضة، وجرت احتفالات الزواج بشكل سريع. وبعد ثلاثة ايام عادت فضة الى القصر، ورغم انها بدت اكثر سمنة، الا أنها لم تتغير. أكثر من ذلك لم يتغير موقعها في القصر. فنظر الكثيرون بعضهم إلى بعض... وتساءلوا!

حليمة التي أنجبت لخريبط موضي وفنر ومضت بسرعة، خلّفت في نفسية الطفلين آثاراً لا تزول. فالطفلان، من حيث الأم، يحسان أنهما من سلالة تتميز عن سلالات الأمهات الأخريات، ومن حيث الأب بعيدان منسيان، لا يكاد خريبط يتذكرهما إلا كما يتذكر صديقاً قديماً أو شيئاً مفقوداً. فإذا استدعاهما من عين فضة، لكي يقضيا أياماً في موران، لا يتردد، بعض الأحيان، في أن يسألهما عن الدرويش جدهم، كما يروق له أن يسميه، مع أن الشيخ عوض ملء الاسماع والأبصار، كما يبدو للطفلين، رغم الطيبة التي يتميز بها، والبساطة التي تجعله يصل الى حدود التواضع أو الغياب، ورغم الزيارات التي لا تنقطع لعين فضة من أجل استشارته في أمور الدين.

لم يتكلم الشيخ عوض عن عراقة السلالة أو أهميتها، كما كان يجري الكلام في جلسات خريبط ومضافاته؛ ومع ذلك فإن النسوة في عين فضة، خاصة المسنات، والشبان في مرحلة الانتقال الى سن الرجولة، كانوا لا يتوقفون عن الحديث عن سلالة الشيخ عوض واهميتها، والدور الذي لعبته في مساعدة ومساندة خريبط وتثبيت حكمه. وكان هذا الحديث يصل حدود الصخب حين يبلغ أسماعهم أن خريبط تزوج بامرأة جديدة، أو يعرفون أن زوجة من زوجاته انجبت ولداً جديداً! كانوا يتكلمون وينظرون الى فنر، ويتذكرون حليمة التي لم تنجب غيره وموضي. فإذا سمع الشيخ عوض الحديث، أوجاء من يقطع عليه أدعيته، وينقل إليه تفاصيل زيجات خريبط الجديدة، والأبناء الذين ولدوا له، كان يقول، وابتسامة حزينة تطوف على شفتيه: ﴿كل مَنْ عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾. فإذا تابعوا

الحديث أو ألحوا فيه، كان يقول بعد صمت طويل وكأنه يحدث نفسه:

ـ كان محمد يتيماً وكان وحيداً لكن الله مكّنه وأعطاه.

فإذا ألحو أكثر من ذلك يرد:

ـ وجدّنا كان يتيماً ووحيداً وانتم تعرفون ما حصل بعد ذلك.

ولأن الشيخ عوض كان يحب النمل والقطط والخراف الصغيرة ويحنو عليها، كان يمنع عنها الأرجل والحجارة. وعن الخراف سكاكين الشرهين، خاصة من الشبان. كما أحب الأطفال واحبه الأطفال.

إذا تذكر فنر شخصاً في عين فضة فصورة الجد. وأول حزن أحس به حين حملته إحدى النساء وظلت تتشممه وتقبله وتردد: «وين عينك يا حليمة»، أما أول مرة شعر بالزهو فحين ألبسه الشبان في عين فضة ملابس الكبار والتفوا حوله ينظرون إليه بإعجاب ويحدثون فيما بينهم، أكثر مما يتحدثون إليه: أنه يشبه الملوك، وقد طلبوا إليه أكثر من مرة أن يرفع رأسه وأن يشد ظهره ليبدو كبيراً وقوياً!

موضي التي سمعت أحاديث النساء، واعجبت بألعاب الشبان أُخذت. لم يعد لها في هذه الحياة سوى فنر. تركت طفولتها بسرعة، أصبحت الأخت التي تكبر عمرها: تعتني به، تهيّىء له أكله وفراشه، ولا توقف عن رواية القصص التي سمعتها من الكبار والصغار عن فنر الأمير. وفنر الأمير يغرق في تلك الملابس الفضفاضة، ويتصرف تصرف الكبار، ويردد بعض الكلمات التي سمعها من جده.

في عين فضة يحس أنه أمير حقيقي، وأنه كبير: المدى وأشجار النخيل والعيون التي تتابع حركاته وتصرفاته.

في موران، وأثناء الزيارات التي يضطر الى القيام بها تلبية لطلب والده، وضمن ذلك الحشد الهائل من الأمراء الصغار والخدم والحراس والزوار، يحس أنه أصغر من النمل الذي يدب في عين فضة، لأن للنمل هناك من

يحميه، أما هنا فإنه يضيع في الزحام والصخب والركض المجنون لتلبية طلبات السلطان الوحيد: خريبط. فإذا انتبه اليه أحد فلكي يسأله من يكون ولماذا يلبس هذه الملابس المضحكة، ولا يعرف هل يجيب عن الأسئلة أم عن العيون المليئة بالأفكار والسخرية.

كان يضيق بموران، لا يحبها، ولا يعرف كيف يستطيع الناس أن يعيشوا فيها. فإذا نسيه أبوه، لا يتردد أن يطلب من نصار العودة الى عين فضة. ويكون جده، قبله، قد أوصى نصار أن ينتهز أول فرصة، وبعد ان يستأذن السلطان، لكي يعود. وكذلك توصيه مزنة. أما موضي فإنها تقبّل يدي نصار وترجوه ألا يتأخر.

تقول خالته مزنة: «موضي من ساعة ما يترك فنر عين فضة تتسودن، يكون براسها عقل ويطير. لا تأكل، لا تشرب، لا تنام.. الى أن يعود، فإذا طالت سفرته تسقم وتريد تموت، وبالليل والنهار تصرخ وتعيد: وين أخذوه؟ وشنهو اللي صار بيه. وحنا بالنا عند من ولّا من. نقول لها: يا بنت الحلال: فنر عند أبوه، فنر ضيفهم وبعيونهم يشيلوه، لا تخافي، ولا تصيحي، وتصيح وما تستريح: مالي صبار الى أن يعود. وتظل موضي مسودنة البيت وعين فضة الى أن يعود».

إذا عاد، بعد أسابيع، وبعد ذلك الاضطراب والصخب، تستقبل عين فضة ضيفاً كبيراً وعزيزاً. فخاله عمير لا بد أن يجعل عودته مناسبة لاحتفالات تستمر أياماً، ولابد أن ينتزع عدداً من رؤوس الغنم، رغم احتجاج الشيخ عوض، لكي تذبح، ويجب أن تتذكر عين فضة عودة فنر أكثر مما تتذكر سفره.

وبين عين فضة وموران تتوالى القصص والأخبار والأسئلة، ويتبعها الهمس والتعليقات والقصص الجديدة؛ ثم تعود الحياة بطيئة راضية، كما لو أنها في بداية الخليقة. ترتفع أدعية الشيخ عوض في ليالي الصيف، وتسمع أغاني الشبان في أطراف القرية، وتظل القصص ذاتها تروى مرة بعد اخرى، ويظل الناس يضحكون ويطربون، كما لو أنهم يسمعونها لأول مرة.

لما بلغ فنر الثانية عشرة، وفي احدى زيارات أبيه لعين فضة، نظر اليه نظرة مختلفة عن أية مرة سابقة. قال له وقال لجده الذي كان غارقاً في أدعيته، وقال لخاله عمير وللذين يقفون وللجالسين:

ـ من اليوم فنر مكانه بموران، يلزمه يكون قريب منا ويعاونّا، واللي يريد فنر مكانه معروف، وأهلاً بكم بموران وألف مرحبا!!

ولأن السلطان بقي في عين فضة، وما جاورها، ثلاثة أيام، فإن الشيخ عوض لم ينم خلال هذه الأيام الثلاثة، يريد أن ينفرد بالسلطان، ويطلب منه بل يرجوه، ان يبقى فنر، لكن السلطان، خلال هذه الأيام، لم يكن وحيداً ولم يكن مستعداً لأن يختلي بالشيخ عوض، لقناعته أنه ليس لديه شيء يقوله، فاستعاض الشيخ عن الحديث بالدعاء.

جدته كانت أكثر فهماً، ربما لأنها أكثر حباً، بعد أن كلمّت نفسها بصوت عالٍ، وقالت ما لا يقال، تريد من الجميع أن يسمعوا، صرخت بالجد ومزنة وموضي وكل الذين حولها:

ـ هذا ابنهم يا جماعة الخير، وإذا ما أخذوه اليوم يأخذونه باكر أو اللي عقبه، كبّروا عقولكم، وإذا تريدون مصلحة فنر مكانه هناك!

خاله عمير كان عملياً، رغم الخيالات والأوهام التي تعبر رأسه في بعض الليالي. كان يريد لعين فضة أن تبقى وأن تكبر، وأن تصبح شيئاً. ويتذكر ان موران لم تكن تقاس بعين فضة، كانت صغيرة مهجورة لولا أن خريبط سكنها وجعلها عاصمة. ومع ان عمير ذبح عدداً كبيراً من الغنم من أجل ان تكبر عين فضة، ورغم الاحتفالات التي أقامها في استقبال فنر وغيره من شيوخ العائلة، ومع أن أباه لم يتوقف يوماً واحداً عن الدعاء، فقد ظلت عين فضة تصغر وتتضاءل، لان الشبان الذين ملّوا الغناء، وتعبوا من الانتظار، لم يجدوا أمامهم سوى الرحيل باباً يدخلون منه الى حياة أفضل.

لما رأى عمير السلطان يريد أن يجمع أبناءه، كما كان يفعل حين يجمع جيشه، قال في نفسه: «من موران يمكن أن نحارب» ولذلك كان مقتنعاً وموافقاً على سفر فنر. وانصرف تفكيره تماماً الى ما يجب أن يكون فنر هناك.

كيف يعيش، أين يقيم، ومن هم الأشخاص الذين سيكونون حوله.

قال للسلطان في اليوم الثالث، وهو يستعد للسفر:

- ... وحسب أوامركم، يا طويل العمر، يلزم أن تكون موضي مع الأمير.

رد السلطان وهو يلتفت:

- أي نعم... أي نعم.

- وحتى ما يتعب بهم أحد، يا طويل العمر، أصل معهم، وبمشورتكم نرتب الأمور.

وهكذا انتقل فنر وموضي الى موران، ومعهم الخال عمير.

كانت الجدة صارمة، أقرب الى القسوة، وهي تودعهم. قالت انها ستأتي الى موران لزيارتهم، وقالت ان موران مثل عين فضة. وقد أعطت لكل منهما ليرة رشادية، ولما اطبقت على يد موضي، وهي تعطيها الليرة وشوشتها: «ما أريد أوصيك يا موضي، أنت أخته وانت أمه، وعليك الاعتماد». أما الجد الذي غاب ساعة الوداع، وقد بحثوا عنه طويلاً، فكان، أغلب الوقت، في الغرفة الصغيرة على السطح يدعو الله أن ينسّي خريبط أخذ الأولاد! أما حين سمع قهقهات خريبط، ولما رأى الجميع يخرجون من المضافة، وكان فنر في المقدمة، بملابسه الفضفاضة، وبدا له أن الله لن يستجيب بهذه السرعة، فقد غادر العليّة، وركض الى الموكب الذي تحرك. قال عليوي الذي كان يرقب كل شيء بعناية، ان الدموع انحدرت على خدي الجد وهو يلوح لفنر وموضي.

الخالة مزنة كانت بقرب أمها، وقد تحركت كثيراً لتشغل نفسها، وان ظلت صامتة، ومتأكدة أيضاً أنها ستلتحق بهم حالما يستقرون في موران، قالت بصوت عالٍ:

- اذا نصبتم خيامكم وعمّرتم دلالكم، وبعثتم وراي تري أجيكم إذا مو أول يوم، اليوم اللي بعده!

وتحرك الموكب مغادراً عين فضة الى موران، وكانت سيارة فنر وموضي الثانية في موكب السلطان!

في قصر الروض، وضمن ذلك الحشد الهائل من الصغار والكبار، ووسط مهرجان من اللغات والألوان لا تجتمع في أي مكان آخر، ضاع فنر وموضي، ولولا بعض عجائز القصر، لما وجدا مكاناً للنوم أو لوضع الأشياء القليلة التي حملاها معهما من عين فضة.

كان القصر شيئاً عجيباً: عشرات الأجنحة والغرف التصق بعضها ببعض في آخر لحظة. على الجوانب غرف الحرس والخدم. في الوسط: البناء الرئيسي، وكان يشغله السلطان وثلاث من نسائه المقربات، وهذا البناء، وهو من طابقين، له شرفات تطل من جانب على الديوان الكبير، ومن جانبين آخرين على الأبنية الملحقة، وأغلبها مستحدثة، وقد أملت وجودها الحاجة والضرورة، أما الجانب الأخير، القبلي، فكان يطل على اسطبل الخيول.

لا أحد يعرف من يتحكم بالقصر أو كيف تدار شؤونه، إذ رغم وجود عدد كبير من المشرفين والمراقبين، فإن الفوضى والاضطراب والصخب أبرز ما يتميز به. القدامى من المقيمين لهم الأولوية في السكن والأثاث وحتى الطعام، وهذا لم يحصل نتيجة قرار أو اتفاق، وإنما فرض نفسه بحكم العادة والتكرار. ونفس الميزة تتاح للضيوف الطارئين في الأجنحة الشرقية، والتي يفصلها عن الداخل سور عالٍ. أما الذين جاءوا حديثاً للإقامة في القصر فإنهم يصطدمون بالصعوبات في كل خطوة من خطواتهم، إذ رغم أوامر السلطان، وغالباً ما تكون غير مباشرة، وعن طريق دغيم السرهود بالتحديد، وفي حالات قليلة عن طريق خدم السلطان أو حراسه، فإن القادم الجديد لا يعرف كيف يتصرف أو الى من يتوجه، فإذا توافر له المكان، والعادة ألا يحصل، وغالباً ما ينتزع من

آخرين كانوا يشغلونه أو لا يشغلونه، وما يترافق مع ذلك من رفض أو امتناع، وفي حالات كثيرة الى إغلاق الغرف ومغادرة القصر، أو إضاعة المفاتيح، فان توفير الاثاث والحاجات الضرورية امر في غاية الصعوبة، فالمستودعات رغم أنها تزدحم بالحاجات القديمة أو غير العملية، فان وصول أية كمية من الأثاث الجديد معناه الاستغناء مباشرة، وخلال الأيام الأولى، عن الأثاث السابق، واستبداله، وتجري هذه العمليات بأوامر متلاحقة من الأمراء والأميرات، ومن الخدم والحراس، بحيث يختلط القديم بالجديد، ولا يعرف من أخذ ومن أعاد وبهذه الطريقة تتراكم الحاجات لكن يتعذر تماماً التأكد من وجودها أو عدم وجودها.

إذا أمكن تجاوز هذه المشكلة والتغلب على هذه الصعوبات، وهي في العادة تستغرق أياماً، وتخلف الكثير من المشاحنات والمراجعات وتدخل الكبار، تبدأ مسألة العلاقات بين المقيمين والوافدين: أي قادم، مهما كان كبير المنزلة أو السن، لا يزيد عن أن يكون طريدة أو هدفاً لعشرات الصيادين المنتظرين والمستعدين. فما عدا أعمام السلطان واخوته، وقد انتقل بعضهم للإقامة فترات طويلة في قصر الروض، وأخبارهم سبقت وصولهم، فإن كل قادم جديد يتعرض الى مجموعة من الاختبارات ثم الهجمات: تبدأ بأن ينظر الحرس بعضهم إلى بعض، أن يسألوا ويستفسروا عن عددٍ من الأمور أو الأشخاص، فإذا توافرت المعلومات بحيث يكوّن كل فريق صورة عن الفريق الآخر: مدى علاقته بالسلطان، مدى أهميته، وتقاس هذه الأمور بالخيول أو السيارات، بعدد المرافقين والحراس، بنوع الألبسة والأسلحة، ثم طريقة هؤلاء في التصرف. فإذا اكتملت هذه المرحلة، ولم تعد هناك حاجة الى مزيد من المعلومات، لابد أن تجري اختبارات من نوع أو آخر للتأكد من بعض النقاط، ومدى استعداد الطرف الآخر. وهذه الاختبارات يتخللها الكثير من المراوغة والمكر، وتتطرق الى معرفة أدق التفاصيل المرتبطة بالقادم الجديد: لماذا جاء الى هنا، والى متى سيبقى، وعشرات الأسئلة الأخرى، وكلها تطرح بعفوية، وكأنها جزء من حديث عام يتسم بالبراءة الكاملة. لكن الطرفين يعرفان كيف يمكران وكيف يجيبان، بحيث يضلل أحدهما الآخر، أو يخلق لديه أوهاماً، تحمله من جديد على اعادة النظر والحساب.

هذه المعلومات والتقديرات لابد أن تنقل على عجل الى المراكز الخلفية، وهي على درجات. والعادة أن تنقل بطريق غير مباشر، كأن يتظاهر أحد الجالسين، وغالباً لا يشارك في الأسئلة والاختبارات، بضرورة مغادرة المكان، أو أن يأتي احد الخدم، وبطريقة لا تفتقر الى البراعة، يطلب مجيء فلان، عن طريق هؤلاء تقدّم معلومات أولية ويعطى تقدير لما قيل ولما جرى، يتحدد على ضوئها ما إذا كان الأمر يتطلب مستوى أعلى من الاستشارة، لمعرفة درجة القرابة أو الأهمية، وهل من الواجب مواصلة هذه الطريقة أم استبدالها. كل ذلك يترافق مع الامازيح وتقديم الخدمات وإعطاء الرأي بالآخرين.

هدف الاختبارات والخدمات والمعارك أن يتحدد وضع القادم الجديد: موقعه ضمن المواقع الكثيرة المتنازعة في القصر. إذ لا بد أن يكون جزءاً من احدى القوى المتصارعة، من معسكر، وأن يكون امتداداً لقوة من القوى الكثيرة الموجودة. صحيح أن الأمر لا يتم بتلك السرعة أو البساطة، لكن الساعات الأولى، الأيام الأولى، لوصول القادم الجديد، تحدّد معظم الاحتمالات، وتترك تأثيرها لفترة طويلة.

ومع أن الهدف الرئيسي تحديد موقع القادم، او محاولة كسبه، فإن النتائج الجانبية التي تتحقق كثيرة ومتنوعة، وغالباً ما تثير الضحك. فالاخطاء التي وقعت والأكاذيب، ثم تلك الخدع التي يُستدرج بها الكبار والصغار، تصبح موضع حديث وتندر، وتنقل من مكان الى آخر، بأشكال مختلفة، وبعض الأحيان تصل الى السلطان، مع ما يرافق ذلك من مبالغات وتحريض ووقيعة، وغالباً ما تؤدي الى معارك تبدأ في مخادع النساء، الى أن تعم القصر كله. وقد يتدخل السلطان، أو من ينيبه، من أجل إعادة النظام، وقد يستدعي الأمر تغيير المشرفين، أو نقل عدد من المقيمين أو الضيوف إلى أماكن بعيدة، وربما تقضي الحاجة بناء أجنحة جديدة في القصر، كل ذلك لوضع حد للخصومات، أو لإيجاد حواجز ومسافات بين المتخاصمين.

لا يمكن لأحد، في قصر الروض، أن يكون محايداً أو غير مهتم؛ فالأحداث التي تقع كل يوم، والأحاديث التي تنتقل، تجعل كل واحد

مشاركاً: حتى الزوار والمراجعين والذين يحملون المؤن، يصبحون، بشكل أو بآخر، جزءاً من موضوعات القصر أو همومه.

وإذا كانت اختبارات الرجال ومناوشاتهم تجري في الهواء الطلق، في ظلال الجدران أو تحت أشجار النخيل، ويتخللها الكثير من المرح ومظاهر الود، فإن معارك النساء تجري وراء الأبواب المغلقة، وبتكتم وسرية، كما تأخذ أشكالاً ضارية وشديدة المكر، لأن كل امرأة جديدة تدخل القصر قد تقلبه، وتغير نظامه، وقد تغير مواقع الناس فيه. ويتذكر الجميع ما رافق وصول فضة، الزوجة المفضلة لدى السلطان، إذ ما كادت تصل وتستقر في البناء الأوسط، حتى تغير كل شيء في القصر: فالسلطان الذي كان يقضي شهوراً كل عام، متنقلاً من مكان لآخر، محارباً وغازياً، او في فض الخصومات بين القبائل التي تؤيده، ما لبث أن تخلى عن أسفاره، أو اختصرها الى أقصى حد، مكلفاً بعض أبنائه، يساعدهم أعمامه واعمامهم، لكي يقوموا بهذه المهمات نيابة عنه. أخذ يفعل ذلك، لكي يبقى الى جانب فضة. لم يقل أحد ذلك صراحة في بداية الأمر، لكن ما إن بدىء بتوسيع البناء الأوسط، وإخلاء قسم من شاغليه، أو على التحديد إخلاء اثنتين من نساء السلطان، حتى تحول الهمس الى حديث صريح، واصبحت الوشوشات اتهامات ينقلها الخدم وتصل الى مسامع الرجال، لكن وجود السلطان في القصر، ولأن الامر مرتبط به شخصياً، لا يترك مجالاً للتمادي، إذ بالإضافة الى الخوف الذي يتولد من وجوده، خاصة وأنه لجأ مرات عديدة الى إنزال عقوبات بعدد من الخدم والعاملين في المخازن، وصلت في احدى المرات الى اعدام ثلاثة من هؤلاء، نتيجة أخطاء صغيرة، ووشايات نقلوها أو نقلت عن لسانه. لكن ليس دائماً الخوف وحده الذي يردع، فغالباً ما يرافقه مبادرات من السلطان على شكل هدايا، أو ترضيات، بالإضافة الى الزيادات، وهي تأخذ شكل الاعتذار، وفي حالات خاصة فإن نساءه الغاضبات يقبلن بنوع من التسوية، أو هكذا تشيع الزوجة الغاضبة عن طريق الخدم والقريبات، مع تأكيد متزايد على الهدايا الثمينة التي رافقت زيارة السلطان، وكثيراً ما تصبح المبالغات سببا لعدم التصديق!

إذا لم يكن الأمر متعلقاً بالسلطان، أو بإحدى نسائه القريبات، وغالباً ما

تتحدد درجة القرابة إما نتيجة القدم، أو الدم، أو تبعاً لعدد الأبناء الذين تنجبهم تلك الزوجة، وبعض الأحيان لأسباب لا يدركها أحد، وتظل سراً بين السلطان وتلك المرأة! إذا لم يكن الأمر بهذا الشكل، أو على هذه الصورة، فإن الحرب التي تقع، خاصة بين النساء القويات، لا يمكن السيطرة عليها، كما لا يعرف أحد كيف تتطور. تبدأ بالهمس، تنتقل من مخدع لآخر، ومن جناح لثانٍ، ثم تأخذ شكل حدة في العلاقات تتلوها المقاطعة، وأخيراً تصل الى تبادل الاتهامات، وبعض الأحيان الى التصفيات.

المرات التي قتل فيها عدد من الخدم في قصر الروض كثيرة، بل ويكاد الأمر يتكرر بين فترة واخرى، لكن غالباً ما يقع، أو بالأحرى دائماً ما يقع، أثناء غياب السلطان. (وان يقتل) الخدم فلأنهم الأداة المباشرة للحرب الدائرة، فهم الذين ينقلون الرسائل والاشاعات والاتهامات، وهم الذين يركضون في هذا الاتجاه أو ذاك للتحريض والاستنفار، بل يكاد يصل الأمر ببعضهم أن يصبح معنياً بالمعركة اكثر من ذوي العلاقة؛ وفي حالات اخرى يصبح الخدم أكثر معرفة مما ينبغي، ويعتبر ذلك سبباً كافياً للقتل!

وإذا كانت العادة أن يلجأ الرجال الى السلاح، اما نتيجة سورة من سورات الغضب، أو نتيجة القصص الدقيقة المحرجة خاصته في « المنطقة الحرام » لتصفية واحد من الذين يحملون الرسائل ، فإن عبيد الطرف الآخر أو حراسه لا يتأخرون في اللجوء الى تصفيات مماثلة في الليل ، إما بحجة الخطأ أو أثناء تنظيف الأسلحة!

هكذا يجري قتل الرجال، أما النساء فغالباً ما يكون قتلهن بواسطة السم أو أثناء الولادة. وقد صدف - وان لم يتكرر كثيراً - عدة مرات بأن ألقت بعض النسوة انفسهن في آبار القصر، أو متن في الحمام الشمالي مختنقات أواخر الليل، وهذا الحمام غير بعيد عن المبنى الرئيسي! كما أن ثلاثاً من نساء السلطان متن حسرة، كما قالت وطفة زوجة السلطان الرابعة! وأكثر منهن وجدن مشنوقات في غرفهن، وأكد الخدم أن الغرف كانت مقفلة من الداخل!

صحيح أن عمليات القتل قليلة إذا قيست بما دونها، كالإشاعات أو الاعتداء بالضرب، أو ربما الطرد من القصر، أو بعمليات الملاحقة وإطلاق الرصاص والهرب والاختفاء؛ أما النكت التي تنتشر وتنتقل، والنوادر، ثم الاشاعات، وما يتخللها من حركات تمثل الطرف الآخر، فإنها كانت تسلية النساء بشكل ظاهر، وكانت حلقات بعض الرجال لا ترفضها. أما الاشعار التي تحرّف أو تنظم في مديح فلان من الناس أو في هجائه، فقد كانت على كل شفة ولسان، وكان الخدم يتفننون في القائها، وكأنهم يتشفون أو ينتقمون! ويؤكد عدد من الحرس الخاص، والذين قضوا فترة في القصر، أن هذه الأشعار كانت تصل الى مسامع السلطان، فيبتسم مرة ويغضب اخرى، وكثيراً ما استعاد واستفسر واستقصى، وغالباً ما تمر الأمور دون نتائج تذكر، خاصة إذا مضى عليها الوقت، أو لم يعرف قائلها، أو كان القصر في حالة من حالات الهدوء والسكينة.

إذا لم يكن القصر في معركة، فلابد أن يكون قد انتهى من واحدة أو يستعد لأخرى. وفي بعض الحالات تتوقف المعارك، أو تخفت حدّتها نتيجة عودة السلطان المفاجئة، أو نتيجة حدث استثنائي، كأن يتزوج امرأة جديدة من احدى القبائل الكبيرة أو المخاصمة. ويحرص، عند ذاك، على أن تقام احتفالات خاصة، ويجري توزيع الهدايا، واطلاق الرصاص، ولا ينسى السلطان أن يقيم احتفالاً لخيوله وللخيول الجديدة التي جاء بها. هذا الاهتمام من قبله، أو بإيعاز منه، ليس تعبيراً عن فرح فقط وإنما تعبير عن قوة أيضاً، وهو بمثابة رسائل الى الذين يعنيهم الأمر في الداخل والخارج.

والحدث الجديد لابد أن يحدث هزّة لكل ما هو قائم، وقد يغيّر في العلاقات والخصومات، فخصوم الأمس قد يصبحون أصدقاء، ومعارك الأمس قد تتحول الى تحالفات وعلاقات جديدة. أما الاشاعات والاتهامات والنوادر فسرعان ما تنسى وكأنها لم تكن! طبيعي أن يتم الانتقال بهدوء وبشكل غير مباشر، لكنه عادة يتم بسرعة، مع ما يرافقه من اعتذار واعتراف ودعوات، وأيضاً ضرورة إبعاد عدد من الخدم والمرافقين والحراس من كل جانب، والذين تسببوا في الوقيعة والاساءة، وغالباً ما يتم إبعاد هؤلاء بصورة مؤقتة،

بسبب عدم الثقة، أو لأن الحاجة تستدعي الاستفادة منهم مجدداً. وقد حصل عدة مرات أن بعض الذين ابعدوا لاقوا حتفهم في ظروف قيل انها غير واضحة! كما أن عدداً من هؤلاء، وبعد مرور فترة اعتبروها كافية، بعثوا عن طريق معارف أو أقرباء، الى الطرف الذي خاصموه يعلنون استعدادهم لإبلاغه بأمور خطيرة يعرفونها، وكانوا شهوداً عليها أو مشاركين فيها، ومن شأن هذه الاتهامات والمعلومات أن تغيّر الكثير.

حتى الأطفال والصبية في قصر الروض، لا يترددون في أن يفعلوا ما يفعله الكبار من النساء والرجال. صحيح أنهم يفعلون ذلك في البداية بتحريض من الخدم، أو بتأثير الجو والكلام الذي يسمعونه، لكنهم سرعان ما يتجاوزن ذلك، إذ تصبح لهم احلافهم وخصوماتهم، ويبرز بينهم القادة والموجهون والمحرضون، ويتفننون بالمكر والقسوة والوقيعة، لا يفرقون بين من يحبهم أهلهم ومن يكرهونهم، المهم أن يبرعوا، وأن يظهروا براعتهم، وان يعترف لهم بذلك الكبار!

ليس في قصر الروض طفل لم يحصل على مسدس أو بندقية، فلكثرة وجود السلاح، واستمرار الحديث عن المعارك والبطولات، ولأن السلاح أولى هدايا الأب لأبنائه، فقد كان امراً مألوفاً أن يوجد بأيدي الأطفال. صحيح أن الكبار يوصون الصغار، أو لا يعطونهم الذخيرة، كما يطلبون من الخدم الانتباه، إلا أن تجاوز ذلك كان من ايسر الأمور.

بعد الأهداف الثابتة تصبح الحيوانات هدفاً لرصاص الصغار، إذ يطاردون الكلاب والقطط ويتبارون بقتلها، أو التمثيل بها، وغالباً ما يسببون لها عاهات دائمة. فما تكاد تصل الى أيديهم حتى يربطوها لتصبح بعد ذلك أهدافاً صعبة! وقد وجدت بعض الخيول مقتولة أيضاً، وصدف أن قتل أحد الخيول السلطان، واسمه الادعج، ولم يجد المشرفون على الاسطبلات بداً من اختلاق الأعذار لتبرير ذلك أمام السلطان. قالوا أصيب بالمرض، وقالوا ان عقرباً لدغه، وقالوا أخيراً انهم تركوه يرعى في عشب قريب، فأكل فيما أكل نبات الزقنبوت، ولما بحثوا عنه وجدوه في طرف المرعى وقد انتفخ ومات.

ليست الحيوانات وحدها اهدافاً للرماية، إذ يشاركها في ذلك العبيد والخدم، خاصة في أوقات الشدة، وغالباً لا يعرف من الذي قتلهم. والرد في هذه الحالات لا يكون في البحث عن القاتل ومعاقبته، وإنما في الثأر والانتقام من حيوانات وعبيد وخدم القتلة المحتملين، ويجري ذلك في جو من الحذر والتخفي، كأن يصبح الصباح ويُعثر على حصان ميت، أو تشب النار فجأة في أحد الأجنحة. وصدف عدة مرات أن وجد بعض العبيد في اطراف القصر، عند بستان النخيل أو قرب الاسطبل مقتولاً. لا تتوقف هذه الموجة، مؤقتاً، إلا حين يُظهر المشرفون على القصر الحزم والغلظة، ويعلنون بصوت عالٍ أنهم بعثوا الى السلطان بالأخبار، ولابد أن يصل بين يوم وآخر، عندها يتدخل الكبار والعقلاء لوضع حد لهذا العبث، ويقولون بصوت عالٍ: «حنا نعرف الفاعلين، وإذا جاء طويل العمر نعلّمه بكل صغيرة وكبيرة، وبعدها كلٌ ذنبه على جنبه!»

عند ذلك تهدأ الأمور، وتجري، سراً، مفاوضات يشوبها الكثير من المساومة والضغط، وغالباً ما تقوم بها النساء في البداية، إذا كان الخصومة بين الرجال، حتى إذا وصلت الأمور حداً من القبول يتابعها بعض المسنين من الرجال إلى أن تنتهي إلى المصالحة، ويكون إعلان انتهاء هذه الخصومات على شكل زيارات ودعوات، وغالباً ما يقوم بها بعض الأقارب وأصدقاء الطرفين.

في فترات السكينة والرضا، خاصة حين يكون السلطان في قصر الروض، وإذا تم تجاوز المبنى الرئيسي وديوان الرجال، فإن القصر يتحول الى خلية من الحركة في الليل والنهار، هذه الحركة يباشرها الأطفال والخدم والنساء والخصيان. فالزيارات التي يجري تبادلها، والهدايا التي تنقل من مكان الى آخر، ولإطلاع الآخرين عليها فقط، والقصص التي تروى، والطلبات الموجهة الى الخدم بضرورة القيام ببعض الأعمال، هذه الأمور، وغيرها كثير، تجعل القصر مثل خلية النحل. فإذا دخل الليل تبدأ الأمازيح الماجنة، والحركة الخائفة والمرتابة لتأمين مواعيد الليل، ولا تكون بريئة في أغلب الأحيان.

أما ما يشغل القصر أكثر من غيره، وما يبدد الرتابة والسأم المسيطرين عليه، خاصة في أجنحة النساء من الزوجات المهجورات والعمات والخالات، إضافة الى الزائرات، وعددهن أغلب الأيام بالمئات، فتلك المقالب والمكائد البريئة التي تدبر في معظم الليالي، وقد أصبح لها أربابها والبارعون فيها، فالمرات التي طليت فيها وجوه النائمات بالاصباغ لا تعد ولا تحصى، وتكاد تجرّب مع معظم الزائرات؛ وإخافة النساء، بالأصوات المرعبة، أو بإطفاء الأنوار، وعادة يقوم بها الأطفال والصبية، تتكرر كل ليلة. أما أن تلبس احدى الخادمات ملابس الرجال وتدخل فجأة، فإن هذه التسلية تقوم بها ربة الجناح للترويح عن زائراتها! وهناك عشرات المكائد المشابهة التي تدخل في الطعام والشراب، وتكون مدعاة للتندر والضحك والصخب المتواصل، وينتقل قسم منها الى ديوان الرجال.

والمكائد إذا كان ضحاياها من الخدم والعبيد، فتكون عندئذٍ أقسى، وتدبر ببراعة أكبر، ويشترك في هذه ديوان الرجال أيضاً، وكثيراً ما تخللها المراهنات والتحديات؛ والخدم، او بعضهم، يساهمون فيها عن مكر أو عن بساطة تصل حدود الغباء!

حين وصل فنر وموضي الى قصر الروض، لكي يبقوا فيه، كان قد مضى على زواج السلطان من فضة اكثر قليلاً من اربع سنين، انجبت له خلالها ولدين ذكرين، وكانت في مرحلة متقدمة من حملها الثالث، وهذا ما دعا السلطان الى اختصار عدد من زياراته والعودة المبكرة الى موران، ليس لأنه في شوق الى فضة ويحبها أكثر من نسائه الاخريات فقط، وإنما للرهان الذي قام بينهما. فموزة، وصيفة سيدة القصر، التي أكدت في المرتين السابقتين، وراهنت، وقالت للسلطان ذاته وهي تبتسم: «إقطع راسي يا طويل العمر، إذا ولدت ستي غير ولد»، فإنها هذه المرة أكثر ثقة، ومستعدة لرهان أكبر. والسلطان الذي كان مترقباً ومتشوقاً لولد الثالث تنجبه فضة، فلكي يقدّم لنفسه الدليل، قبل أن يقدمه لزوجاته الاخريات، أن فضة تختلف عن غيرها من النساء: لا تتأخر، ولا تنجب سوى الذكور!

موزة وهي تؤكد أن الطفل سيكون ذكراً، مدت فضة يدها، وهي تبتسم، الى السلطان وقالت بحزم:

ـ أنا مع موزة، وهذي يدي والرهان بيننا!

والسلطان كان راغباً في هذا الرهان، حتى لو خسر، قال وهو يتنحنح:

ـ هذي يدي، وأنا أقول: بنيّة.

وتراهنا. وفي كل ليلة كان الرهان يرتفع وتقسو شروطه، وإن تخللته المداعبات والشكوك، لكن السلطان ظل مشغولاً بهذا الأمر، منذ أن عرف بحمل فضة. حتى في أسفاره ظل يفكر ويأمل وينتظر!

الآن وهو يعود، وما يرافق العودة من اهتمام ونشاط وخوف أيضاً، فقد كان وحده موضع اهتمام الجميع، وكانت فضة والمولود القادم موضع اهتمامه هو، مما أدى الى نسيان فنر، أو على الأقل لم يحظ بما حظي به في سفراته السابقة. فالسلطان الذي آوى الى جناحه مبكراً للراحة، ترك لدغيم أن يرتب أمر القادمين، وقد خلق هذا حرجاً وتساؤلات، فلا يُعرف إذا كان الأمر يتطلب إجراء مؤقتاً أو حلاً دائماً. فأن يأتي فنر ليبقى يجعل التفكير متجهاً الى ما وراء ديوان الرجال وخلف السور، وبالتالي يحتاج الى اجراءات وقرارات تتناسب مع أهمية الزائر الجديد، لأنه يختلف عن الآخرين. كما لا يعرف ما إذا كان من اللائق والمحتوم أن تكون موضي معه أو أن يفرد لها مكان خاص.

ظل الأمر هكذا بضعة أيام، وخلال هذه الأيام لم يستطع دغيم السرهود أن يكلم السلطان على انفراد ليتلقى منه توجيهات محددة وواضحة، وقد أدى ذلك الى انتقال فنر وموضي من جناح الى آخر، بين ليلة واخرى، وفي احدى المرات تدخلت اثنتان من عجائز القصر لكي ترتبا مكاناً لائقاً للوافدين الجديدين!

ومثلما وقعت مكائد لمعظم الذين سكنوا قصر الروض، فقد أصابت الأمير أيضاً. صحيح أنه لم يتعرض لمكيدة مباشرة، لأنه كان يقضي معظم وقته في ديوان الرجال، كما طلب منه أبوه وأكد على ذلك، ولكن حارسه، نصار، لم يفلت، فقد سرقت بندقيته في اليوم الثالث، وذهبت كل المحاولات للبحث عنها أو لمعرفة الذي سرقها عبثاً. أما قطمة، خادمة موضي، فقد تعرضت في ليلتين متواليتين الى المكائد: ففي الليلة الرابعة، واثناء نومها في الغرفة المجاورة لغرفة موضي، دخل عليها من صبغ وجهها بالسخام، وكانت موضع تندر ونظرات ارتياب في اليوم التالي. وتجرأت احدى الخادمات وقالت بصوت عالٍ، وكأنها تخاطب نفسها: «إذا الواحد ما حسّ وهم يسخّمون وجهه، ما يندري إذا كان يحسّ وهم يسوون به شيء ثاني» وقطمة التي كانت غاضبة وخائفة ومحرجة، وكانت في وقت سابق تتباهى أنها تلتقط صوت مشي القطة، حتى لو كانت في سابع نوم كما كانت تقول، ردت على النظرات والابتسامات بأنها كات شديدة التعب من السفر والركض طوال الأيام السابقة!

وفي الليلة التالية القي في غرفة موضي فأر ميت، وقد تسبّب بالكثير من الفزع والصراخ، ووصل الأمر الى علم دغيم، مما حمله على الاسراع بترتيب سكن القادمين، بعد أن رابط ساعات من اجل مقابلة السلطان ومباحثته في الأمر!

سيدة القصر، الأميرة فضة، كانت مشغولة بالسلطان وانتظار المولود، ولذلك لم تستطع أن تلتقي بالقادمين الجديدين إلا لفترة قصيرة، وأثناء الغداء الخاص الذي أقامه السلطان على المائدة الداخلية، بعد أن أقام في اليوم الذي سبقه غداء دعا اليه الكثيرين، وأشار أثناء الحديث الذي سبق الغداء، أن فنر جاء ليبقى في موران، وقال أيضاً، وهو يبتسم ويتطلع اليه.

- وما تمر كم سنة إلا ونزوجه ونفرح بيه!

وفنر الذي غرق في ملابسه الفضفاضة، وغرق أكثر من ذلك بالخجل والعرق، لم يعرف كيف يتصرف حين كان في الديوان ثم أثناء الأكل.

أما الاهتمام الذي أبداه السلطان في استقبال الذكر الثالث الذي ولد له من فضة، فقد فاق كل حد، فالأفراح التي اقيمت في القصر، والخراف التي ذبحت، ثم الهدايا والأعطيات تجاوزت المألوف، وجعلت عدداً من مسني العائلة يفاتح السلطان بعد أن هدأت الضجة. قالوا له في احدى الليالي:

- . . . وتعرف، يا طويل العمر، أن الله، سبحانه وتعالى، هو من يعطي، ومن يجعل النطفة ذكراً أو انثى، وهو على كل شيء قدير. . .

ولما بدا له أنهم يريدون أن يتكلموا في أمر آخر، ولكي يشجعهم على ذلك، قال وهو يضحك بصوت عالٍ:

- اللي تقولونه ما عليه خلاف، يا طويلي الأعمار بس أشوف بوجوهكم سالفة ثانية!

قال دحيم، العم الكبير للسلطان:

- يا أبو منصور، حنا معك أن يكون لك ذرية بعدد حبات التراب، وأن تفرح بكل مولود جديد، بس لازم تعرف أن الولد من صلب أبوه، وما دام الأب

واحد، وما دمت أنت أب الأولاد، يلزم تعدل بينهم، وما يلزم تقول هذا ابن فلانة وهذا ابن فلانة، هـذول كلهم أولادك، الكبير قبل الصغير، والموجود قبل اللي عند علام الغيوب، ورأينا انك ما تميز بين واحد والثاني.

قيل هذا الكلام نتيجة اشاعات سرت في القصر، وانتقلت، همساً، من مخادع النساء الى ديوان الرجال، حول ما ذكرته موزة عن رهان بين السلطان وفضة، إذا كان المولود الثالث ذكراً، فقد قيل ان السلطان ابدى استعداده، إذا خسر الرهان، أن يجعل واحداً من أبناء فضة سلطاناً بعده، وقد ترافق ذلك أيضاً مع أخبار متزايدة تؤكد غضب السلطان على خزعل. نقل اثنان من الحرس الخاص لدحيم أنهما سمعا السلطان يقول لخزعل بغضب «انحش عن دربي ولا تخلني أشوف وجهك». وقد سافر خـزعل بالفعل مـع عدد قليـل من المرافقين والحرس، لا يعـرف إلى أين أو كم سيبقى. وقـال كلمـات أخـرى لم يسمعاها.

هذا ما دعا مسني العائلة لأن يقولوا ما قالوه، والسلطان الذي سمع بانتباه، وكانت الابتسامة تملأ وجهه، ردّ عليهم.

- اللي قالوا لكم، يا جماعة الخير، ما صدقوا وياكم، وانتم تعرفون، البني آدام كل يوم يطلع له قلب، وما فيه طرف، فإذا أعطينا آذانا لكلام يأخذنا ولكلام يردنا، ولواحد يقول فلاني، والثاني تركاني تراها وقعت بينا، وانتم تعـرفون مثلي وأحسن مني: إذا اختلف الـرعيان، أو إذا تصـادقوا، ضـاعت الغنم!

هز رأسه عدة مرات ثم فجأة التمعت صورة خزعل وسفره، قال موضحاً:

- وخزعل حنا طرّشناه، كلّفناه بعمل، قلنا له تسوّيه وترجع من يومك، وإذا سمعتم غير هذا الكلام فهو غير صحيح!

وتغيرت النبرة:

- وبسفرتنا لعين فضة قلنا لفنر: هذا حدّك مع اخوالك يا فنر ويلزم تكون معانا، وجبناه وجينا، وقبل أيام شافوه الخويا وقالوا ذهين وما مثله، وانتم

تعرفونه، يلزم يكون قريب منا ويتعلم، وإنشاء الله يشيل هو واخوانه الحمل عنا. فلا تخافوا يا جماعة الخير ووكلوا الله، وانتم تعرفون المثل اللي يقول: لا تـوص حريص، وانشاء الله بوجودكم وشوركم وحرصكم ما يصير إلا كل خير!

تأثروا لكلام السلطان، وتأثروا أكثر أن السلطان لم ينس فنر، خاصة بعد أن مرض، وقال الأطباء الذين اشرفوا على علاجه ان الأمر لا يتعدى الحصر وتغير المناخ، ولابد أن يستعيد صحته إذا احيط بجو من الرعاية والاهتمام، كما كان حاله في عين فضة. قال دحيم بصوت عميق، وصورة فنر، المختلف عن بقية الأخوة، تسيطر عليه:

- ترى يا جماعة الخير دمعة اليتيم تخرق الصفا.

وتذكر الجميع أم فنر وصمتوا بحزن.

ولأن السلطان يعرف الكثير مما يصل الى الآخرين، عن طريق النساء والخدم الذين كلفهم أن ينقلوا اليه كل ما يسمعون، خشي أن تتطور الأمور ويصبح من الصعب السيطرة عليها، ولكي يبدد الشكوك، والتي قيل انها وصلت الى البادية، ووصلت تحديداً الى اخوال خزعل، والى قبائل بعض زوجاته بشكل خاص، فقد أبدى تسامحاً تجاه عدد من الزوجات والأقرباء بدل القطيعة والنفور. ولم يتردد في أن يعقد على زوجة جديدة خلال الشتاء ذاته، وأن يصطحب أحداهن معه في رحلة القنص التي استمرت أكثر من عشرين يوماً. أما حين بلغه أن وطفة، الزوجة التي تزوجها قبل فضة، والتي خلّفت ابنتين، واجهضت بالثالثة، وقالـوا انه ذكـر، حين بلغه أنهـا انجبت ولداً ذكـراً وقد سماه مفرّح فقد أقام احتفالات بالمناسبة لا تقل عن الاحتفالات بمجيء الابن الثالث من فضة. قالت أمي زهوة التي كانت تصلها أصداء ما يقال في مخادع النساء: «أبو منصور أولاده عنده مثل اسنان المشط، أو مثل حب الرمان، ما يفـرق بين واحد والثاني.. إلا باللون، بس الأمهات ما يشبعن لا بالليل ولا بالنهار!».

لم يكتف السلطان بذلك، فقد قام بزيارات لإثنتين من نسائه أنجبتا اناثاً،

وقيل انه لم يتردد في حمل البنتين، ومداعبتهما، كما أجزل للأمهات العطايا، خلافاً لما عرف عنه في السابق. وقد تبرع الكثيرون في نقل هذه الأخبار. حتى سيدة القصر، فضة، لم تخفِ امتعاضها ، لكنها غلفته بالسخرية. وحين كانت في مجلس ضم عدداً كبيراً من النساء، بمناسبة طهور ابنها الثالث، والذي تأخر طهوره خلافاً لأخوته، لأنه ظل مريضاً فترة طويلة، قالت وهي تبتسم:

- حين طهّروه خفت، صرخت وقلت لروحي يا ليته كان بنيّة، كان ما عذبوه هذا العذاب كله.

ولما سمعت كلمات الاستغراب والإنكار، أضافت وهي تتلفت، وكانت ابتسامتها تتركز على بعض الوجوه:

- وبهذي الأيام ما عاد في فرق بين الولد والبنيّة، إلا اذا كانت الأم بغيضة وجابت بنيّة!

قالت موزة، وكانت تملك دالة على الجميع:

- لا يا ستي، في فرق، وهذا طوله!

وأشارت بالسبابة والأبهام الى المقدار الذي تعني!

قالت احدى الزائرات وكانت لا تخفي ضحكتها:

- كبّرتيه أكثر من اللازم.. يا موزة!

ردت وهي تقهقه:

- لا تخافي يا بنت الحلال بس يكبر يكبر.. والله يستر بنات العالم!

ولم يقتصر الأمر على ذلك، فالسلطان الذي كان يقوم بنفسه، أو يكون حاضراً حين تتأكد هزيمة الخصوم ، لكي يقبل الاستسلام، ولكي يصدر أوامر القتل أو العفو، والذي كان يروق له أن يقدم دروساً في فنون القتال والشجاعة، والأخلاق والشهامة ، ليسمعها خصومه بوضوح، ولكي تنقل عنه

بعد ذلك، يتخلى لأول مرة عن القيادة لخزعل. قال له يوصيه، وكان في المجلس عدد من كبار العائلة:

- ... والخويا اللي معاك يا خزعل الواحد منهم بميّة، مجربين وأنت تخبرهم، والقواد صيتهم سبقهم، وما مثلهم بموران وبغير موران، فأريدك يا خزعل تبيّض الوجه وترجع لنا سالم وغانم، ورأس ابن الحرام على سن ورمح لشتة بحثل ما به ملح .

تنفس ملء صدره وأضاف يخاطب المسنين وينظر الى خزعل:

- أملنا بك كبير يا خزعل، وهذا ما هو بس راي ورأي الجماعة؛ ولا تبطي علينا بالأخبار الزينة، ومثل ما قالوا جماعتنا: ما خاب اللي يعطي الصنعة سيدها، ومن الله النصر والتوفيق.

ورغم أن العملية التي أنيطت بخزعل لا تتعدى تأديب قبيلة صغيرة، كانت منازلها قريبة من الحدود، وكانت عرضة لمؤثرات عديدة، وقد اختلف ولاؤها أكثر من مرة، تبعاً للضغط الذي يقع عليها، فقد سرت في قصر الروض همسات تؤكد أن السلطان أرسل خزعل لكي يتخلص منه، لكن هذه الهمسات تراجعت وانتهت بتوالي الأخبار، ثم بتأكيد الكثيرين أن خزعل ذهب الى القنص ولم يذهب الى الحرب!

وقيل أيضاً ان السلطان أرسل عمه قبل أن ينقضي اسبوع على تحرك خزعل، وأوصاه بإلحاح أن يتولى كل شيء بنفسه، لخشيته أن تقع أخطاء تصعب معالجتها في وقت لاحق، خاصة بالنسبة لرئيس القبيلة، والذي كان يريده حياً لأسباب كثيرة: ليكون قوة له على الحدود بدل أن يكون أداة بأيدي الخصوم، ولكي يبرهن للذين يقولون أن خريبط لا يعرف سوى القتل، انه يعرف كيف يعفو ويسامح ، وقد أكدت النتائج أن ما حدس به خريبط كان في مكانه، وأن العم تدارك الكثير، الكثير، لكن، مع ذلك، عاد خزعل منتصراً، واعتُرف له أنه بلغ مبلغ الرجال!

وقبل أن تنقضي السنة أرسل السلطان خريبط ابنه فنر بزيارة رسمية للتهنئة

الى بريطانيا، بناء لاقتراح مستشاره، والذي اكد للسلطان أن العائلة الملكية البريطانية تربي أولادها على تحمل المسؤولية وتكلفهم مهمات الى البلدان الأجنبية، ليتعرفوا على هذه البلدان ويتعلموا منها، ولكي يتعرف عليهم الملوك والرؤساء.

طوال السنوات التي قضاها فنر في قصر الروض ظل غريباً. لم يستطع أن يكون جزءاً من القصر، أو جزءاً من القوى الخفية التي تتجاذبه وتؤثر فيه. صحيح أن أباه قرّبه، وأخذ إعجابه به يزداد شهراً بعد آخر، إلا أنه كان يخشى عليه من تأثير خاله عمير، خاصة وأن عميراً منذ أن وصل الى موران لم يدخل لسانه في حلقه، كما يقول السلطان.

ليس ذلك فقط، فقد نقل للسلطان أن عميراً ما إن يترك قصر الروض حتى يغشى المجالس واحداً بعد آخر «هذا يصير وهذا ما يصير. هذا حلال وهذا حرام». والسلطان الذي تبلغه الأخبار يهز رأسه بغيظ ويقول لنفسه: «ناسبناهم حتى يرضوا ويسكتوا، لكن بعد ما خلصنا من منير جانا مناور، بعد ما خلصنا من الدريويش جانا هالحين عمير، لكن يخسا». فإذا التقى به السلطان، يسأله عن أبيه وعن المطر في عين فضة، وفي ذلك تلميح لا يخفى أنه حان الوقت لعودته، فيجيبه عمير إجابات عامة، بعيدة، مع ابتسامة كبيرة للتدليل على أنه راضٍ ومرتاح لإقامته في موران. أما حين اعتل فنر، فقد أصبح لدى عمير المبرر القوي للبقاء. قال ذات يوم للسلطان يشعره بضرورة وجوده واستمراره:

- ومثل ما تشوف عينيك، يا طويل العمر، الصغيّر تعبان وممروض، وأخاف إذا تركناه يحصر.

- وكّل الله يا ابن الحلال، فنر الجميع حاطينه ببطن عيونهم ويدارونه.

- لكن مداراة الخال شكل ثاني، يا طويل العمر.

- المداراة الزايدة تفسد يا عمير.

- الحق اللي تقوله، طال عمرك، بس الى أن يتعافى، ويصير على كتفه لحيمات.

- العافية من الله، يا رجال، ويلزمك تعرف: حرار الطيور ما تسمن.

جرى مثل هذا الحوار مرتين أو ثلاث مرات، وعمير يتظاهر أنه لا يفهم، فقد جاء بقصد الاقامة، وليكون قريباً من فنر، وليشرف أيضاً على تربيته وتوجيهه. والسلطان الذي أسف لأنه ترك ابنه كل تلك السنين في عين فضة، وعرف مدى تعلق فنر بأخواله، كان يريد أن يمتحن مدى قدرته على انتزاع الصبي من ذلك العالم وتلك الأفكار، دون أن يلجأ الى العنف أو القسوة، خاصة وأن الأطباء الذين أشرفوا على علاجه، اكدوا عدم وجود علة يمكن أن يعزى إليها سبب مرض فنر، فقالوا: تغير المناخ. وقالوا، الحصر. ولذلك يجب أن يعتنى بحالته النفسية، وأن يبذل جهداً خاصاً من أجل أن يتكيف مع الجو الجديد.

وفنر مثل النبتة الغضة، تمرض إذا عطشت، وتمرض إذا زاد عليها الماء. يمرض دون سبب، ويتعافى فجأة. والسلطان الذي تطالعه العينان الواسعتان أينما ذهب، أينما تلفت، وتتابع الأذنان كل كلمة يقولها، كان حائراً. قال لعمه دحيم ذات ليلة:

- . . . وإذا طالعته، يا مبارك، أشوف بس عيون تناظر، يسمع بعيونه وقلبه وآذانه، ويلزم هذا الخبل، عمير، أن ما يملا راسه بسوالف الآخرة وحدها.

- بس يتعافى بالخير والسلامة يلزمه يتعلم القنص.

- الحق اللي تقوله يا عم، وظني أنه مع القنص يلزمه بارودة حربية، ويبلش بهذول اللي مدوّخينا هنا وهنا.

ولم يتأخر السلطان لكي يصطحبه في واحدة من غزواته. قال لخاله عمير قبل أن يتحرك:

- ترى عين فضة تعجب اذا وفت، وانشاء الله برجعتنا نشوفك هناك، يا عمير.

قال مهيوب، رئيس الحرس الخاص للسلطان، بعد سنين طويلة يتذكر تلك الغزوة:

«كانت سنة خير، أمطارها كثيرة والناس راضية. وما عندها الا تدور رزقها. وطويل العمر أوامره واضحة: يلزمنا نحارب يا مهيوب، إذا ما هو هنا، بمكان ثاني. وحنا نتلفت، نتفطن، وما نلقى أحد. العشيرة الفلانية بمشتاها. الثانية بالمكان الفلاني. وما أحد بباله الحرب. يوم من الأيام، وحنا بخبرة سنيدة جانا بدوان وقالوا: التجار تسلّبوا. ركضنا ندور اللي سلبوهم، لكن الله وقع بأيدينا جماعة غيرهم، كان بينهم واحد مطلوب. وما إن شافهم طويل العمر إلا وأصدر أوامره: ارموهم. كانوا سبعة. والله صفيناهم وكان أولنا فنر، وما إن قال السلطان ارموا حتى رمينا. ذبحناهم. دفناهم ومشينا».

يهز مهيوب رأسه، وتبدو على وجهه ابتسامة حزينة، تتغير نبرة الصوت، وهو يتابع: «قال طويل العمر: هذي ما هي بشي، يلزمنا نخليه يحارب بأسنانه، ولا بد يحس بالخطر. بعد ثلاثة أيام، أو أربعة، بالليل، آخر الليل، قلنا لعشرين من جماعتنا تروحون للمكان الفلاني، ومن هناك ترمون حوالينا، ما هو علينا. عطيناهم فشك يكفي أمة الثقلين، وقلنا لهم ترمون، بس لفوق، فوق روسنا، وتتحذرون زين. وحنا نقابلهم ونرمي، وقلنا ساعة زمان وتغيبون. وهذا اللي صار. بس الحذر ما يرد القدر. حنا مئات، وكل واحد بيده سلاحه، وما قلنا لجماعتنا وين يرمون، خوف ما تنكشف سالفتنا، حتى لو انذبح كم واحد من اللي يقابلونا، لكن، ومثل ما يقولون: بآخر الليل تجي الدواهي. الفشك حيّد عنا كلنا، وفشكة ميتة، نازلة من السما، أصابت فنر. إصابته بيده عند الكتف. خاف طويل العمر، لكن لما شاف الجرح قال وهو يضحك: هذي لك شهادة يا وليدي، ولا تخف. مات من الجماعة قبالنا سبعة أو ثمانية، ومنا ثلاثة مجاريح وواحد انقتل، وما عرفنا وين جته الفشكة.

قال السلطان لعمه دحيم في الشتاء اللاحق، وكان معه في رحلة قنص،

ومعهما عدد من أبناء جلالته:

- وبعد ذيك الليلة، يا عم، صار قلبه مثل الصوان.

وضحك السلطان وهو يتابع فنر، وكان يهيء طيوره للقنص:

- لما ذبحنا البدوان خاف. ناظرته وشفته. قلت لروحي: أخطينا، لكن تعرف، يا عم، هذا الدرب ما منه ردة. قلت: نتوكل على الله، ومشينا. وبعد كم يوم حضّر الجماعة اللي قلنا لهم عليه، وهالمرة شفته: لا والله: تنشط، وصار براس الجماعة، وبإذني سمعته يصيح: هبت هبوب الجنة وين أنت يا باغيها.

قال دحيم وهو يبتسم:

- الصعبة هي النوبة الأولى، يا أبو منصور، بهذي الشغلة وبكل شغلة، فإذا مرت كل اللي بعدها أخف منها.

قال الذين استيقظوا على أصوات البكاء والنحيب في قصر الروض، «انه قبل أن يصبح الصباح، والناس نيام بسابع نوم، وإلا ذاك الصوت اللي يفزّع اللي ما يفزع. وكل واحد بين مصدق ومكذب، وكل واحد يسأل روحه: ها احترقنا؟ مات أحد؟ دهمنا السيل، والا منام من المنامات؟ لكن بعد الصوت الأول صوت ثاني، وهذي المرة قريّب. ركض الناس هنا هنا الى أن وصلوا الى جناح الأمير فنر: ها يا جماعة الخير، علمونا شنهو اللي صار واللي جرى، قطمة تناظر الناس وتشوبر وتصيح، وموضي، من داخل، تصيح وما تستريح. علمونا يا جماعة الخير ويش هي البلية؟ ولا أحد يتكلم أو يجيب. دخلن النسا على موضي، لقنها بين الحياة والموت، يدها على كتفها وتصيح: تعوّر فنر، انذبح فنر. قالن لها: وكلي الله يا بنت الحلال، فنر مع السلطان، فنر ما أحد يصله، فنر بالقنص وما هو بالحرب. وأبد: تعوّر فنر انذبح فنر. والى الصباح ما استراحت ولا خلت أحد يستريح. وقبل ما تطلع الشمس طرش ابن السرهود أكثر من طارش، وقال لكل واحد منهم: بوجهك تصل طويل العمر تأخذ العلوم وترد. وما هديت الا بالويلاه. تعبت وارتمت، لكن ما رفعت يدها عن كتفها ودمعتها ثلاثة أيام ما نشفت. في اليوم الثالث،

وبرجعة الطارش، وبعد ما حلف الف يمين ويمين، والشيخة هي اللي حلّفته، قال ان جرح فنر مثل الدوحاس، أو مثل لطة الجمر، وما عليه خلاف، يمشي ويسولف. وقال الطارش، وهو يقسم من جديد، أن السلطان حرق له عطّابة وداواه بنفسه، وانتهى كل شيء على خير».

خلال الأسبوع الأول مرضت موضي. لم تقرب الطعام، رغم إلحاح الكبار والصغار، فيما عدا بعض السوائل، ارغمت على شربها، فقد رفضت كل شيء، حتى أن الكثيرين خافوا عليها أكثر مما خافوا على فنر، خاصة بعد أن انفردوا بالطارش الأول، ثم بالذي يليه، وتأكدوا من المعلومات، وعرفوا أن جرح فنر بسيط، وأنه عوفي تماماً.

في الأسبوع الثاني وافقت موضي على تناول وجبات خفيفة، لكن الحزن والبكاء لم يفارقاها، وظلت مرابطة في غرفتها، وكانت قطمة تطمئن الزوار، وتؤكد لهم أن سيدتها تتماثل للشفاء، وترجوهم ألا يثقلوا عليها لأنها بحاجة الى الراحة والنوم والدواء كما قالت الحكيمة الانكليزية والزوار بين رغبتهم في أن يتأكدوا من تحسن صحة موضي، وبين أن يتفرسوا في وجهها وفي عينيها ليكتشفوا هذه القوة الخارقة التي جعلتها تحدس، بل وتتأكد أن فنر أصيب.

في الأسبوع الثالث استعادت موضي صحتها. غادرت غرفتها عدة مرات الى الشرفة، وإلى لقاء عدد محدود من الزوار، لكن القلق لم يزايلها، وظهر الشحوب على وجهها واضحاً، وكان يدعو الى الحزن والشفقة. وظلت كذلك الى أن عاد السلطان.

لما عاد فنر الى موران، الى قصر الروض، ثم الى الجناح الذي يسكنه مع موضي، ورأى وسمع ما حصل لأخته، وموضي تتابع كل حركة وكل كلمة تصدر عنه، ثم لما استفسرت كيف أصيب، وفي أي مكان، وفي أي وقت، وكانت تهز رأسها دلالة المعرفة والتأكد، فإن الدهشة التي ارتسمت على الوجوه، والنظرات التي تبادلها الذين يسمعون، جعلت الجميع يتساءلون ويحارون فيما حصل. وفنر لم يكن أقل منهم دهشة وحيرة وتساؤلاً.

تهاني التي لازمت موضي خلال فترة مرضها، لم تكن خائفة أو قلقة، بل

وأكدت أنها في صغرها كانت مثل موضي، وصدف أن توقعت أموراً بعينها، وقد وقعت! أما بعد أن تقدم بها العمر، فقد «تشوش فكرها» كما تقول بحزن «ولم أعد أعرف الجمعة من الخميس». ومع ذلك طمأنت كل من سألها عن موضي؛ كما أرغمت موضي على تناول بعض السوائل التي أعدتها لها بنفسها، وهذا ما ساعد وعجل بالشفاء!

أما الجدة التي جاءت الى موران خلال هذه الفترة لزيارة «حبات القلب: فنر وموضي وعمير» خاصة وأن أخبار عمير انقطعت تماماً عن عين فضة، فلم تكن تعرف شيئاً مما حصل، وحين وصلت القصر، وأبلغت أولاً بسفر فنر، ثم بمرض موضي، فقد قالت لقطمة، التي حاولت أن تطمئنها وأن تبسط الأمور:

- لو ما جيت لكان أخير وأسلم، وهالحين أحمل يا قلب إن كان بك تحمل.

وبعد قليل، وبعد أن القت نظرة على موضي التي كانت نائمة.

- قال الشيطان ولا فالك، يا مقرودة، على هذي الأخبار.

هزت رأسها بحقد وتساءلت:

- ومتى يرجعون؟

- علمي علمك، يا محروسة السلامة.

- الله لا يسلّم بك عظم، وهالحين نداري من ولاّ من، نلتفت هنا ولاّ هنا؟

وتابعت تخاطب نفسها:

- بعد عين فضة راحت أيام السرور، وهالحين نشوف أولادنا يموتون وينذبحون وما نقدر نسوي شي.

خفضت صوتها وبحقد:

- الله يجازي الظلاّم واللي ما بي بقلوبهم رحمة.

وبتحسن صحة موضي، ثم بعودة فنر، استعادت الجدة صحتها وقوتها، مع أن الكثيرين توقعوا لها موتاً سريعاً! أما عمير الذي بقي أياماً في موران، بعد سفر السلطان، فقد غادر فجأة، ولم يذكر لأحد وجهته، أو المدة التي

سيغيبها، ولا يعرف ما إذا كان سيعود إلى موران أم يذهب إلى عين فضة.

هذه النبوءة التي شغلت الكثيرين في قصر الروض، ونقلت بأشكال لا حصر لها، إذ ذكرت النسوة أن الموضع الذي كانت موضي تشد عليه، عند الكتف، لم يكن مماثلاً للموضع الذي أصيب فيه فنر فقط، وإنما أكدت ثلاث أو أربع منهن، واكتفت الأخريات بالصمت، أن بالموضع علامة زرقاء تشبه الجرح المندمل. وزادت لولوة على ذلك، ونقلت الأمر الى سيدتها، أنها رأت بعينها، في الأيام الأولى، دماً يسيل من الكتف!

كان يمكن لهذه النبوءة أن تظل حديث الكثيرين، إلا أن الأحداث اللاحقة التي مرت على قصر الروض جعلتها تتراجع ثم تُنسى، أو بالأحرى لا تعاد إلا إذا جاء بما يذكّر بها!

فأثناء عودة السلطان الى موران، وفي العجيرة، حيث راق للسلطان أن يتوقف للراحة، ولكي يتيح لعبيده محاصرة منطقة مشهورة بوفرة الغزلان فيها، أثناء هذه الاستراحة، وصل فجأة، وعلى غير توقع أو انتظار: الصاحب، أو هاملتون.

وصل هاملتون، والذي أطلق عليه السلطان اسم الصاحب، وقيل ان هاملتون اقترح الاسم ووافقه عليه السلطان، كان عائداً من رحلة، وبرفقته عدد من عبيد السلطان وحرسه، بعد أن قام بتحديد المواقع المناسبة لحفر مجموعة من آبار المياه، وأعد خارطة لحدود المنطقة الشمالية. وذكر الذين رافقوه أن الصاحب قضى وقتاً طويلاً في نبش تلة الذيب، القريبة من المخيم الذي أقامه، واستخرج منها أصناماً، وأشاروا الى ثلاثة جمال كانت تحمل هذه الأصنام.

كان اللقاء ودياً إلى أقصى حد، وتخللته احتفالات كبيرة اعدت على عجل. فالسلطان الذي لم يتوقع اللقاء بالصاحب، في هذا المكان، أو في هذا الوقت، فوجىء تماماً. ولكي يعبر عن المودة والقوة، فقد أوعز الى عدد من رجاله «أن لا يتركوا فناً، وأن لا يتركوا مرجلة إلا ويلزم الصاحب يشوفها» ولذلك جرت سباقات الخيل، والنيشان، ومطاردة الغزلان، إضافة الى الغناء

والعرضات، وصدف أن كان الطقس مؤاتياً، لـذلك اعدت الاحتفالات جميعها في الهواء الطلق، في النهار، وليس عند الفجر أو الغروب، مما أضفى عليها طابعاً مشرقاً، الأمر الذي ولد مزيداً من الفرح والمتعة، ولم يخف الصاحب انفعاله، إذ قال للسلطان، وكان حوله عدد محدود من رجاله:

ـ اللقاء بجلالتكم، وفي مثل هذا المكان، يُنسي الانسان التعب، بل ويجعله يتمنى البقاء هنا الى الأبد.

استخف المديح السلطان، وكان تواقاً لأن يقنع الصاحب، وأن يستميله لكي يبقى، رد وهو لا يخفي فرحه:

ـ حنا، الله يسلمك، نحتاج الى معونتك، ومعونة الخيّرين أمثالك. وعسى أن الله يقدرنا على مجازاتكم.

وجرت أحاديث أخرى كثيرة، لكن هاملتون الذي يلتقي بفنر لأول مرة، وبعد أن راقب باهتمام ودقة، وبعد أن سمع من معارفه وأصدقائه حول غزوة السلطان، راقه كثيراً أن يتحدث مع الأمير. ومثلما فعل قبل سنوات، حين وصل الى موران أول مرة، إذ قضى مع خزعل أياماً في القنص، وقيل انه تبارى وإياه في النيشان، فقد نظر طويلاً الى فنر، وراقب تصرفاته وحركاته، كما سأل الذين يعرفهم كيف جرح فنر وأين، لأنه لم يشأ أن يزعج الأمير بهذه الأسئلة، ولم يشأ أن يثقل على السلطان.

قال هاملتون للسلطان، في الليلة الأخيرة، قبل السفر، وكان القمر بدراً، والريح الربيعية تهب منعشة:

ـ ... وهذا الشرق، يا طويل العمر، مهبط الوحي وموطن الرسالات، ولا يمكن لأحد أن يفهمه إذا لم يعش فيه.

والسلطان الذي كان يهز رأسه مثل حرذون، في ضوء القمر، رد بصوت عميق:

ـ الحق الي تقوله، يا الصاحب، وأظنك قررت تعيش معنا، وتعاونّا.

ـ لقد فكرت طويلاً بهذا الأمر، يا صاحب الجلالة، وكنت أنوي، بعد أن

انتهت مهمتي بوضع الخرائط لحدود بلادكم الشمالية، أن استأذن جلالتكم وأسافر...

وابتسم وهو ينظر الى عيني السلطان، وتابع:

ـ لكن رغبات جلالتكم لا يمكن أن ترد، خاصة وأن لهذه الأرض سحراً لا يقاوم!

بدا السلطان فرحاً مثل طفل، وتأكد في تلك اللحظة أنه حقق في هذه الرحلة أهدافاً عديدة وهامة، وتذكر، وهو يمسد لحيته، الجهد الذي بذله مع الصاحب لإقناعه بالبقاء. قال لنفسه: «رب صدفة خير من ميعاد».

هاملتون ليس واحداً، إنه الكثير في شخص، ومجموع الأشخاص في واحد، والكثير والواحد يجمع بينهم الجوار، وبقدر التفاهم الذي يوحدهم فان العداء كثيراً ما أدى الى الخصومة والافتراق. فهو محب لا يستطيع أن يخفي حبه، ومبغض الى درجة الحقد. هادىء اغلب الأحيان، لكن في لحظة يتحول الى حيوان ذئبي كاسر لا يشبع من الدماء ولا يمل النظر اليها. رغبة الاكتشاف والمعرفة لديه قوية ومستمرة. فإذا حاصرته الأسئلة امتلأ شعوراً بالحيرة واللاجدوى. مسيحي وزنديق، ولا يتردد في أن يجرب أدياناً أخرى أيضاً! مخلص للأمبراطورية وشديد الكره لها. المال بالنسبة له وسيلة تعامل، وقدرة على التأثير، كما أنه قوة مستقلة لذاتها. يتمنى أن يكون ملكاً لا يمل الناس من النظر اليه، وأن يكون انساناً مجهولاً لا يعرفه أحد. يقول لنفسه في لحظات الصفاء: «كلما ازداد الانسان قوة ومعرفة كلما ازداد ضعفاً وضياعاً وجهلاً».

يقول للذين يسألونه لماذا لا يتوقف عن الركض، ولماذا يتعب نفسه هكذا:

ـ قيمة الانسان بالمعرفة وبخدمة الآخرين. وعلى الفرد ألا يتوقف لحظة واحدة عن التعلم وعن مساعدة الناس، لأنهما المصدر الأساسي للمتعة، والمبرر الوحيد لاستمرار الانسان على الأرض.

حين يكون على ظهر ناقته، تحت وهج الشمس الحارقة، والصحراء تنطوي تحته كما تنطوي صفحات كتاب، يشعر أنه الوحيد القادر على القيام بهذا العمل، وأن قوة خارقة انتدبته له. فإذا وصل الى المكان الذييقصده

أحس بالضآلة وبالظلمة الكثيفة، ولا يعرف لماذا كان على هذا القدر من الغباء لكي يجيء الى موران، ويمارس مثل هذا العبث الأخرق.

يعتبر نفسه من كبار الحمقى، لأنه جاء الى هذه الصحراء الملعونة، وفي اللحظة التالية يتصور نفسه نبياً لموران ولما حولها، لأنه يبشر بدين الغرب، ويريد لهذا الدين أن يعم ويسود، ولا يمكن لأحد غيره أن يفعل وأن يصل. في الليل يمتلىء قناعة أن قومه أرسلوه الى هنا لكي يتخلصوا منه. وفي النهار يتأكد أن القوة الخارقة التي انتدبته للمجيء الى هنا، هي ذاتها التي تملي عليه أن ينقل، ليس للأمبراطورية وحدها، وإنما للغرب كله، الأديان القديمة، والتي بدونها لا يمكنهم أن يملكوا أي دين. العرب، بالنسبة له، شاهد حي على أصل الانسان القديم، ومثل لإمكانية استمرار الانسان بحالته الأولى. أما قومه فإنهم مجموعة من المخلوقات الحديثة الصنع ليس لها مستقبل الا بقدر ما تستطيع أن تمد جذورها الى الماضي. وبين العرب، ومعهم وحدهم فقط، رغم كونهم خبثاء ومكروهين، يمكن أن يكون هناك دين جديد: الدين القديم بأيدٍ جديدة.

كيف خلق هاملتون هكذا، أو لماذا هو هكذا؟ لا يستطيع أن يجيب إجابة ترضيه، رغم أنه فكّر بهذا طويلاً. يعزو الأمر، في لحظات معينة، الى الطبيعة. فأن يولد في إحدى مستعمرات الأمبراطورية، وأن يتعرف على شمس الشرق وروائحه، وأن يرى تلك الوجوه الداكنة أو السمراء تطوقه من كل جانب، يجعل بريطانيا بنظره، والقارة كلها، ثم بعد ذلك العالم الجديد، شيئاً مصطنعاً أقرب الى العاب الأطفال.

لا يطيق أن يكون مجرد موظف في جهاز ليس له مهمة سوى تطبيق القوانين وجباية الأموال والضرائب. كما لا يتصور نفسه مجرد جندي، ليس له سوى الرقم والسلسلة، ويحارب من أجل قضية لا يدركها.

أنه يمتلىء حنيناً إلى النور والظلمة يتداخلان ويتصارعان ويتصادمان لكي يولد منهما ويتكون شيء أكثر صلابة وقوة، وانسان أكثر ذكاء ونبالة، وجنوناً أيضاً. أما المدرسة التي انتزعته من أقصى الشرق، لكي يصبح في لندن طالباً

مجداً بنظر أولئك المدرسين الذين يضعون نظاراتهم على أطراف أنوفهم، ويحشون الذاكرة بكل ما هو جدير بالنسيان، فقد زادته رغبة أن يكتشف ثقافة بدون مدرسين ولا بلبس النظارات، وخارج أسوار الجامعة، ثقافة تكوّنها الحواس، وتكون أكثر عمقاً وأقل تهذيباً.

قال لأبيه، حين قرر اختيار اللغات الشرقية:

ـ لا يمكن معرفة الغرب دون معرفة الشرق، ولا يمكن معرفة اللغات الحديثة دون معرفة اللغات القديمة.

وأبوه الذي لا يزال يحن الى الشرق، ويتمنى من أعماقه أن يكون ابنه امتداداً له، لَيس بحاجة الى هذه المبررات للاقتناع. قال له، ولا يزال هاملتون يتذكر ذلك بوضوح:

ـ خلق الشرق ليكون ملعباً لخيولنا وفرساننا!

يقول هاملتون: قال أبي الكلمة الأخيرة بطريقة لذيذة، حملت معها كل ارث الأجداد. وكنت فخوراً، لأني من خلال اللغات التي اخترتها، اخترت الشرق. وعرفت أني خلقت لمهمة عظيمة، ولا بد أن اؤديها بنجاح.

«والشرق»، كما أصبح يردد «ليس مكاناً جغرافياً فقط، أو مجرد ديانات وطقوس، إنه كتلة من العناصر مزجت بطريقة فذة، وربما تدخلت، أو غلبت فيها الصدفة، لكي يكون عصياً على الفهم الأول أو السهل؛ الشرق بدء الحياة، وربما نهايتها، إذ بمقدار الفرح الذي يفيض أيام الخصب، فإنه مستودع لجميع عذابات الانسان وهمومه واحزانه، لأنه ذاكرة البشرية، وهو بؤرة تناقضات الحياة أيضاً. والشرق بقدر ما يبدو هادئاً راضياً يحمل في أعماقه قوة البراكين وجنونها. طفولة البشرية وشيخوختها بتآخ يذكّر بالجد الذي يمسك بيده الحفيد يريد أن يطلعه ويعلمه سر الحياة».

هكذا يقول لنفسه في لحظات معينة. لكنه ليس متأكداً، «لأن اللغة المعاصرة» كما يقول بحيرة «تبدو لينة، رخوة، وبالتالي عاجزة عن إعطاء الفكرة دقتها وشمولها، ومع ذلك، تبقى هذه اللغة وحدها الوسيلة الوحيدة، أو

ربما الممكنة، لوضع الأشياء في سياق من أجل أن تُحدّد لكي تُفهم. ومع ذلك يجب أن نظل في حالة من الانتباه الشديد، لئلا نقع في المصائد التي تنصبها لنا عقولنا الضعيفة، والتي تعودت على الرخاوة والكسل، وأصبحت تميل الى السهولة والبساطة، لكي تتجنب المعتم والخشن والقاسي. ذلك هو الامتحان الأصعب الذي واجه الانسان فى هذه الحياة، وقلّما استطاع اجتيازه الا الأقوياء المنذورون لإعادة صناعة التاريخ، ولا بد أن يدفعوا ثمناً، وثمناً كبيراً، من أجل أداء هذه المهمة، وربما عدم الوصول أيضاً!».

لا يتوقف هاملتون عند هذا الحد من المقارنة، يقول لنفسه: «إذا ولد الانسان في الشرق فإنه يولد للحياة، أي للتجربة وللموت. في الغرب يولد ولديه الحنين دوماً الى النسيان، ولـذلك يلجأ الى الغضب لكي يمتلك قوة إضـافية تساعده على التذكر أو أن ينتهي. فإذا هدأ الغضب أو نام فلا بد أن يلجأ الى الطبول والمظاهر لكي يخلق في دمائه فرحاً، لكن في مواجهة نسيان جديد.

«في الشرق لا يكابرون. يعتبرون أنفسهم شيئاً من الطبيعة، امتداداً لها، أو شكلاً آخر من أشكالها، ولذلك ينظرون الى الحياة والموت نظرة تختلف عن نظرة الغربيين. يعتبرون الموت الوجه الآخر للحياة. ومثلما لا يستطيع الانسان أن يرد المطر أو أن يحجب الشمس، فإنهم غير ميالين، أو لا يتصورون أنهم بحـاجة الى مقاومة الطبيعة أو تحديها. إنهم ينسجمون معها، وأول خطوة هي في أن يفهموها، ثم بعد ذلك، أن يتآلفوا معها، حتى تصبح جزءاً منهم ويصبحوا جزءاً منها. وأكبر خطيئة يرتكبها غير الشرقيين، وبرعونة، هي تلك المحاولات البلهـاء من أجل مقاومة الطبيعة، لا من أجل فهمها والتكيف معها. الشرقيون، ولا أقصد الذين يعيشون الآن فقط، أكثر واقعية وأبعد فكراً وإحساساً، لأنهم ينظرون اليها بإكبار، يتعاملون معها بمحبة، وحتى إذا ارادوا رشوتها، فإنهم يفعلون ذلك بكثير من الخضوع والتوسل، تماماً كما يفعل الطفل مع أمه حين تغضب عليه، إذ رغم فارق السن، واختلاف النظرة، فإن قدراً كبيراً من الفهم والحنان يقوم بين الطرفين من خلال طريقة التعامل، وهذا نتيجة الاحساس العميق بالامتداد والتواصل بين الطرفين».

لا يقول هاملتون ذلك بصوت عالٍ، أو أمام الآخرين، لأنه ليس متأكداً من سلامة أو قوة الأفكار التي تدور في رأسه وتعبر خياله. إنها تراوده بمكر، وتتجاذبه بغموض، خاصة وهو يقطع تلك المسافات على راحلته، أو حين يتمدد على الرمل، ويتطلع الى السماء، والنجوم تتدلى منها كالفوانيس: لامعة، قريبة، ودافئة أيضاً.

لكن فجأة تنطوي صفحة الحلم لتبدأ أخرى ليس لها علاقة بما قبلها. فحين وافق، وبصعوبة، أو هكذا تظاهر، على البقاء في موران، الى جانب السلطان، فقد نحّى جانباً تلك الأسئلة الحارقة التي تقلقه، وأصبح متأكداً انه بعمله الجديد لا ينصّب ملكاً وانما يقيم مملكة من طراز جديد، لأن هذا الشرق الذي يتعبه ويستهويه في آن واحد، يعج بالملوك الصغار، ولا يعني له كثيراً أن يستبدل ملكاً بآخر. ما يريده شيء مختلف، وقد عثر على بداياته، أو توهم، في خريبط، ثم في فنر من بعده.

مرت في ذهنه صور من التاريخ، وأخرى من الواقع، ولم يتأخر، لكي يبدأ. قال في نفسه: «الملوك الذين تقدموا بالسن يحتاجون الى من يقول لهم كيف يجب أن يعملوا، ليواصلوا الحكم، أما الصغار فيجب أن يقول لهم: ماذا يجب أن يعملوا».

أصبح لخريبط مثل ظله، لا يفارقه ولا يفترق عنه، إلا حين يبلغ البوابة الصغيرة، في ذلك السور الطيني، المؤدي الى جناح الحريم. وخريبط لا يصدق أن الصاحب وافق على البقاء، ووافق أن يكون قريباً منه هكذا. في رحلاته السابقة، ومع الآخرين، كان يقضي أياماً ثم يغادر. وخريبط يعرف أنه غادره الى منافسيه، وبعض الأحيان الى خصومه، لكنه لا يقوى على السؤال أو الكلام. الآن يضع هاملتون بين يدي السلطان كل وقته وذكائه وعلاقاته، بل أكثر من ذلك يتبدى له وحده الصديق الذي يمكن ائتمانه والاستعانة به على كل شيء، وفي كل وقت.

ولأن هاملتون قرأ كثيراً عن الصحراء وبشر الصحراء، يريد الآن أن يصنع شيئاً عجز عنه الآخرون، ولذلك فإن من جملة ما فعله ان قطع الصحراء

العاتية المجهولة من الشرق الى الغرب، ويخطط لقطعها من الشمال الى الجنوب، وكان فخوراً أنه فعل ذلك. قضى شهوراً طويلة في مضارب البدو يسمع منهم، ويأكل معهم، ولم يتردد أيضاً في أن يرتدي ملابسهم.

بدت له الملابس العربية، حين ارتداها أول الأمر، مثل الخرق البالية، ثم اكتشف أنها وحدها التي تلائمه وتلائم الصحراء. وتذكر، بحزن، زميلاً سبقه الى موران، وكيف ظل مكروهاً ويخشى منه لأنه رفض أن يتخلى عن ملابسه، ثم كيف قتل هذا الزميل في معركة حربية خاضها بعصبية، فقط ليثبت لهؤلاء البدو أنه شجاع.

لقد بلغ الأمر بهاملتون أن ادمن الملابس العربية، فلا يستطيع التخلي عنها. أما حين يضطر الى ارتداء زيه القديم، لكي يمتطي الطائرة ويسافر، فكان يشعر أنه يتنكر. كان يتطلع الى نفسه في المرآة ويبتسم ثم يقهقه، ويفعل الشيء عينه أصدقاؤه حين ينظرون اليه بالملابس الافرنجية.. ويبتسمون!

«الصحراء كالمرأة، بمقدار ما تبدو هادئة، بسيطة، لينة وجميلة، فإنها بحاجة الى الفهم والتعاطف، لأن لها وجوهاً لا حصر لها. حين تغضب أو تجن تبدو وكأن ليس لها علاقة بما كانته من قبل. وهي في الليل غيرها في النهار. وفي الشتاء تختلف عن الصيف، وعن باقي الفصول. إنها أكثر من ذلك، إنها هي ذاتها ولا تشبه نفسها أبداً. تتغير كل لحظة، تتكون في كل لحظة، عالم في مرحلة التكوين المستمر».

هكذا كان يردد هاملتون لنفسه، لكي يبقى باستمرار شديد التنبه والحذر، ولئلا يطمئن الى قناعات خادعة ونهائية. صحيح أن الصور والمفاهيم التي ملأت رأسه من قبل اهتزت وتغيرت، بل وأخذ يسخر منها، ويعتبرها تصورات وأوهاماً اخترعها عدد من الأفاقين الأدعياء، وهم من الرخاوة التي كانت تسيطر على أجسادهم وعقولهم بحيث لم يستطيعوا التقدم الى الأمام، أو أن يقدموا أنفسهم بجدارة الى الصحراء الحقيقية، فاكتفوا بتدوين ملاحظات، أقرب ما تكون الى الأكاذيب، أملتها عليهم خيالاتهم المدوّمة والمليئة بالأفيون، أو

طرائف التقطوها من أزقة المدن القديمة، ومن أفواه المخنثين والخصيان، ومن أفواه البغايا، خاصة في مباغي المدن الساحلية، حيث قضوا معظم وقتهم وهم يكتشفون الصحراء!

وبشر الصحراء هم النبات الحقيقي لهذه البيئة، وأحد مظاهرها وتجلياتها، إذ رغم البساطة والانكشاف الكامل، فإنهم طبقات من الحراشف القاسية المتينة تراكم بعضها فوق بعض بحيث يصعب معرفتها من النظرة العابرة، أو إقامة صلة معها من خلال التملق. صحيح أنهم يسمعون، لكنهم، في الغالب، يفكرون فيما سمعوه، ويفهمونه بطريقتهم الخاصة. وهم كثيرو الشك، لا يثقون بسهولة، أما حين يقطعون، فإنهم يفعلون ذلك بقسوة وحسم وإذا أعطوا فإنهم يعطون بسخاء. صحيح أنهم يعطون قليلاً أول الأمر، لكنهم إن فعلوا، فإنهم لا يتوقفون بعد ذلك عن العطاء.

الآن، وبعد أن جال موران من أقصاها الى أقصاها، وعرف الأماكن والبشر والاشياء، واختبر الذئاب المتنافسة، كتب الى رؤسائه ما يلي: «... وخريبط يعتبر أصلح المتنافسين، لأنه يعترف بالجميل الذي اسديناه له، وأكثرهم ذكاء واستعداداً، ثم إن القوى التى تسانده، ويمكن أن يحركها، تشتعل بحماسة دينية منقطعة النظير، وهذه الميزة الأخيرة لا تتوافر لمنافسيه، وهي ذات تأثير كبير في موران إذا أحسن استخدامها والاستفادة منها». ولم يتأخر رؤساؤه في تأييد وجهة نظره.

في النهار، في المجلس، يربض هاملتون، كقط، غير بعيد عن السلطان. يستمع، يهز رأسه دلالة الفهم والموافقة، والسلطان يفيض بالأحاديث، لكي يقوي عزائم الرجال ويعبئهم لمعارك قادمة، ولكي يؤكد لهاملتون أنه يملك من القوة والقدرة ما يجعل كل شيء سهلاً، فقط يجب أن يقتنع «الصاحب والخويا»، كما لا يمل السلطان من ترديده.

إذا تكلم هاملتون فإنه لا يتجاوز، في الغالب، سؤالاً أو تعليقاً. ورغم أن الكثيرين لا يتكلمون بحضرة السلطان، الا اذا سئلوا، أو كان لديهم شيء هام

يقولونه، إلا أن صمتهم يختلف عن صمته. كانوا يعتبرون أنفسهم كتلة واحدة، وبالتالي فإن لسان أي منهم يعبر عنهم، ولذلك لا يضير أي واحد إذا تكلم هو أو تكلم غيره. أما هذا الغريب، الطارىء، فإن صمته يثير الارتياب اكثر من كلامه، ونظراته تجول في الوجوه فتترك في القلوب تساؤلاً مراً: لماذا جاء وماذا يريد؟ لكن هذا التساؤل لا يتجاوز الصدور الى الألسنة، لأن ثقة السلطان تجعلهم يحارون ويصمتون.

في الليل، وكان السهر يمتد ويطول، فإن هاملتون شخص آخر:

- ... وتعرفون، يا طويل العمر، ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية مضطرة لأن تأخذ بعين الاعتبار ظروف المنطقة وردود الفعل. ورغم أنها تؤيد جلالتكم تأييداً كاملاً، وهذا واضح من خلال المساعدة، ومن وجودي معكم أيضاً، لكن لا تستطيع أن تستفز الآخرين، أو أن تجعلهم في صف اعدائها، ولذلك فهي توافق ضمناً، ودون إعلان، أن تتخذوا الاجراءات المناسبة لتصفية المنافسين، كل ما علينا أن نخرج الموضوع بصورة مقنعة ومقبولة.

لقد قال هاملتون هذا الكلام في وقت متأخر، وبعد أن تأكد من أمور عديدة، والسلطان الذي كان ينتظر هذه الموافقة لم يتأخر.

ومع كل خطوة لا بد أن يكون السلطان أكثر ادراكاً لما يقوله هاملتون:

- وإذا أمكن ضم هذه المنطقة سلماً، من خلال استمالة القبائل والشيوخ، أفضل من ضمها بالقوة وحرباً. وإذا استطعنا ان نفعل ذلك سراً، أو دون ضجة، أفضل من أن نفعله علناً، أو من خلال إثارة الآخرين.

وشهراً بعد آخر، سنة بعد أخرى، لم يعودا طرفين. أصبحا توأماً سيامياً، جسداً برأسين. فإذا افترقا أواخر الليل، فإن ساعات الليل الأولى، ثم ساعات النهار كلها، تكفي لأن يتحدثا في كل شيء. كيف تفكر بريطانيا، وكيف يفكر أهل الصحراء. ماذا تريد بريطانيا، الآن وفي المستقبل، وماذا يريد السلطان. أما ما تبقى من الوقت فللحديث عن الخيل والتاريخ وانساب القبائل ومعارك الماضي، فإذا تعبا من الكلام، فإن

المنتظرين، والذين لديهم الكثير ليقولوه لا حصر لهم، عديدون وجاهزون. وحين يتكلمون تبدو الدهشة على وجه هاملتون، ثم يتملكه السرور، ويصبح شديد العجب: «هؤلاء البسطاء المنسيون، الذين لم يتعلموا، كيف يمتلكون هذا الذهن الخصب والذكاء النادر؟».

حين يفكر هاملتون بالأمر يعزو السبب الى التأمل وصعوبة الحياة، ثم الى ذلك التراث الخفي، الذي ينتقل من الآباء الى الأبناء، من الجدات الى الأحفاد. أما ملكة الحفظ التي تميزهم فإنها نتيجة البيئة والمناخ، لأنه دون حفظ الأماكن ومعرفة الأشياء فإن الانسان في هذه الصحراء القاسية معرض للهلاك والفناء.

ويهز هاملتون رأسه بإعجاب، وهو يضيف محدثاً نفسه: «والليل في الصحراء، بقمره ونجومه، ثم انتظار المواسم والأمطار، وحتى القوافل، يجعلهم شديدي الاستعداد لأن يفتحوا عيونهم وآذانهم، وحتى أنوفهم، لكي يتلقفوا أي جديد، ويتعلموه بسرعة، لكن على طريقتهم الخاصة».

ويتذكر كيف أصبح نجم «يعرف» الانكليزية من خلال ملازمة ادورد هيرست، الذي جاء من بريطانيا لاقامة مراكز للتلغراف، إذ لم تمض بضعة شهور، إلا وأصبح نجم قادراً على التفاهم. صحيح ان انكليزيته متواضعة، وتتخللها الاشارات، لكنها تكفي، لأن هيرست، وبعد ثلاث سنين قضاها في موران، لم يستطع أن يتعلم إلا عدداً من الكلمات العربية لا تتجاوز العشر. وكان ينطقها كالأطفال، وتثير الضحك، اكثر مما تساعد على أن يُفهم!

أما حين استولى السلطان، بعد سنين، على الحويزة، فقد قال له هاملتون:

ـ قرأت في بعض الكتب، يا صاحب الجلالة، أن من يريد أن يضع يده على ممتلكات جديدة، ويود الاحتفاظ بها، أن يجعل نصب عينيه دائماً أمرين في منتهى الأهمية: أولهما إبادة الأسرة الحاكمة السابقة، وثانيهما عدم إحداث تبدل جوهري في قوانين هذه الممتلكات وضرائبها.

والسلطان الذي هز رأسه، وكان منتشياً بنصره، كان يطبق، غريزياً، ما قاله هاملتون، دون أن يقرأ ذلك في كتاب، ودون أن يسمعه من أحد. وقد عرف هاملتون، في وقت متأخر، أن الأوامر التي اعطاها السلطان بالتخلص من حاكم الحويزة ومعظم افراد عائلته، قد أعطيت في وقت مبكر!

وفنر لا يكاد يترك مجلس أبيه. ويوماً بعد آخر أصبح موضع اهتمام هاملتون ورعايته. والسلطان الذي يرقب الأمور بعناية بدا مسروراً من هذه العلاقة، لكن حين تذكر عمير، قال في نفسه: «يجي يوم ونصفي حسابنا ويشوف».

«. . . تربية مخلوق بشري، خاصة إذا كان قد تكوّن ونما، أصعب من ترويض وحش غير قابل للترويض» هكذا قال هاملتون، عندما طلب منه السلطان أن يعتني بفنر، وأن يبعده عن عمير، وأن يبعد أفكار عمير عنه.

وقال هاملتون: «مهما كانت الخبرة أو القراءة، فإن إنساناً لا يشبه الآخر، يضاف الى ذلك مدى استعداد الطرف الآخر ورغبته» أما حين فكر بملازمة فنر، وأن يكون قريباً منه، فقال لنفسه: «لا يمكن ملاحظة التغير الذي قد يطرأ إذا كان قريباً جداً، فالمسافة القريبة تجعل الرؤية ملتبسة، لا تميز بين الأمس واليوم».

أما وهو يحاول التفكير باحسن الوسائل التي يمكن أن يعتمدها، فقد قال وهو يضحك: «إذا كانت التربية تعتمد على الكتب والمعرفة النظرية، فإن احتمالات الفشل أكثر من احتمالات النجاح ! خاصة إذا بدأنا الكتب من الصفحة الأولى!».

هكذا بدت اللعبة محيرة لهاملتون. وهكذا استمرت خلال فترة غير قصيرة من علاقته بفنر. فهذا الصبي ليس عادياً، بأي مقياس. كما أن التأهيل الذي يحتاج اليه يجب أن لا يكون عادياً، لأنه مشروع ملك أو سلطان. وإذا كانت تربية الملوك أو أولادهم عملية متعبة ومملة، حتى في البلاطات العريقة، والتي تنوء بالتقاليد الصارمة، فإن تربية الملوك في الصحراء المكشوفة، والمعرضة للرياح من الجهات الأربع، تصبح مغامرة محفوفة بمخاطر لا نهاية لها. فإذا أضيف إليها أن ذلك الصبي مملوء بالحذر الأقرب الى الخوف

والتوجس، كأي بدوي مسن يقابل عالماً جديداً وغريباً، مع هذا الكم الهائل من الابتهالات والبخور والسحر، وتلك الرؤى التي تتخفى بأشكال لا حصر لها، نتيجة الوحدة والتأمل والحزن، وأخيراً المرض، وما يخلفه من مشاعر الألم والكراهية، فإن هاملتون يراهن على قضية خاسرة بكل تأكيد، وهو بموافقته على أن يقوم بهذه المهمة، وكأنه يريد معاقبة نفسه، ربما كتكفير عن شيء دفين، لكنه لا يريد أن يعترف بالخسارة في وقت مبكر.

خلال فترة طويلة، وبأساليب لا حصر لها، حاول مع فنر، لكي يحمله على الكلام، كما يوصي علماء النفس: كيف كانت حياته في عين فضة. ماذا يحب وماذا يكره. هل يحب أباه أم يكرهه. وعشرات الأسئلة التي كان يلقيها، وتبدو بريئة، وكأن اللحظة أملتها، فكان يتلقى الصمت جواباً، أو ابتسامة صبي ماكر، وفي حالات قليلة كلمات محدودة تزيد حيرته وارتباكه.

ولم يعترف هاملتون بالهزيمة ولم يسلم.

أما أن يفصله عن خاله عمير، كما اتفق مع أبيه، فقد حقق خطوة قد تقربه من النجاح. فالسلطان الذي أرسل لعمير من يبلغه أن بقاءه في موران ليس ضرورياً، والأفضل لمصلحته أن يسافر الى عين فضة، فقد قابل عمير هذا الطلب، أول الأمر، بعدم الفهم، ثم بعد ذلك بالنسيان. ولما توالت رسائل السلطان، وكانت أكثر وضوحاً، هز عمير رأسه بالموافقة، وقال لطالع العريفان، وكان آخر رسل السلطان اليه:

- أمر طويل العمر على العين والراس يا طالع، بس الولد ما ينترك للكفار والخصيان.

طالع نقل للسلطان، حين سأله متى يسافر عمير، إجابة مختلفة، قال له وعيناه الى الأرض:

- قال، يا طويل العمر: أمر جلالته على العين والراس، بس لو أحد يدير باله على فنر.

وبعد قليل، وهو ينظر الى السلطان:

- وظني، يا طويل العمر، أن عمير آخذ على خاطره.
- الولد ما يربى بالدعا وبرفع اليد للسما يا طالع. الولد يلزمه يعرف الدنيا ويعرف الناس. يلزمه يحارب بيده وأسنانه، وفنر ابن سلطان، ما هو ابن شيخ مسجد.

ولم تتأخر جدته في المجيء الى موران. وبدا انها جاءت لتبقى، وكان يروق لفنر أن يقضي معها وقتاً طويلاً. وحين اضطرت، بعد عدة شهور، للعودة، لأن الجد مريض، جاءت بعد أسابيع خالته مزنة.

وحتى عمير الذي غاب فترة طويلة، وكاد ينساه الكثيرون، فقد أصبح يتجر بالابل في هذه الفترة، وهذا يضطره لزيارة موران بين فترة وأخرى، كما يقول، وأن يقضي فيها شهوراً لمعرفة السوق!

إذا غاب خاله وأقاربه لأمه، فموضي لا تغيب. والذي نسيت الجدة أو مزنة أن تقوله، أو أن تعيده على مسامع فنر، فإن موضي لا تنسى. تقول لها خالتها بمداعبة:

- ما أحد يصدق أنك تعرفين هذي السوالف كلها!
- واعرف غيرها وغيرها، يا خالة.

هكذا كانت ترد موضي، وتعني أنها تحارب في أرض تعرفها، وأنها تواجه أعداء غير مموهين! قال هاملتون للسلطان ذات ليلة:

- الطريقة الأفضل، يا صاحب الجلالة، أن يسافر، لأنه إذا تغير المكان يتغير الانسان. وفنر في هذه السن بحاجة لأن يتعرف على البلدان الأخرى، وأن يرى العالم.

أبدى السلطان تخوفه من الفكرة، واعتبر أن الأمر لم يصل الى هذا الحد من الضرورة، قال، وهو يهز رأسه:

- نسفّره هنا أو هنا، يا الصاحب. يروح للقنص، أو يسيّر على جماعة من جماعتنا، أو يروح يحارب.

- الأفضل أن يسافر الى بلدان أخرى، لتتغير نظرته ويكتشف العالم، لأن هذه الطريقة تغيره.
- ويسافر مع من؟
- أنا أسافر معه، يا طويل العمر.
- وتتركنا؟
- لا بد أن نتشاور مع لندن في أمور كثيرة تهم جلالتكم، وأن نصل الى حلول مناسبة، وهذه لا تتم بالمراسلة، يا طويل العمر، يجب أن تبحث مباشرة، وأن نصل إلى قرارات.

وبعد قليل وهو يبتسم:

- ومن الأفضل أن يكون الى جانبي ممثل عن جلالتكم، وسيكون هذه المرة فنر.

قال السلطان بانفعال:

- فيك البركة يا الصاحب. أنت صرت واحد منا، وتمون، وتعرف كل المشاكل والهموم.
- فرصة لفنر لكي يتعلم ويرى.

وبعد تردد لم يطل وافق السلطان، خاصة وأن هناك مشاكل عديدة معلقة، وقد طال انتظار حسمها.

قال عمير عندما عرف بسفر فنر:

- كنا خايفين عليه من كافر، هالحين أخذوه لديار الكفر.

موضي مرضت لأن فنر سافر، لكن والدها السلطان قال لها بحزم أقرب الى التأنيب:

- ويلزمك تعرفين: فنر رجال، ما هو حريمة، وإذا راح اليوم يرجع ثاني يوم، وما أريد اسمع كلمة.

أما لفنر، وهو يودعه، فقد قال:

- وتسلّم لي على ملك الانكريز، وتقول له: أبوي يسلم عليك كثير كثير السلام!

بعد سنوات طويلة قال هاملتون:

- تعمدت أن يكون السفر بالباخرة، لأنه يتيح لنا وقتاً طويلاً يمكن خلاله أن نتحدث، ويزول خوفه أو تحفظه، ونصبح بالتالي أصدقاء. كنت أريد لهذه النقلة الكبيرة أن لا تصدمه. فأن يتشربها على مهل، أن يتملى بها، تترك في قلبه وعقله أثراً لا يزول. فالتوقف في الموانىء، والنزول فيها، ثم ركوب القطار الى لندن، يجعله اقدر على تحمل جرعات الدواء المر. لكن ما كاد يركب البحر حتى مرض. التوى عنقه وبرزت عيناه. تصورت خلال مرحلة من السفر أن الصبي سيفارقنا. لمت نفسي كثيراً، وتشاءمت. فهؤلاء البدو الذين يظهرون مقداراً كبيراً من الطيبة والتسامح لا يتساهلون إزاء موت يعتبرونه غير طبيعي، وهم كثيرو الشك بكل ما تقوله لهم، بل ويصابون بالجنون، ولا يستردون وعيهم مرة أخرى إلا برائحة الدم، ولا بد أن يثأروا. بذلت جهداً استثنائياً، وقضيت اسبوعاً في الاسكندرية، الى أن استعاد الأمير صحته. ولا أعرف كيف ركبني الشيطان مرة أخرى، قررت أن نواصل السفر بالبحر. ربما كانت هذه الحماقة ضرورية! فما كدنا نعبر جزر بحر إيجه، ونتجه غرباً، حتى أصبح الأمير مثل قط اليف. هل هو الشعور بالغربة؟ اختلاف اللغة؟ الريح الشمالية التي تهب من أقصى بقاع الأرض، والتي تختلف عن رياح الصحراء؟ ان شيئاً ما قد حصل، فبعد ذلك الهرب، الأقرب الى النفور، وبعد المرض الغامض، والذي لم يجد له طبيب الباخرة، ولا أطباء الاسكندرية، سبباً، أصبح يقبل عليّ وفي عينيه ذلك الرجاء: ألا أتركه.

كنت أنتظر هذه اللحظة، وقد جاءت، ومنذ ذلك الوقت لم أتخل عنه!

فنر لا يحب أن يتحدث عن رحلته الأولى الى لندن، انها تجرحه، أو تسبب له ضيقاً، حتى بعد مرور السنين. إذ رغم كلمات هاملتون المشجعة، وابتسامات الذين زارهم، فقد ظل خائفاً. كانوا ينظرون اليه

بطريقة لم يرتح لها أبداً. وكانوا يتبادلون فيما بينهم النظرات والكلمات ويبتسمون. وهو لا يعرف: هل يرد على ابتساماتهم بمثلها، أو يرد على الأسئلة، خاصة من النساء المسنات، والتي كانت تسبب له حرجاً لم يكن قادراً على اخفائه.

خاله عمير الذي خاف، أول الأمر، من تلك الزيارة، لم تعد له شيئاً يذكر، نظراً لما جاء بعدها. ففي فترة لاحقة أصبح يرد على الذين يسألونه في عين فضة عن فنر وأخباره، مع ابتسامة حزينة وهزة رأس:

- يا جماعة الخير: ابن الناس، أو غرض الناس، موكل عليه ابليس، وخريبط من يوم ما حط يده بيد الكفار، وسلمهم اولاده وعياله، ترى ما عاد بالدنيا خير.

وحين يعاودون السؤال عن فنر يرد بنزق:

- وفنر، إذا الله سلمه، يرد لأخواله، لأن ثلثين الولد خاله، مثل ما يقولون، وظني أن فنر ما ينسى مية عين فضة، والرحمان اذا دخل قلب البني آدم ما أحد يقدر يطلعه منه.

كان عمير يقول هذا الكلام، وبهذه الطريقة، لأن السلطان طلب منه، وبكلمات واضحة، وتخللها لحظة غضب، أن يترك فنر. قال له، بعد أن عاد فنر من زيارته، وجاء عمير هذه المرة للاقامة بموران من جديد:

- اسمع يا عمير، اسمع وتفطن زين، فنر ابنّا، ويربى بشورنا وبمعرفتنا. إذا طلع زين يطلع لنا، وإذا طلع شين حنا مسؤولين. والرجال إذا عنده سالفة، ويريد يعلمها لغيره، يعلمها لأولاده.

وبعد قليل، وقد أصبح السلطان ضيق الصدر:

- ودوخة راس يا عمير ما نريد، عندنا منها واجد، وكل واحد يدوّر اللي يفيده.

تهاني لا تتذكر من سفرة فنر الى ديرة الكفر سوى شيء واحد: السبحة الزرقاء التي جلبها معه، ولا يعرف ما إذا كانت هدية لها أم للشيخة، فقد

قيل، في البداية، انها لأمي زهوة، وقيل، بعد ذلك، ان الشيخة رفضت أن تمد اليها يدها، لأنها غير طاهرة. أما تهاني فتؤكد أن فنر قدمها اليها في اليوم التالي لوصوله، وقال انها فيروز أصلي. أما للشيخة فقد جلب لها شالاً رمادي اللون ظلت تلبسه سنوات وسنوات. ولم تنس تهاني ابداً ذلك. أما حين فقدت السبحة، فقد شعرت بحزن شديد، وتفسر لولوة حزنها بسبب ما ذكر عن قيمة السبحة، وقيل انها عرضتها خلال فترة للبيع.

خزعل تأخر أياماً عن رؤية فنر بعد عودته. تعمد أن يبقى يومين إضافيين في وادي الرها، القريب من موران، بحجة أن مصالحة بين اثنين من الشيوخ المتخاصمين لم تنته، رغم أن المصالحة، كما يؤكد العارفون، تمت قبل وصول فنر بيوم واحد. علق خزعل على الكلام الكثير الذي نقل اليه حول سفرة فنر، وما رآه من عجائب، وما اكتسبه من خبرات، بحركتين وكلمة. فالحركات كانت طرقعة متقنة بلسانه، والثانية هزة من يده الكبيرة، إذ دارت في الهواء لتعطي معنى عدم الأهمية، أما الكلمة الوحيدة التي قالها فكانت:

- خرطي.

وموضي أيضاً لم تكن مهتمة أن تعرف أية تفاصيل حول سفرة فنر، كانت تريد عودته، وها قد عاد. ظلت ترقبه غير مصدقة، ورغم محاولته أن يهرب من نظراتها، وشروعه في الحديث عن ركوبه البحر، ورؤيته أشياء كثيرة، لكن حين همت الدموع من عينيها، وكانت دموعاً هي خليط من الفرح والحزن، فقد احتضنها، ثم بدأ يسألها عن أخبارها وصحتها، وأخبار قصر الروض وعين فضة.

السلطان وحده لم يستطع أن يخفي فرحه وإعجابه. كانت لديه أسباب كثيرة لهذا الفرح، وكان إعجابه يزداد بالصاحب وفنر. أما حين تأكد من التفاصيل، وقد سأل هاملتون أولاً، ثم عرف كيف تم استقبال ابنه في البلاط الانكليزي، وحفلات التكريم التي أقيمت له في كل مكان زاره، ثم الهدايا التي حملت اليه، والاسئلة التي وجهت للاثنين، وكلها تدور حول صحة جلالته، والصداقة التي تكنها حكومة صاحب الجلالة البريطانية لسلطان موران، والآمال المتوقعة من خلال التعاون بين البلاطين، بعد أن تأكد من

ذلك، بدا شديد الفرح، واضح الانفعال. وفي الليلة ذاتها، وبعد أن ودعه هاملتون عند بوابة السور، طلب من فنر أن يرافقه، وأن يعيد على مسامعه تفاصيل الرحلة «من يوم ما تركتم موران، الى أن رجعتم، يوم بيومه».

وفنر الذي أعاد ذكر ما سمعه من هاملتون، في تلك الليلة بالذات، لكن بطريقته الخاصة، وبمقدار ما فهم، أضاف تفاصيل أخرى حول الباخرة الكبيرة، وأمطار لندن، وعظمة القصور، وسفور النساء، وكان السلطان مسروراً بالغ السرور، ويردد كلمات بذاتها: «تعبنا ما راح، والجماعة يصدقون» وبعد قليل: «أي نعم التعب ما راح، والجماعة يصدقون».

ولم يسترسل السلطان في الفرح، فقد كان عقله يعمل على الأرض: ماذا يجب عليه أن يفعل غداً، وكيف يتعامل مع الآخرين، ومن هم أصدقاء اليوم، ومن هم الأعداء. لقد جاءه هاملتون ببشائر كثيرة، وعليه أن يعرف كيف يصل اليها وكيف يحافظ عليها.

قال السلطان لمهيوب:

- ... ويلزم تعرف، يا مهيوب: ترى الخيل إذا طال قعادها تبغّل!

وحين هز مهيوب رأسه موافقاً ومنتظراً، تابع:

- وهالحين راح نطلّع حيفنا وحيفها. الضامرة، بنت الأصايل، ما ينخاف عليها، والمضربة، أما تشيلنا أو نتركها طعام للنسور. ويلزم تحضر نفسك وتخبر أهلك، لأن سفرتنا هذي المرة راح تطول، يا مهيوب، وعسى أن الله يرجعنا غانمين.

قال طالع العريفان:

- يا ناهي، يا ابن الفرحان، طويل العمر تحزم وتلزم، وشدوا روسكم يا قرعان. هالحين بلشتنا مع الحريمات والعجيان.

وبعد قليل، وهو يضحك:

- وإذا سفرته طالت، يا مبارك، هنا الواحد منا اصقى، ما يسمع إلا اللي يريده، تسمعني زين يا ناهي؟

رد ناهي وهو يقهقه:

ـ شنهو اللي تقوله؟

وبعد قليل، وقد تغيرت نبرة الصوت:

ـ مهما طالت، يا أبو جازي، ترى الحريمات ما ينسن، وما يغفرن، فاحرص وتوق، وعسى يعود غانم، لأن إذا غنم ما يتذكر إلا غنمه، وإذا خسر يبلش بأقرب الناس إليه.

وما كاد الشتاء يقترب من نهايته وتبدأ أولى بشائر الربيع، حتى بدأ السلطان واحدة من غزواته الكبيرة، وكان يؤمل منها الكثير.

كان مع السلطان، في تلك الغزوة، عمه دحيم وابناه: خزعل وفنر. أما الصاحب فقد تأخر أسبوعين في موران، لأشغال طارئة، على أن يلتحق بالحملة، بعد ذلك.

واضطربت موران من أقصاها الى أقصاها، ولم يبق أحد الا وشارك فيما يجري. النسوة تملكهن الخوف، الخوف من الجوع ومن فقد الرجال، وقد عبرن عن ذلك بصوت عالٍ، لكن بمرور الأيام، وتزايد الإصرار على الحرب ثم اقترابها، فقد غرقن في الصمت. والصبية الذين اقتربوا من سن الشباب ـ وقد اضطر آباؤهم لابقائهم عند الأمهات والأخوات، لخوفهم عليهم، ولأنهم لم يكونوا واثقين من الوعود التي أعطيت لهم ـ شارك هؤلاء الصبية أكثر من غيرهم في تنظيف وتزييت البنادق الجديدة، واعداد مجاند الفشك، أما الأسلحة القديمة التي استبقيت في البيوت فقد اعادوا فكّها وتركيبها مرات لا عد لها، ثم جربوها، وبرع عدد منهم بالتصويب. جرى كل ذلك دون أن يعرف الآباء، ودون أن تحس الأمهات، وبلغ الحماس بالكثيرين حداً جعلهم يطالبون أن يسمح لهم بالمشاركة في الحرب!

خدم القصر الذين يعرفون أكثر من غيرهم، وكانوا يرقبون ما يجري، قالوا بثقة: الشيخة فتحت خزاينها وطلّعت ذهبها، وقالت لخريبط: «هذا يومك يا أبو منصور. . إذا تريد الذهب فهذا هو الذهب، وإذا تريد السلاح السلاح يجي بالذهب، ما عليك إلا أن تؤمر وتغرف، والناس تنتظر كلمتك، حتى تمشي تحت رايتك» والسلطان لم ينتظر: غرف من الأموال كل ما يستطيع حمله، واشترى من السلاح حمل ألف بعير!

بعض الذين يعرفون مزاج السلطان ورغباته، كانوا على ثقة أن للشيخة علاقة بالأمر، لكن لا يعرفون الى أي حد، فأن يصطحب وطفة معه في هذه الحملة، وأن تصبح وطفة أحب النساء اليه، فلا بد أن تكون الشيخة هي التي

فرضت ذلك، ومما ساعد على انتشار هذه الأخبار أن ثلاثة من خصيان القصر، وكانوا من خدم فضة، اكدوا أن سيدتهم كانت تستعد لمرافقة السلطان، وقد هيأت كل شيء لتكون معه، إذ أمرت بحزم الخيام، وجهزت انواعاً من الحنة والبخور، وأوصت على خمسين زوجاً من صغار الحمام، إضافة الى كل ما كان عندها في الأقفاص، كما جمعت ما استطاعت جمعه من العسل، وبدت في نظر زوارها وكأنها تستعد لولد جديد أو لسفر. ونقل عن الخصيان الثلاثة، وقد قالوا ذلك وهم لا يخفون ابتساماتهم، أن السيدة كانت تصحب زائراتها لكي تريهن الحمام، أكثر من رغبتها في أن تريهن ما عندها من الجواهر والملابس، كما كانت تفعل من قبل. وأكد واحد من هؤلاء أنه رآها أكثر من مرة تتوقف عند أقفاص الحمام وتضحك بصوت عالٍ، تماماً مثل أية فرس حائل. وكانت تبدو سعيدة الى أقصى حد!

لكن فجأة يتغير كل شيء، ويترافق ذلك مع الصمت، وكأن شيئاً مفاجئاً حدث، لأن السلطان بدا مختلفاً بسلوكه وملابسه وعلاقاته مع الناس، الابتسامات يوزعها أينما سار. الأموال تدفع بسخاء، الأسلحة الجديدة ومعها الذخيرة تعطى دون سؤال عن الأسلحة القديمة، أما الوعود فلا حدود لها ولا تتوقف!

سوق الحلال امتلأ بالاشاعات وكلها تؤكد، أن أسعار الجمال سترتفع الى عشرة أمثالها.

وبالغ عدد من سماسرة السوق وقالوا انها سترتفع الى عشرين أو ثلاثين مثلاً. أما من يملك حصاناً ويريد بيعه فسوف يصبح غنياً بكل تأكيد.

وعشرات الأمور الأخرى حصلت أو تغيرت. فحملة وادي الغيض مليئة بالأخبار المتناقضة، والتي تصل اغلب الأحيان الى حد التعارض الكامل، إذ رغم الأسلحة والاعداد، فقد قيل ان السلطان فكر بإلغائها أو تأجيلها، لكن فجأة دُقّت طبول الحرب وسار الجند الى الجبهة. وفي وقت لاحق قيل ان السلطان كاد يقتل، اذ اكتشف في الليلة السابقة لمعركة الحويزة مؤامرة لاغتياله، فتولى بنفسه اعدام خمسة من المتآمرين. وقيل ان الهزيمة كادت تقع في معركة القلعة، وهي واحدة من المعارك المهمة، وكان من الممكن ان

تقرر مصير الحرب، أو ربما مصير السلطنة، لولا وصول امدادات كبيرة من الأسلحة، ومن المقاتلين الأشداء. واكد الذين رأوا او عرفوا بوصول المقاتلين، أن هؤلاء تولوا، وحدهم، مشاغلة العدو، أول الأمر، ثم إلحاق الهزيمة به، الى ان استطاع السلطان ان يعيد تنظيم قواته. وقيل ان هذه القوات انسحبت بعد المعركة، دون أن يعرف الكثيرون من أين جاءت أو الى أين ذهبت.

عدد من الذين كانوا يعملون في النقل والتموين، رأوا الشيخة زهوة ضمن قافلة كبيرة، وصلت على عجل، وكان معها الصاحب ايضاً، وقد اتجهت شمالاً، وخيمت على مسافة تبعد نصف يوم عن القوات الأساسية للسلطان. وأكد الذين رووا الأخبار أن القوة بوصولها قلبت الأمور وغيرت النتائج، وقد رجعت القوات بعد ثلاثة أسابيع، واتجهت غرباً، لكن لم يعرف ما اذا رجعت الشيخة مع القافلة أم لا. ولم يستطع أحد أن يحدد أو يؤكد دور الشيخة في هذه المعركة!

الأمير خزعل وقع في كمين، وقد أخذ أسيراً الى قلعة الرفيعة، وحجز هناك، وبدأت مفاوضات بين عويد المشعان والخاطفين استمرت ثلاثة أيام من أجل إطلاق سراح الأمير خزعل. السلطان، حين بلغه الأمر، ابدى تساهلاً كبيراً، طلب أن تستمر المفاوضات مع الخاطفين، وأن يطيلوا امدها، مع استعداد للاستجابة للمطالب، الى أن تمكن من الانقضاض عليهم وتحرير خزعل.

وحول هذا الأمر تضاربت الأخبار والروايات. كثيرون على قناعة أن همّ السلطان كان الانتصار في المعركة اكثر من تحرير الأسرى، بمن فيهم خزعل. وغيرهم قالوا ان عدداً من جنود العدو تواطأوا مع السلطان، وقيل مع خزعل، بعد أن اعطاهم مبلغاً من المال. وهذا مما سهّل احتلال القلعة وتحرير الأسرى. أما الذين لا يحبون خزعل، فقد كانوا على قناعة أن الحظ والحظ وحده، هو الذي لعب دوراً في انقاذه، لأن اوامر السلطان بهذا الخصوص كانت واضحة: «دمروا القلعة»، وحين سألوه عن الأسرى، ردد نفس العبارة: «دمروا القلعة».

فنر كان ضمن المجموعة التي يقودها العم دحيم، وكانت مهمة هذه المجموعة مشاغلة العدو، اضافة الى كونها الاحتياطي الرئيسي للقوات. طلب السلطان من هذه القوات أن تستعد انتظاراً لأوامر جديدة، إذ كان يريد أن يستعين بها عند الضرورة، من أجل الضربة القاضية والأخيرة، لكي لا يعزى لغيره تحقيق النصر!

لم يكتف السلطان باستنفار هذه القوات، فقد نقل قيادته الى مواقع متقدمة، وتولى بنفسه اصدار الأوامر، وقيل أنه طلب من ابن مشعان ان لا يرحم أحداً في طريقه من رجال العدو، وقد سمعه بعض رجاله وهو يخاطب ابن مشعان، إذ قال له بالحرف الواحد:

ـ اذبح وامش يا عويد، ما نريد أسرى.

وحين أوعز لقوات الاحتياط ان تتقدم، كلفها وحدها، وكان على رأسها عمه دحيم، ان تقبل مفاوضة سكان الحويزة، على أن يتم الاستسلام للسلطان ذاته. أما أثناء زحفه من الجهة الجنوبية تجاه الحويزة، فقد دفع عدداً من عيونه لكي ينشروا أخبار عويد وفظائعه، وانه لا يضمن سلامتهم إلاّ الاستسلام للسلطان. وقد قبل فعلاً استسلام حاميات عدة وبلدات وهجرات كانت في طريقه.

الصاحب الذي ظل طوال الفترة الماضية في الخطوط الخلفية، وقد تنقل عدة مرات بين السلطان وعمه دحيم، وقائد الجند ابن مشعان، حاملاً رسائل وأوامر وذخائر، رغب في هذه الفترة أن يشارك في المعركة، رغم الاتفاق السابق الذي جرى بينه وبين السلطان على البقاء في المؤخرة، وهذا ما جرى تأكيده حين انتقلت القيادة الى مواقع متقدمة. لم يكتف هاملتون بأن يرسل للسلطان من يعلمه برغبته في الانتقال، إذ انتقل فعلاً. ولما بلغ السلطان وصول الصاحب الى هذه النقطة المتقدمة، وكان في ذلك الوقت يحكم حصاره على بعض المواقع المؤدية الى الحويزة، استشاط غضباً، وبعث بمهيوب ومجموعة من رجاله لمنع الصاحب من التقدم اكثر مما فعل، اذ كان يخشى من هجوم معاكس، ويريد من الصاحب أن يبقى قادراً على الحركة،

وأن يلعب دوراً يتجاوز دور الجندي غير الحاذق، والذي يمكن أن يقوم به، وبكفاءة أكبر، أي من جنودِ جلالته، كما أنه تذكر كيف قتل فولر قبل بضع سنين، حين أصر على المشاركة شخصياً في معركة الرحيبة. كانت خسارة فولر فادحة، وقد سبّبت للسلطان آنذاك ألماً وحزناً، جعله لا يفارق خيمته لبضعة أيام. لا يريد الآن أن يخسر الصاحب أيضاً، ولا يريد أن يلخص دوره الى مجرد فرد يحمل بندقية.

هاملتون الذي استجاب بضيق لرغبة السلطان بأن لا يتقدم اكثر مما فعل، كان بشوق عارم للمشاركة في المعركة الأخيرة، والمتوقعة بين يوم وآخر، لأنه يريد أن يعيش لحظات الخطر، كما كان يقول لنفسه، ويريد أن يشهد أيضاً سقوط الحويزة، ومثل هذه اللحظات لا تتكرر كثيراً في حياة الانسان. كما أنه ملّ تلك الأدوار المبهمة بنظر الآخرين، والتي يقوم بها في الخطوط الخلفية. يريد الآن أن يدلل على شجاعته وبراعته ويريد أن يقول لكل انسان، الآن وفي المستقبل، انه شارك فعلياً في الحرب. وفي لحظة انفعال تمنى لو يجرح، ليكون الجرح علامة لا تفارقه مدى الحياة، وشهادة أمام عيون الذين قد يتطاولون عليه!

في حالات كثيرة كان يحس أن المسافة التي تفصله عن هؤلاء البدو لا يمكنه اجتيازها ابداً. لم يكونوا يعتبرونه غريباً فقط، كانوا ينظرون اليه بارتياب، وكان يرافق ابتساماتهم شيء ظل بالنسبة اليه عصياً على الفهم أو التفسير، وهذا ما يعذبه. صحيح أنهم يظهرون الود، ويستمعون اليه، والكثيرون لا يترددون في أن يتناولوا الطعام معه، لكنه بنظرهم هش، وربما أقرب الى النساء، أو الأطفال، وكان بعضهم لا يخفي نفوره منه، سواء بالابتعاد عنه، أو بالصمت، رغم الود الذي كان يبديه نحوهم والخدمات الكثيرة التي يقدمها لهم.

هذه المشاعر والمواقف كانت تعذب هاملتون، تجعله دائم الاحساس انه غريب وزائد، وأن لا أحد يحبه أو يريده. ومع تفتح الطبيعة وتغير النوء يحس أن جسده لا يطاوعه، أنه يتمرد عليه ولا يمكن التحكم به من جديد، خاصة

بعد مرور فترة طويلة لم يلتق خلالها امرأة، إلا من خلال عمل عنيف، وليس أكثر من الحرب عنفاً يمكن أن تعيد له قدرته على ترويض جسده.

أحس السلطان، رغم انشغالاته الكثيرة، ان الصاحب لا بد أن يصيبه الجنون، تماماً كما حصل لفولر، ولذلك لم ينس أن يوجه إليه عمه بعد عودة مهيوب بيوم أو يومين. قال السلطان لعمه:

- . . . ومثل الكباش، يا طويل العمر أو مثل الكلاب، إذا ما صبّيت عليها الماء تظل هايجة وما أحد يحلّها. اتذكر خويه قبل كم سنة، هاش وعنفص، وحنا نهدّيه: يا ابن الحلال، يا صاحب، وابد، اندفع مثل الثور، وبعدها صار اللي صار.

استراح، تذكر، ثم تابع:

- ويلزم ان تقول له، ان توصيه، يا عم، لأنّا نريده لسوالف ثانية أكبر من هذي.
- وكل الله يا ابن آخي، وما يصير الا كل خير.

مع دحيم كان هاملتون واضحاً:

- . . . ومثل هذه المعركة لا تحصل الا مرة واحدة، ولا يمكن الكتابة عنها وتسجيلها الا اذا اتيحت لي فرصة مشاهدتها، والمشاركة فيها.
- يا صاحب. . الجماعة طرشوا لنا مراسيل وقالوا: اذا أمنتم حياتنا وكرامتنا رمينا سلاحنا، والأمر أمر طويل العمر.
- ولماذا لا يريدني السلطان أن أكون الى جانبه، وأن أشهد استسلام الأعداء وسقوط الحويزة؟
- طويل العمر يقول الجماعة غدارين، ويعرفون أنك أنت عدوهم، ويخاف طويل العمر من حماوة الدم، يمكن واحد تطقّ براسه ويسوي اللي ما يتسوى.

لم يفطن هاملتون الى هذه النقطة بالذات. قال لنفسه «اذا تبارى البدو

والثعالب في المكر فإن الثعالب لا تجد ما تفعله بوجودهم».

أخيراً تم الاتفاق، وبعد جهد، وقد تخللته لحظات غضب وصمت، ان يتقدم هاملتون، لكن شرط الا يشترك في معركة.

كتب هاملتون بعد ذلك بسنوات طويلة:

«قضى السلطان مساء الثاني من أيار في الاستعداد للهجوم على المدينة والاستيلاء على حصنها العظيم، مصدراً تعليماته الموجزة بصدد كيفية تنفيذ الخطة، وكانت فصائل من جيشه قد قامت بقطع أشجار النخيل في واحة صغيرة قريبة، وأخذوا يصنعون منها ما يشبه السلالم للتسلق. بينما وزعت حبال الآبار التي كان يحملها الجميع على افراد فرقة المتسلقين، كي يدلوها من اعلى الأسوار، حين يبلغون اول هدف من أهدافهم.

وبدأ الزحف مشياً على الاقدام في منتصف الليل، فلم يبزغ الفجر حتى كانت الحبال على الأسوار، فقد تمكن المتسللون من اخراس بعض الحرس النيام الى الأبد. وقبل أن تفيق الحامية نفسها من الذهول الذي أصابها في الظلام كانت القلعة في أيدي جنود السلطان، فانسحب المدافعون الى الجامع، وتحصنوا هناك في انتظار ما يجد من التطورات.

وفي هذه الأثناء استولى جنود السلطان على احدى بوابات المدينة فتدفقت قوات خريبط للداخل، يطلقون الرصاص ويرددون هتافاتهم الحربية، لتزيد من قدر الذعر الذي تملك السكان، وتحمل العدو على الاعتقاد بأنه لا أمل لهم بالنجاة.

ثم ان جنود خريبط اسروا عدداً من الأعداء، فأرسلوهم الى القائد ليطلبوا منه الاستسلام، ولكي يبلغوه أن السلطان يضمن سلامة أرواح الحامية، ووجهوا للمحاصرين تحذيراً بتفجير القلعة وهدم اسوارها اذا تأخر استسلامهم. .

وحينئذٍ لم يجدوا بداً من الاستسلام، وهكذا سقطت الحويزة».

بعد سنوات طويلة والسلطان يتذكر:

- الشهادة لله، يا جماعة الخير.. في الحويزة ما تركت احد إلا دزيته للصاحب. نشف ريقي الى أن وافق.

وضحك بصوت عال وتغيرت نبرة الصوت:

- وهذول، يا جماعة الخير، لهم طبايع غير طبايعنا، إذا الواحد منهم عاند، اذا قال لا، ما أحد يقدر عليه، وبعد التي واللتيا، والله يرحمه عمي دحيم، تولى أمره، ظل يأخذ ويعطي معه الى أن وافق يكون بالوجه، وقلت له أطرّش لك كل ساعة طارش وأخبرك بالعلوم كلها، ومن الوجه ظل يتابع بالدربيل، ومن عندنا طارش رايح وطارش جاي، ولما استسلموا بعثت وراه، قلت له تعال، جاء وحوطته بجماعة وحرّصتهم، خوف أن ابن حرام دمه فاير ويسوي لنا سواية، لكن الله سلّم وانتهى كل شيء على خير.. وظل الصاحب بعدها زعلان شهر أو شهرين.. وبعدها بكم شهر سافر وغاب شهرين ولما ردّ تغيرت أمور كثيرة!

لم تكد تمضي على معركة الحويزة سوى بضعة شهور حتى سافر هاملتون الى بريطانيا بإجازة طويلة. كان بحاجة ماسة الى تلك الاجازة، لأنه أحس بالارهاق نتيجة الجهد الكبير والمتواصل الذي بذله خلال السنين الثلاث الأخيرة، ولأنه وقع فريسة لحالة سوداوية، بسبب الاحباط الذي جعله غير مفهوم. وبالتالي غير مرغوب فيه، من أغلب الذين يحيطون به، مما دفعه لأن يعتبر العمل الذي نذر نفسه له عديم الجدوى. أما زوجته، دوروثي، فقد كانت لديها أسبابها الواضحة للسفر «لا أريد لابننا أن يولد في هذا المكان الموحش، والذي يسبّب للانسان مرضاً لا يفارقه طوال حياته. أريد للطفل أن يولد في مكان طبيعي، وبظروف لا تجعله معقّداً أو حاقداً على أبويه». وهاملتون الذي وافق على رأي زوجته، وبدأ يعد نفسه للسفر، تذكر طفولته في ذلك المكان النائي. صحيح أن الذكريات تبدو غائمة مشوشة، وبعيدة أيضاً، لكنها تركت آثارها على حياته، وها هو الآن يواصل دفع ضريبة الميلاد، كما يقول لنفسه، خاصة في لحظات الندم.

لم يعترض السلطان على سفر هاملتون، ولم يتردد في الموافقة على أن يصطحب معه فنر. كانت لدى السلطان أسباب لا حصر لها: فبعد أن انتصر، وخضعت له الحويزة، داهمته مجموعة كبيرة من الأعباء والمشاكل لا بد أن يتفرغ لها. وكان بحاجة ايضاً الى الأموال، خاصة المعونات التي وُعد بها، إذ بعد أن دفع له قسم منها توقف دفع الباقي، وليس مثل هاملتون من يستطيع إقناع الجماعة هناك بدفع تلك المعونات، أو ربما زيادتها، الأمر يتوقف على البحث والمتابعة في لندن، لأن المراسلات طالت، والموفدين الذين جاءوا

ووعدوا لم يفوا بوعودهم. يضاف الى ذلك أنه لا بد من معرفة الموقف الجديد نتيجة معركة الحويزة. هل يتقدم أكثر في المرحلة الحالية؟ هل يوافقون على التخلي عن بعض أصدقائهم السابقين، والذين لم يعودوا نافعين أو قادرين في المرحلة الجديدة؟ هاملتون الذي كان واضحاً وحاسماً خلال الفترة الماضية يبدو الآن متردداً وأقرب الى الحيرة، أو ربما لا يستطيع أن يقرر، لذلك لا بد أن يتشاور مع رؤسائه.

أما موافقة السلطان على سفر فنر فكانت لها ملابساتها الخاصة، ففي اليوم الثالث من عودة السلطان ظافراً، وما رافق تلك العودة من أفراح وأعطيات لم تشهد لها موران مثيلاً منذ وقت طويل، وصل رسول من عين فضة يحمل خبر وفاة الشيخ عوض. والسلطان الذي استاء للخبر أن يأتيه في هذا الوقت بالذات، أكثر مما حزن له، اضطر الى اختصار بعض الاحتفالات، والى تأجيل زواجه من شما زوجة امير الحويزة الذي قتل في المعركة!

خلّفت وفاة الجد لفنر وموضي حزناً اقرب الى الفاجعة، وكأنهما فوجئا، أو لم يتوقعا موته أبداً. واذا كانت موضي قد فجرت دموعها، أو تركتها تنفجر دون خشية، ودون اعتبار لرأي من حولها، فإن فنر الذي عاد من حملة وادي الفيض منتعشاً ومتفائلاً، ما لبث أن غرق في الصمت والحزن. وحين أوفد السلطان عمه دحيم لتقديم العزاء في عين فضة، فقد رافقه فنر دون استئذان، لقناعته أنه يقوم بعمل واجب الأداء، ولا يحتمل التردد أو التأجيل.

ولأن تلك الزيارة لعين فضة تأتي بعد بضع سنين من مغادرته لها، وضمن هذه الظروف، فقد جدد عمير احزانه، وبعث من يبلّغ «أن الأمير فنر جاء لكي يتقبل العزاء ويستقبل المعزين» مما جعل فنر يمدد إقامته مرة بعد أخرى، وكأن الحنين الى هذا المكان عاوده من جديد، أو على الأقل لكي يستقبل الذين جاءوا من أجل تقديم العزاء.

عمير اعتبرها مناسبة ليعلن نفسه رأساً للعائلة، ولكي يعلن معارضته، أو على الأقل رأيه، في كل ما يجري، وكان نصيب «الصاحب» من الأخبار والملاحظات، وحتى السخرية وافراً! وقد وجد من نقل للسلطان ما يدور في

عين فضة، وما يقوله عمير بالذات، وأضاف واحد من الأقرباء الذين شهدوا لقاء ضم وجوه المنطقة وما حولها، أن ثلاثة من معارضي خريبط حضروا هذا اللقاء أو أرسلوا من ينوب عنهم. لما سمع السلطان تلك الأخبار التفت الى عمه دحيم وقال له:

- لما راح عمير لعين فضة قلنا استرحنا. ولما جاء ولدنا فنر لهنا قلنا خلصنا. لكن اللي به عادة ابد ما يتركها يـا عم. وهالحين يلزم نفتّح عيونـا زين، لأن عمير يريد يشيخ، وناوي على شر، ويلزم فنر يرجع اليوم قبل باكر، لأنه أبد ما يتأمن للذيب أن يسرح مع الغنم!

حين يتذكر فنر زيارته الثانية لبريطانيا، ويستعيد وقائعها، يشعر انها وحدها التي غيرته، وكانت ضرورية الى أقصى حد. فالملاحظة التي سمعها من أبيه عن الأحاديث التي دارت في عين فضة، كانت أقرب الى العتاب، وجعلته يشعر بتأنيب الضمير، إذ قال له أبوه، وهو يبتسم بحزن:

- أنت، يا فنر، أملنا بعد الله، ونريدك سيفنا اللي نحارب به، وظني أنك ابد ما ترضى تكون بمكان او مع ناس يقولون علينا فلاني وتركاني.

وتغيرت لهجة السلطان، صارت أبوية تماماً:

- وخالك، يا وليدي، متوهم وراعي تمني، يظن إذا صارت القسمة انك أنت من نصيبه، وكأن ما يعرف أن فنر ابن أبوه، وأن الدم أبد ما يصير ماي. وهذي الأحلام يلزم يشيلها من راسه خالك، يا وليدي، وإلا صار مثل اللي يزرع طاية!

ولم يترك السلطان الندم يستبد بفنر، خاصة في هذا الظرف، ولذلك فان اقتراح هاملتون جاء في الوقت المناسب. فأن يسافر فنر لفترة طويلة في هذه الرحلة، لا بد أن ينسى، وخلال غيابه يمكن أن ترتب الأمور من جديد. قال له أبوه بمودة:

- الصاحب، يا وليدي، طلب وترجى، أن تروح وياه بالسفر، قلنا له: على خيرة الله. شنهو قولك انت؟

وخلال بضعة أيام بدأت الرحلة.

الزيارة السابقة كانت ثقيلة، اقرب الى الواجب. يتذكر فنر ذلك بوضوح، أما الآن، وبعد الأحاديث التي سمعها من هاملتون، فقد أصبح مستعداً. وزادت رغبته حين سمع تلك الأخبار، والتي راجت همساً، عن أسر خزعل. قيل ان العملية دبرها خزعل بنفسه، وقد أثارت من السخرية قدراً يفوق ما أثارته من استغراب، مما حمل السلطان على الغضب والتهديد بأوخم النتائج بسبب هذه الخدعة التي انطلت عليه. ونقل عن عدد محدود من نساء القصر أن الشيخة أخذت في هذه الفترة تتحدث عن فنر بكثير من الحمية والاهتمام، الأمر الذي فسر أنها تريده سلطاناً بعد أبيه. وقد أكدت موضي أنها سمعت ذلك من تهاني، وأضافت أن الشيخة حين سألها بعض النسوة، ممازحات، ردت وهي تبتسم: «كل شي بوقته زين».

العم دحيم لما علم بنية فنر على السفر قال له وهو يربت على كتفه:

ـ الخير فيما اختاره الله...

وبعد قليل، وقد تغير صوته:

ـ وبأيامنا، يا وليدي، وكنا بعمركم، أكلنا قلوب أهلنا الى أن سمحوا لنا نسافر، والسفر ذيك الأيام شلعان قلب، ما هو مثل هذه الأيام...

هز رأسه عدة مرات، ثم التفت الى اكثر من جهة ليتأكد ان لا أحد يسمعه سوى فنر:

ـ والأحسن أن تغيب عن الوجه كم شهر بعد سوالف عين فضة!

في اليوم الثالث لوصوله الى لندن تخلى فنر عن ملابس البادية، بناء لطلب هاملتون، وكان سعيداً أن يفعل ذلك، لكي لا يبدو بنظر الآخرين مجرد لعبة لا يملون من النظر اليها والابتسام. وشعر بحرية أكبر حين اقترح هاملتون أن يقضوا أطول فترة ممكنة في الريف: «الريف الانكليزي هادىء وجميل. هناك لا أحد يزعجنا، والناس، بعد بضعة أيام، يألفون الزائر ويصبح مثلهم أو واحداً منهم. عكس لندن التي تسلّي نفسها وتتغلب على ضجرها بالنظر الى

الوجوه، خاصة وجوه الأجانب، وتبتسم بسخرية». فهم فنر جزءاً مما قاله هاملتون، أو بالأحرى فهمه بطريقته الخاصة. فتلك الضجة التي كانت تحيط به في كل خطوة يخطوها، في الشارع، في المطعم، في بهو الفندق، كانت تسبب له الخوف، أو على الأقل الحرج، فهو لم يتعود على مثل هذه الأجواء، ويبدو انه لن يتعود عليها أبداً.

لم يقتصر هاملتون على ذلك، قال له وهو يبتسم:

ـ ويجب أن تتعلم الانكليزية. إذا تعلمت الانكليزية سوف تتفوق على جميع اخوتك، وسوف تفاجىء السلطان وتفرحه الى أقصى حد، خاصة إذا توليت الترجمة بينه وبين زواره الأجانب!

وفنر الذي فتح عينيه بفضول ودهشة، رد بخجل:

ـ اللغة الانكليزية صعبة، ولا يمكن أن يتعلمها الواحد إلا في المدرسة.

قهقه هاملتون وهز رأسه عدة مرات، وبعد أن هدأ قال:

ـ كل شيء يبدو صعباً في البداية. تذكر زيارتك السابقة الى لندن، كنت خائفاً، وكنت تسألني كل يوم عدة مرات متى نعود الى موران. الآن اراك في وضع أفضل، خاصة بعد أن لبست الملابس الأوروبية.

التمعت عينا فنر، وهز رأسه موافقاً. تابع هاملتون:

ـ واللغة الانكليزية تبدو صعبة في المرحلة الأولى، لكن حين تخصص لها بضع ساعات كل يوم سوف تجدها أسهل مما تتصور.

ـ بدون مدرسة؟

ـ سوف ننشىء أنا وأنت مدرسة خاصة بنا...

ـ ضحك، نظر الى فنر، ثم تابع:

ـ مدرسة ليس فيها سوى طالب واحد، وعدد محدود من المعلمين. وهؤلاء المعلمون يمكن أن يكونوا رجالاً مسنين، أو أفراد عائلة، أو...

وشرح هاملتون، بكثير من الإغراء، سهولة تعلم اللغة وضرورتها، وان ذلك سيكون في الريف، ومن خلال الاحتكاك والعيش مع عائلة، وأنه سيتولى

الامر بنفسه، ولذلك لن تكون هناك صعوبات من أي نوع، خصوصاً وأن الحاجة اليومية تتطلب أن يبذل جهداً لكي يتفاهم مع الناس اعتماداً على نفسه بشكل مباشر.

يتذكر فنر أن السببين اللذين جعلاه يوافق: رغبته أن يتفوق على أخوته، وبالتحديد على خزعل، وأن يفاجىء أباه.

فترة طويلة ومضنية مرت على فنر. وقد تخلل تلك الفترة الارتباك، والرغبة في العودة، والتوقف عن « الدراسة »، إضافة الى المرض. لكن الطرفين أصرا، والجهد الاستثنائي الذي بذله هاملتون، واستقرارهما خلال الشهرين الأخيرين وحدهما، بعد أن سافرت دورثي والطفل الى ولز، وسافر المرافقون والحرس الى موران، بناء لاقتراح هاملتون وموافقة فنر والسلطان. كما أن اختيار مكان أقل رطوبة من الأمكنة الأخرى، كل ذلك جعل الأمور تسير سيراً أفضل. أصبح فنر قادراً على أن يتكلم مع الآخرين، وأن يعبر عن بعض ما يدور في ذهنه. صحيح أن الجمل التي كان يستعملها بسيطة جداً وقصيرة للغاية، لكنها كافية لكي ينقل ما يريد قوله.

ومما ساعد كثيراً في الوصول الى هذه النتيجة المس ماركو، عمة هاملتون، فعندها كانت المحطة الأخيرة من الرحلة، وأطولها. كانت المس ماركو أروع النساء، والاقامة عندها ومعها أجمل وامتع أيام الرحلة، لأن هذه الكهلة لم تكن تجيد الطعام الشرقي فقط، وإنما تعرف أيضاً كيف تتحدث، وكيف تحمل الآخرين على الحديث، خاصة وأن فنر كان يبقى معها أياماً طويلة متواصلة، أثناء غياب هاملتون، من أجل ملاحقة بعض الأمور الهامة المتعلقة بالسفر والعمل، كما كان يقول موضحاً ومعتذراً، لكي يقضي أياماً عديدة في لندن.

كانت المس ماركو بالنسبة لفنر خليطاً من المعلمة والأم والصديقة. والأيام التي قضاها معها في اكسفورد ظل يتذكرها، ولا يمل من استعادتها، حتى بعد مرور سنين طويلة. أما غياب هاملتون، والذي تكرر عدة مرات خلال هذين الشهرين، فلم يكن يسبب له ازعاجاً، أو فراغاً. كانت المس ماركو تعرف

كيف تنظم برنامجاً حافلاً لكل يوم، حتى الأيام الماطرة، وتلك الأيام الأخيرة، حين بدأ يسقط الثلج، كانت تجد ما يفعلانه بكثير من المتعة والرغبة!

والمس ماركو التي قضت عشرين سنة في سيلان كممرضة أولاً، ثم كرئيسة ممرضات، والتي تنقلت في تلك البلاد من مكان لآخر، وعرفت دقائق وتفاصيل حياة الناس وطبيعة الأرض، اكتسبت خبرات ومعلومات لم تتح للكثيرات غيرها، وقد سجلت كل ذلك في كتابين، وكانت فخورة جداً بهذا الإنجاز، لأن الكتابين يمثلان خلاصة تجربة ومعلومات وفيرة.

بعد أن تركت سيلان مختارة، ذهبت الى جنوب افريقيا، وقضت هناك سبع سنين، وكانت حصيلة تلك السنين كتاباً ثالثاً. صحيح أن الكتاب الأخير أقل أهمية من حيث المعلومات، لكنه اكثر نضجاً بالنسبة لتجربة الانسان، هكذا كانت تشير باعتزاز. أما الصفحات التي قرأتها لفنر فقد اختارتها بكثير من الحرص. كانت تضطر أثناء القراءة لأن تتوقف، لتشرح، لتعلق، لتشير الى ما وراء المعاني المباشرة، وفنر الذي كان يستمع بانتباه لم يكن قادراً على ادراك المعاني الكبيرة التي تلفت النظر اليها وتريد ايصالها، ولم تمل أبداً من إعادة القراءة والشرح. كانت تنزع نظاراتها، وتضعها في طرف الفم، وتبدأ. وكثيراً ما لجأت الى الوقوف، الى التمثيل، الى تحريك يديها وتحريك قطع الأثاث أيضاً!

قبل نهاية الرحلة بأسبوع، وأثناء غياب هاملتون، حرصت المس ماركو أن تهدي كتبها لفنر. فعلت ذلك بكثير من الجلال والاهتمام، ولم تنس أن تشير الى فلسفتها في الكتابة، إذ ذكرت أن الكتابة إذا لم تكن من القلب، وانما هي نتيجة القراءة وحدها، أو التأمل وحده، فعندئذٍ لا تكتسب أية اهمية ولا تشكل إضافة حقيقية، وأن هذه الكتابة اذا لم تكتب اليوم فيمكن أن تكتب في وقت آخر، أما التجربة، أما حياة الإنسان، أي انسان، فإنها لا تتكرر، رغم ملايين البشر، وهي وحدها الجديرة بالتسجيل، لكي ندرك بعمق ودقة من خلالها معنى الحياة.

كان فنر مفتوناً بكل ما يراه وما يسمعه، فلاول مرة في حياته يكون قريباً من

امرأة بهذا المقدار. جدته، رغم حبها وحنانها، كانت كتلة من السواد والاختلاط، وبعض الأحيان من الغياب. فالملابس السوداء الفضفاضة، وذلك الانشغال بالذين حولها، ثم تلك الليالي المليئة بالصمت أو بأصوات الرياح، كانت تجعلها موجودة وغير موجودة في آن واحد. حتى في ليالي السهر او ليالي الفرح، حين يتحدث الانسان مع الآخرين أو يغنّي، أو حين يستمع الى أحاديثهم واغانيهم، كانت تشغلها أصوات الأطفال وامراضهم، وكانت تشغلها طلبات الشيوخ أو نظراتهم، فإن لم تنشغل بهؤلاء فالقطط والكلاب والحيوانات الأخرى لا بد أن تسترعي اهتمامها. ولا يتذكر فنر جدته إلا وهي راكضة، وكثيراً ما كانت تنام وهي جالسة قرب الموقد، وتتظاهر أنها تتابع الأحاديث التي تدور!

المس ماركو امرأة من نوع آخر، إذ رغم تقدمها في السن، كانت تبدو مثل طائر ملون. صحيح أنه لم يجرؤ على النظر اليها طويلاً، أو التدقيق بملابسها وزينتها، لكن كانت تملأ جو الغرفة بوجودها ورائحتها، وتجعل من يجلس في مواجهتها يحس بكثافة هذا الوجود وطغيانه، ويشعر أكثر من ذلك أنها له وحده. أما اذا تحدثت فإنها تستحضر الأشياء وتعطيها ملمساً خشناً، حتى لتبدو في كثير من الأحيان وكأنها تنبثق من جديد. تتكلم بهدوء، تنظر إلى العينين مباشرة، تحرك يديها بطريقة من يصنع شيئاً؛ وحين تبدأ باستعادة ذكرياتها فإنها تفعل ذلك بلذة، وكأنها تعيشها مرة أخرى.

كانت تفوت فنر، في حالات كثيرة، كلمات ترد في أحاديث المس ماركو، لكن يقدّر معناها من الاشارات، من الانفعال الذي يملؤها، وكان مستعداً لأن يكتفي بذلك، لكن المس ماركو امرأة حازمة ودقيقة، ليس بالنسبة لنفسها فقط، وإنما بالنسبة للآخرين، وبنفس القدر، إذا أحست أن بعض الكلمات فاتت من يستمع اليها فلا بد أن تتوقف، أن تسأل، أن تشرح، وكانت تلك ايضاً طريقتها في التعليم.

قال هاملتون لسمو الأمير، بعد عدة سنين، وهما يستعيدان ذكريات تلك الرحلة:

- المرأة التي أثّرت في حياتي كانت عمتي ماركو. أثرت فيّ اكثر من أمي ومن جميع معلماتي. لأن امي كانت تعتبر أن إقامتنا في ذلك المكان النائي عقوبة حكمت بها علينا الامبراطورية، وكانت تحسب الأيام والشهور بنفاد صبر لكي تنتهي العقوبة ونعود الى الحرية، كما تقول، أي نرجع الى بريطانيا. عمتي ماركو كانت نمطاً آخر: جاءت الى سيلان بمحض إرادتها ورغبتها، وكانت تجد متعة في أن تكون هناك. أكثر من ذلك كانت تواقة لأن تعرف كل شيء، ولم تتردد في أن تتعلم عدة لغات محلية. واليها الفضل في أن أتوجه الى اللغات الشرقية. كانت تقول باستمرار، وربما لنفسها بالدرجة الأولى، وتحب أن يسمع الآخرون: «يجب ألا نخدع بما نراه على السطح، فالشرق أعمق مما يبدو، وأخطر مما يفترض الكثيرون، لأن ما يحتمل فيه من التاريخ والتقاليد والأساطير بمقدار ما يعيقه ويثقل عليه، فإنه يمده أيضاً بطاقة على المقاومة والاستمرار... وربما التجدد. وبداية فهم الشرق أن نعيش فيه، أن لا نتعامل معه برفض أو كراهية، وأن نتعلم لغاته، لكي نفهم كيف يفكر وكيف يعبر. فاللغة أساس فهم الآخر، وبداية حوار حقيقي.»

يصمت هاملتون قليلاً، نتيجة الأفكار التي انبعثت فجأة وعبقت في ذاكرته، لكنه لا يريد ان ينساق معها، يتابع بنفس النبرة:

- ولأنها عاشت خارج بريطانيا سنين طويلة، واحتكت بأعداد كبيرة من الأجانب، فقد أصبحت أحسن معلم للغة. تعرف كيف تعلّم، وأي شيء أسهَل لأن تبدأ به.

ابتسم فنر وكأنه أكتشف أنه كان ضحية مؤامرة بين هاملتون وعمته، سأل مداعباً:

- ألهذا السبب اخترتها لي لكي تعلمني اللغة؟

- اخترتها بشكل خاص لأنها تعرف كيف تتعامل مع شعوب اخرى، ولأنها تعرف ما ينبغي للملوك أن يتعلموه قبل غيره.

قهقه فنر طرباً، وبعد أن هدأ نظر في عيني هاملتون بإمعان. وهو لا يفعل

ذلك إلا نادراً. وهاملتون إذا كان يخاف أحداً أو من شيء، فتلك النظرات المكتشفة الكاسحة، التي تنفجر، كما يقول لنفسه، فجأة، من تلك الوجوه المغبرة القاسية، وجوه البدو. انها نظرات ليس هدفها الرؤية، وإنما تقشير الشخص المقابل، وتمزيق أي رداء يرتديه، وبهدف أن تمنعه كلية من أية امكانية للكذب. سحب هاملتون عينيه بعيداً وعاود الحديث:

- والعمة ماركو تعرف ما ينبغي للأجنبي أن يتعلمه من اللغة الانكليزية، ولذلك تجعل هذه اللغة مرنة، حية، وملبية لحاجات حقيقية. أي بكلمة اخرى: لغة محبوبة. انها تعتبر أن حب أي شعب يتطلب، بالدرجة الأولى، حب لغته، تماماً كما أحبت هي لغات الشرق، وكما جعلتني احبها أيضاً، وكما تريدك أن تحب اللغة الانكليزية... وهذا هو الأساس الحقيقي لتعلم اللغة.

وفنر الذي يشعر بالاعتزاز والتفوق ازاء اخوته، لأنه سافر وتعرف على العالم، ولأنه تعلم اللغة الانكليزية، إلا أنه ظل حتى النهاية خجولاً أو نفوراً من استعمالها. وحين يستعملها مضطراً فإن الكلمات البسيطة والعبارات القصيرة تشكل عماد هذه اللغة. أكثر من ذلك يتجنب استعمالها قدر ما يستطيع أثناء وجوده في موران، نتيجة ما سمعه من تعريض، حتى من خاله عمير، والذي كان يردد مع المسنين: «إذا كانت العربية لغة أهل الجنة، فإن الانكريزية لغة أهل النار» وقد تجنب عمير سؤاله ما إذا تعلم اللغة الانكليزية أم لا، لئلا يتغير موقفه منه، ولكي لا يشعر بخيبة أمل فيما لو عرف أنه يعرفها!

لم يكتفِ فنر بتجنب استعمال اللغة الانكليزية، كان يريد أن يتفوق على الآخرين بلهجة البداوة ذاتها، خاصة وأن خزعل لا يخفي اعتزازه بأنه يتقن هذه اللهجة أفضل من أي بدوي! وإذا كانت احدى الهوايات المحببة للسلطان أن يقيم المباريات في شعر البادية وأمثالها، وكان يروق له أن تجري تلك المباريات بحضور أولاده وبمشاركتهم، وكان خزعل لا يخفي براعته، فإن ما لدى فنر من رصيد اختزنه في عين فضة، من لياليها الطويلة، ومن أحاديثها التي لا تنتهي، ثم ما جهد لأن يتعلمه في وقت لاحق، لفتا نظر الكثيرين.

قال العم دحيم ذات ليلة للسلطان:

- ... وظني، يا أبو منصور، أن البني آدم إذا ما تعلم وهو صغيّر ما يتعلم إذا كبر.

لم يعترض السلطان، لكن فضّل الصمت، ليفسح لعمه توضيح ما يريد قوله. تابع العم:

- وإذا ما رضعه مع حليب الأم ينفطم عنه وعن الحليب جميع!

- وأكثر من هذا يا طويل العمر؟

- ذيك الليلة، وحنا نسمع كلام فنر عن أمثال عين فضة، ترى قال كلام يعجب، كلام زين، والولد فطن وذهين!

ضحك السلطان بنشوة، ولم يعلق، تابع العم:

- وعيشته مع البدوان فادته واجد، يا أبو منصور، تعلم منهم العلوم الزينة!

أما هاملتون الذي كان يحضر هذه المباريات، وكان بعض الأحيان يستعين بمن يشرح له معنى أو مغزى كلمات معينة، وكان دوره الصمت والمراقبة، فقد قال لفنر في احدى الليالي، وهما في اكسفورد:

- ... ومن الأفضل أن لا يظهر الانسان كل ما يعرفه، خاصة أمام المنافسين، بل أكثر من ذلك يجب أن يترك لهم بعض الأشياء التي تميزهم، أو التي يفاخرون بها، لأن تركها لا يشكل خسارة بالنسبة له، وربما يشكل بالنسبة لهم وَهْمَ الربح، وفي اللحظة المناسبة، عندما تبدأ اللعبة الحقيقية نكتشف الرابح والخاسر دون خطأ!

وفنر الذي تعود الصمت والإصغاء بعلاقته مع هاملتون، كما تعود مع كبار العائلة، خاصة أبيه، لم يعلق. أما هاملتون فكان متأكداً أنه يكلم نفسه، حتى تلك اللحظة، أكثر مما يكلم فنر. تنحنح وخرج صوته مصقولاً:

- أن يعرف خزعل شعر البادية وأمثالها أحسن منك لا يعني شيئاً مهماً، هناك أمور أكثر أهمية، وهذا ما يجب أن تعرفه جيداً!

صمت فنر، لكن عرف، أو بالأحرى أحس، معنى كلمات هاملتون. لأول مرة، بوجود شخص آخر، يحس بالخوف وبشيء من الخطر. وإذا كان قد تعلم شيئاً مهماً في عين فضة، فالكتمان. قالت له جدته ذات ليلة، وقد سمعت كلاماً لم يرضها. قالت وهي تزفر مثل جريح عطشان:

- . . . وأخذ حليمة، امك، الله يرحمها، حتى يلقم جماعتنا حجر، حتى يقول للقريب والبعيد: وهذول اخذنا منهم وصاروا رجالنا، ويلزم يسكتون. لكن أملنا فيك ، يا وليدي، ويمكن على يد الله وعلى يدك تتعدل الأمور.

صمتت قليلاً ثم خفضت صوتها وكأنها تتآمر:

- هذا الكلام بينّا، يا وليدي؛ حجر ببير، لا أحد شاف ولا أحد سمع، وإذا عرفوا ذبحونا جميع!

بلمح البصر تذكر فنر كلام جدته، وقارن بما يسمعه من هاملتون الآن. بدا له العالم مجموعة كبيرة من الصخور تتلاطم، لكن بصوت مكتوم، ولابد أن تحطم صخرة باقي الصخور، أو مجموعة كبيرة من السكاكين الهائلة تنغرز في اللحوم، دون صوت وفي الظلمة، ولا بد أن تقضي سكين على باقي السكاكين.

وجاء صوت هاملتون، من جديد، حاداً واضحاً:

- وأنت تعرف شيئاً مهماً، لا ادري أين تعلمته، لكن يجب أن تحافظ عليه: الصمت.

- تنفس بعمق، وبعد قليل تابع، وكأنه يحدث نفسه:

- الصمت سلاح الأقوياء أكثر مما هو سلاح الضعفاء أو الجبناء، لا تنس ذلك!

في لحظات معينة، وبعض الأحيان بشكل مفاجىء، وخلال زمن أسرع من البرق، يتعلم الانسان ويكتشف ويرى ما لا يتاح له عبر أزمان طويلة. فجأة يتبين ويتأكد أنه كان نائماً أو ساهياً، أو ربما كان طيباً الى درجة الغفلة. الآن، من الكلمات القليلة، غير المباشرة، وحتى الغامضة، أحس فنر أنه موضوع الرهان، واستبدت في ذهنه صورة جدته، قال لنفسه بحزن: «إذا نويت لا

تعلّم بطاريك. . . والا رحت طعام للنسور، والأيام بينا».

وإذا كانت معركة وادي الفيض، ثم معركة الحويزة، قد غيرتا الكثير في موران، فإن عودة هاملتون وفنر، بعد هذه الرحلة الطويلة، وما رافقها من حفاوة السلطان واهتمامه، جعلت الأمور تأخذ مسارات لم تكن بالبال.

وخلال شهور الرحلة انتظرت موضي كثيراً، وبكت كثيراً، وكان لديها الكثير لتقوله لفنر بعد عودته، لكن حين رأته يعود، اختلطت دموعها بضحكتها، ولم تستطع أن تتكلم. نظرت اليه طويلاً، ثم هجمت عليه، ولم تجد إلا قبضتها وسيلة وحيدة للتعبير، إذ جمعتها وضربت كتف فنر، ضربته بقوة. فلما ضحك بصخب قالت قطمة بعتاب:

- عوّرتيه يا بنت الحلال. . ضربتيه على كتفه ذاك!

فتحت موضي عينيها بخوف، إذ تذكرت جرحه القديم. سألت بتوسل:

- صحيح تعورت؟

رد بضحكة قوية، أقوى من الضحكة الأولى. قالت قطمة:

- وأنت يا سيدي. . ما لك حق، طولت أكثر من اللازم!

قالت له موضي من بين دموعها الصغيرة:

- بعد اليوم ما راح تسافر!

قالت تهاني التي وصلت في تلك اللحظة لتسأل عن الهدية قبل أي شيء آخر:

- اللي يطوّل الغيبات يرجع بالغنايم.

وبعد قليل:

- وهالحين حنا فكينا شليلنا ويلزم ترمي به شي. . حتى لو حجر!

وانصرفت موضي وقطمة الى فتح الحقائب وترتيب الثياب، واستخراج الهدايا، وبدأت تهاني تقصّ على فنر ما حدث في غيابه:

ـ . . . وبسفرتك، يا طويل العمر، جاك ثلاثة أخوة، وخمس خوات. وبعد ما أبوك عرّس على شما أخذ بنت ملاهد. وابوك تلاسن مع خالك عمير. والشيخة تطريك دايماً بالخير. واخوك خزعل عرّس نوبة ثانية. وفضة حامل وموّلدة بين يوم والثاني، ووطفة. . .

صرخت موضي من الغرفة المجاورة.

ـ يا معوّدة. . يرحم والديك، يا تهاني، يكفي، دوختي راسه!

ظلت شخصية عويّد المشعان محيرة، وتثير عواطف متناقضة في عقول وقلوب الذين يعرفونه أو يسمعون به. فهذا الرجل الذي يشبه الظل بملامحه وحجمه، والذي يختبىء في عباءته كما تختبىء قطرة الماء في الغيمة، ولا يكاد يلتفت إليه من لا يعرفه، هو ذاته الذي تخيف باسمه الأمهات أولادهن لحملهم على النوم أو الصمت، أما في مجالس الرجال فقلما تخلو ليلة من حديث أو خبر يحكى عن غزواته وشجاعته وقسوته أيضاً، الى جانب الأحاديث التي تتطرق الى عدله وعزوفه عن الغنائم، بحيث يوزعها على رجاله، ولا يمدّ يده الى قشة منها. أما عن إقدامه وذكائه فإن الوقائع تختلط بالخيال أو الوهم، إذ كثيراً ما ينسب إليه ما وقع لغيره، ويتبارى الرجال في رواية أدق التفاصيل عن حياته، لإظهار معرفتهم الكاملة بكل شأن من شؤونه. حتى الذين لم يكونوا من جنده، أو لم يروه في حياتهم، فإنهم لا يترددون في الحديث عنه بثقة تصل درجة المبالغة.

ليس ذلك وحده مبعث الحيرة والتناقض في شخصية عويّد المشعان، فإن تواضعه، وانعدام الفروق بينه وبين من هم في امرته، في الملبس والمأكل، ثم ذلك الحرص الذي يبديه نحو كل رجل من رجاله، يجعله مختلفاً عن شيوخ العشائر الآخرين، وعن امراء الجند، ويجعله مختلفاً بشكل خاص عن رجال خريبط المقربين.

يتعامل معه السلطان بطريقة مختلفة عن تعامله مع الآخرين، إذ بمقدار الاعجاب الذي لا يخفيه نحوه، ولا يتردد في أن يبديه علناً، فإنه شديد الحذر

منه، خاصة وأن إحدى الصفات التي لم يتخل عنها عويّد هي الصمت. فوراء صمته كان يختبىء، ولذلك لا يعرف أصدقاؤه وأعداؤه كيف يفكر، أو ماذا سيفعل. المرات القليلة التي تحدث خلالها عما يجب أن يفعل في حملة وادي الفيض، أو في معركة الحويزة، أو غيرهما، اقتصر حديثه على افكار واقتراحات قالها بأقل الكلمات.

بعد معركة الحويزة بسنة وبضعة شهور، جرى الحديث بين السلطان وهاملتون لأول مرة عن عويد المشعان. إذ لم يسبق لهما من قبل أن تحدثا عنه حديثاً دقيقاً أو بطريقة واضحة وكاملة. صحيح أن ذكره كان يرد كثيراً، خاصة أثناء التحضير لحملة من الحملات، لكن ما دام غائباً في البقعا، فإن الحديث عنه يرد بشكل غير مباشر، ويغيب بسرعة، ربما لأن الحيرة التي تميز شكله وشخصه تجعل الموقف منه ملتبساً، ومؤجلاً أيضاً.

ورغم الفترات التي قضاها مع السلطان، والرسل بينهما إذا كانا بعيدين، فإن ما كان يحس به السلطان، وما يرشح اليه من أخبار وأحاديث، ثم ما ينقله الرسل، يجعله في حالة من التوجس أقرب الى الشك أو الخوف.

إذا جاء عويد الى موران، وكانت له في السنة زيارة أو اثنتان، تتبدد الشكوك، ويسيطر جو من المودة، لأن ما يلقاه من الاهتمام والحفاوة يفوق ما يلقاه غيره من الشيوخ وقادة الجند. لقد كان جزء من الاهتمام الذي يوليه له السلطان، بالإضافة الى ضخامة ما يحشده من القوات، نوعية رجال عويد المشعان، فهم يختلفون عن الآخرين، لأنهم يعرفون من أجل أية قضية يقاتلون. هكذا كانوا يقولون، وهكذا كان يردد عويد. كان يقول، ويخرج صوته مرتجفاً من الانفعال:

ـ نحارب في سبيل الله. ومن أجل إعلاء كلمة الحق...

ويقول لرجاله بثقة:

ـ أنتم مثل المسلمين الأوائل تحاربون من أجل أن ينتصر الإسلام، لا من أجل

ارض ومغنم، ولا من أجل إرضاء فلان أو فلان، فإذا انتصرتم سدتم في الأرض، ومن يُقتل منكم فمثواه الجنة.

ولأن الحرب كانت من أجل هذا الهدف، فإن لرجال عويد قدرة غير محدودة على الاستمرار والصبر والتحمل بنظر الجميع.

في فترة مبكرة حاول السلطان أن يسمي إلى جانب عويد عدداً من المساعدين يختارهم بنفسه، لكن المحاولة فشلت لأن الجند لم يطيعوا هؤلاء، مما اضطر السلطان أن يترك له اختيار معاونيه. أما الذين حاولوا منافسته، وأن يرفعوا قاماتهم الى مستوى قامته، بدافع الطموح أو بدفع من السلطان، فقد انتهى بهم الأمر الى التسليم الكامل له، وقد أدى ذلك الى أن يكف السلطان عن التدخل بشؤونه.

أما هاملتون الذي تعذر عليه أن يقيم صلة مع عويد، ورغم محاولاته التي تنوعت،ولم تتوقف، إذ كان يصطدم بذلك الطبع البدوي الذي يتسم بالحذر، ويتحصن دائماً بالصمت أو التهذيب الزائد، وبعض الأحيان بادعاء عدم المعرفة، فإنه لم يسلم، ولم يتخذ مواقف العداء أو التجاهل. أكثر من ذلك فإن اتفاقاً ضمنياً قام بين الرجلين: أن يتجنب الواحد منهما الآخر، ولذلك كان عويد بنظر هاملتون ضرورياً وهاماً، ولا يمكن الاستغناء عنه، أياً كان الموقف منه.

عويد كان له رأي مختلف، فهو لا يخاف هاملتون، لأن هذا الأخير مكشوف، لكنه كان يخاف من تأثيره على السلطان. قال، مرة، لعدد من رجاله المقربين:

ـ احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة. السالفة ما هي سالفة هذا الإنكريزي، هذا مصلّع ومكشوف، لكن الخوف من اللي يلبسون عمايم.

قال السلطان في احدى الليالي لعمه دحيم وهاملتون، دون أن يسألاه، وكان عويد المشعان قد غادر موران ذلك اليوم، وقد رافقه السلطان حتى وادي

الرها، بحجة أنه يريد مشاهدة الخيول الجديدة التي وصلت تواً. قال لهما السلطان، وكأنه يحدث نفسه:

- ابن مشعان يلزمه ما يروح الا راضي، لأنه يمون على مغرّب كله.

وحين بدا أن كلامه غير مفهوم بالمقدار الكافي، أوضح:

- ولو أراد يكون مع غيرنا لكان حالنا هالحين بين صفاقين، لكن الرجال دينه قوي، وحنا، والشهادة لله، ما قصرنا معه.

قال دحيم:

- يا أبو منصور: عويد دينه أقوى من الصفا، فإذا كان معنا حنا بألف خير ومنصورين.

تنفس بعمق، وبعد قليل أضاف:

- بس يلزمك تعرف: عويد أعند من التيس، وهذا العناد يفيد ويضر، يا أبو منصور، فاحرص وتوقّ.

هاملتون كان بحاجة الى مزيد من المعلومات والتقدير، قال ليحرضهما:

- عويد المشعان رجل متعب وكثير الشكوك

قال السلطان بألم:

- يا الصاحب، عويد مثل الحريمة والولد الصغير، ما يرضى إلا إذا كان كل شيء على كيفه، ويلزم أن الواحد يرضيه... ويلزم أن يتوقى منه.

وفي تلك الليلة اتفق الثلاثة أن عويد ضروري لهذه المرحلة، ويجب أن يكون موجوداً وقوياً، وأن يعطى ما يريد، لكن يجب الحذر منه ومراقبته، أو كما قال هاملتون: العدو العاقل خير من الصديق الجاهل.

عويد وهو يعود الى البقعا، وكانت معه خمسة رؤوس من الخيل التي وصلت الى السلطان، وقد اختارها له السلطان بنفسه، وكان يغريه ويلح عليه بقبولها،

أو أن يأخذ غيرها، إذا كانت تروقه، وهو يحاول الاعتذار ويحاول الاختصار، رغم الهدايا والحفاوة التي قوبل بها في موران، كانت تؤرقه طبيعة العلاقة بين السلطان وهاملتون، وكان يخاف من نتائجها. وتذكر قبل سنين، حين رأى هاملتون أول مرة. قال له السلطان:

- يا أبو محجم.. الرجال جانا بنيّة صافية وعاونّا بالماء. هو اللي قال: احفروا هنا وتلقون الماء، ومثل ما شار علينا، حفرنا ولقينا، وظني أنه ابن حلال ويريد لنا الخير.

هز عويد رأسه، لكنه لم يقتنع.

العم دحيم تربطه بعويد علاقات مودة قديمة، ويستطيع أن يتحدث معه بطريقة تختلف عن السلطان، ولذلك تولى إقناعه بأن الصاحب جاء الى موران ليس من أجل الماء فقط، وإنما لكي يساعد الناس بالطب، إذ حمل معه كميات كبيرة من الأدوية، ويريد أن يدخل دين الإسلام، لأن الله هداه. وختم دحيم حديثه بأن قال:

- ولا بد نساعده يا عويد، فإذا انشرح صدره وأعلن إسلامه تجينا، عند الله، حسنة!

ظلت الأمور كذلك فترة طويلة، وفي كل فترة تتوازى الاحتمالات الإيجابية مع الشكوك والمخاوف.

بعد حملة الحويزة أصبحت الأمور أكثر وضوحاً، قال عويد للسلطان، بعد أن انتهت المعركة:

- هالحين، يا أبو منصور، بساطنا أحمدي ويلزم نقول كل شيء.

ضحك السلطان بصوت مجلجل ورد:

- هذا بساطنا، يا أبو محجم، فهات اللي عندك.

ـ هـذا الرجـال، الصاحب، يعجب وما يعجب، يا أبو منصور، تشوفه يركض بـالليل والنهار، من مكان لمكـان، لا يتعب ولا يهدأ، ومـا ندري إذا كـان يشتغل لله أو لأحد غيره.

ـ لا تخف، وكل الله، يا أبو محجم

عاود السلطان الضحك ليداري حرجه، وبعد أن استعـرض في ذاكرتـه ما يمكن أن يفكر به عويد قال بحزم:

ـ مثـل مـا قـال الله في محكم كتابـه، يا ابن مشعـان: إن بعض الـظن إثم. وحنـا يا البـدوان ما نصـدق إلا إذا شفنا بعيونا، ويلزم أقـول لك إني شفت وتأكدت، وأعرفه زين، ويكفي.

تنفس بعمق ثم تابع:

ـ والله وبـالله وتـالله، يـا أبو محجم، إني مـا شفت من هذا الـرجال إلا كـل خير، وما شار علينا إلا بكل شي فادنا.

وبعد قليل، وقد تغير صوته:

ـ وأنـا كنت مثلك يا عـويد. كنت أقـول لروحي: هـذا الـرجـال، شنهـو اللي يريده منا؟ لكن بعد ما شفناه، تأكدنا. وإذا أنت تثق بخويك، أبو منصـور، وتعرف معرفته بالرجال، فلا يكون لك بال.

وطوي الموضوع أيضاً.

هاملتون الذي عاد من رحلته مملوءاً بالأفكار والأحلام، وقد استعاد نشاطه وحيويته، وغادرته تلك الرؤى السوداء، كـان يستعد لنقلة كبيرة: يجب أن يبدأ في موران عصر جديد.

لم يكن، بعد، متأكداً مما يجب عمله، بل وكان أقرب إلى الخوف، خاصة وإن دوي الفشل كان يملأ لندن أثناء إقامته هناك، وكـان الحديث يجري معه متردداً متشككاً، لأن القوى التي تتعامل مع قضيـة الشرق دخلت، فيمـا بينها،

في صراع مكشوف وعنيف، وأصبح كل طـرف من هذه القـوى يلقي مسؤولية الفشل على الأطراف الأخرى، وكل طـرف يشكك بجدوى أية خـطة أو بمدى تحقيقها، مما اضطر هاملتون إلى تمديد إقامته أكثر من مرة في لندن، وإلى دراسة ملفات وخطط عديدة لاختيار الأفضل منها. ورغم الـدراسة والمـوافقات المبـدئية التي حصلت، فـإن التريّث وإعـادة النظر، وتعـديل بعض الخـطط، إضافة الى التشدد بصرف الأمـوال اللازمـة، كان المنـاخ السائـد. ولم يستطع الوصول الى نتائج اعتبرها مرضية إلا خلال الاسبوع الأخير.

قالوا له هناك بوضوح: «هؤلاء البدو لا يعرفون سوى شيء واحد: أن تدفع لهم باستمرار، دون أن يكلفوا أنفسهم تقديم أي مقابل. ليس هـذا كل شيء، إنهم يتشبثـون فقط بما يعتبـرونه لمصلحتهم، ويستنـدون الى كلمات قيلت أو وعـود أعطيت في أوقـات سابقـة واستثنائيـة، ولا يدركـون، كما لا يقـدرون، التغيـرات التي حصلت في هـذا العـالم. إنهم يستخـرجـون من محـافـظهم القماشية أوراقاً مهترئة، لا يفهمون ممـا ورد فيها سـوى بضع كلمـات ترجمهـا لهم بعض البحارة أو الخدم ويهزونها في وجـه الأمبراطـورية، مـطالبين أن تفي بالوعود! لقد أصبح هؤلاء البدو متعبين الى درجة لا تطاق، وجاء بعض رجالنا، ولا يعـرف إلا الشيطان لمـاذا، لكي يملؤوا رؤوسهم بأحـلام ودعاوى فـارغـة، ويجب علينا في النهاية أن نواجـه هذا الكم الهـائل من المشـاكل والمتـاعب، وكأن مشاكل ومتاعب الامبراطورية قليلة أو غير كافية!».

كان هذا جزءاً من حديث طويل سمعه في وزارة الخارجية بلندن.

في الأسبوع الأخير، وبعد إلحاح من هاملتون وصل درجة الإحراج، وافقوا أن يعـود الى مـوران، وأن يـدفعـوا المبـالـغ التي وُعـد بهـا السلطان. وتمّت الموافقة أيضاً على أن يعطى هاملتون فترة ستة شهور، وأقصى حد سنة، من أجل تقديم خطة متكاملة لإصلاح هذا الوضع المتردي، ولمحاولة بناء صيغة تناسب المرحلة الجديدة.

إنه الامتحان قبل الأخير لهاملتون من أجل إشادة مملكته على الأرض. فلندن

تسلّم بفشل الآخرين، ولديها اقتناع أن المتاعب تتطلب عقلاً جديداً لمعالجتها، وأخيراً تطلب منه أن يتحمل المسؤولية كاملة.

في وقت سابق كان مجرد وسيط، يتصل بلندن عن طريق الآخرين، وكانت الدائرة التي يتحرك فيها لا تتجاوز السلطان وحاشيته. الآن تفرد لندن أمامه الخرائط كلها، وتطلب منه أن يتصرف.

من هنا كان مستعداً أن يتعامل مع كل شيء، ومع كل فرد، دون تحريم ودون أفكار مسبقة. يمكن أن يعيد النظر بكل الأفكار والخطط، وأن يلتقي بالمجموعات كلها دون التزام، حتى لو كان مجرد وعد. وتذكر الفترة الأولى التي وصل فيها الى موران. انها الآن تتكرر، لكن هذه المرة لحسابه، وضمن مايراه مناسباً أو ضرورياً. في المرة السابقة، وبعد أن يبعث تقاريره، كان يشغل نفسه بالبحث عن الآثار أو برسم خرائط الحدود، بانتظار أن تصل الإجابة، وغالباً ما تكون الاجابات: عبارات عامة غامضة، أملتها لحظة نزق أو نزوة الخمر في ليلة من ليالي الشرق الحارة.

الآن يستطيع أن يتصرف بطريقة مختلفة، ويثبت للندن أنه يستطيع النجاح حيث فشل الآخرون. لذلك لم يتردد في الموافقة على أن تبقى دورثي في بريطانيا، وأن ينسى كثيراً من قناعاته، أو نزواته كما يسميها، لأنه قرر، كما قال لنفسه: « لقد حكمتُ على نفسي بالنجاح، وبالنجاح وحده ».

الأموال التي حملها معه من لندن لم يعطها للسلطان دفعة وواحدة، أعطاه نصفها واستبقى النصف الآخر، وأكد له أن البقية سوف تأتي تباعاً. والسلطان الذي كان يهمه اليوم الذي يعيش فيه، وما بين يديه من الأموال، لم يعترض. قال له في محاولة تبرير موقفه إزاء تصرف الآخرين الذين وعدوا ولم يفوا:

ـ . . . وظني، يا محروس السلامة، أن الجماعة اللي وصلوا الى هنا ما نقلوا كلامنا زين للجماعة هناك، لأن الجماعة أبد ما ينسون.

وبعد قليل وهو يهز رأسه:

ـ وروحتك كانت ضرورية، وجا من وراها الخير.

كان هدف السلطان، وهو يتكلم بهذه الصيغة، أن يعرف ما إذا كانت لندن قد تخلت عن أصدقائها السابقين، وهل بإمكانه أن يتحرك من جديد. إن هذا ما يشغله أكثر من أي شيء آخر. أما الأموال التي كان ينتظرها فقد وجد مخرجاً بالغنائم التي ربحها من الحملة، إذ ساعدته كثيراً، وحلت له ولجنده مشاكل كان من الصعب أن تحل. يضاف الى ذلك أن أمطار السنة الجديدة كانت وفيرة، وقد خلفت لديه ولدى الآخرين اطمئناناً لم يشعروا بمثله في السنوات السابقة.

قال هاملتون بطريقة لا تخلو من مكر:

ـ الرحلة كانت متعبة، لكنها ضرورية، لأن تجديد العلاقة مع المسؤولين، ومناقشة كافة القضايا، يختلف كثيراً عن كتابة الرسائل وانتظار الإجابات، هذا عدا عن التأخر، وقد تتعرض الى الإهمال أو النسيان.

ـ الحق اللي تقوله، لأن المواجهة، العين بالعين، أحسن من ألف رسالة.

والرسائل تذهب، في الغالب، إلى أشخاص لا يعرفون المنطقة إلا على الأطالس، وهؤلاء مهما كانوا حريصين وجادين فإنهم لا يدركون أهمية القرارات وكيفية اتخاذها، فهم مجرد موظفين يقدمون توصيات على الورق.

تنفس بعمق ثم تابع:

ـ أما الذين لهم علاقة، الذين يعرفون الأشخاص والأماكن والعلاقات، فإنهم وحدهم القادرون على أن يوضحوا، أن يقولوا ما يجب أن يُفعل، وفي الوقت المناسب أيضاً.

لما وجد السلطان أن الصاحب يبتعد حاول أن يعيده:

ـ وانشاء الله الجماعة راضين علينا ؟

ـ بكل تأكيد يا صاحب الجلالة، ولولا ذلك لأخذت الأمور مجرى آخر.

ـ لكنهم ـ ويلزم ما تزعل يا الصاحب ـ هم والجماعة هناك خوش بوش،

ولو شدوا لهم الرسن ما كان الأمر صار بهذا الشكل. كانوا قالوا لهم: هذا يصير يا جماعة وهذا ما يصير.

قال هاملتون لنفسه « هؤلاء البدو لا ينسون أبداً ما يريدون، إنهم يبتعدون، لكن من أجل أن يقفزوا ويقتربوا، تماماً مثل اللاعب فإنه لا يتراجع الى الخلف إلا لكي يعطي لجسده قوة اندفاع ضرورية».

رد وهو يبتسم:

- الجماعة هناك، يا طويل العمر، يكنون لكم تقديراً خاصاً، ويختلف عن الآخرين كثيراً، وسوف تتأكدون بأنفسكم.

وانتهى الموضوع أيضاً عند هذا الحد.

لم تكد أسابيع تنقضي على زيارة عويد المشعان الى موران حتى جاء من قال ان عويد غاضب أشد الغضب، وانه طلب من عمير البقاء عنده في البقعا بعد أن اكتشف أن السلطان استدعى اثنين من أولاد أعمامه، وبحث معهما محاصرة المنطقة.

وكما تتعكر المياه إذا دهمها السيل تعكرت العلاقات وتوترت. والسلطان الذي لم يكن يحفل كثيراً لزيارات عمير لشيوخ آخرين، تحسب وخاف من هذه الزيارة، خاصة بعد أن نقل إليه ما يقوله عمير عن الصاحب.

قال السلطان لعمه، وفنر موجود ويسمع:

- عمير العوض يلعب بدمه يا عم، وأول الرقص حنجلة.
- طولة البال ما مثلها، يا أبو منصور.
- بالنا طويل يا عم، بس أخاف غيرنا يحسبنا خايفين أو عاجزين.
- لا تخف يا أبو منصور، وأنت معروف ومجرب.
- قالوا جماعتنا من قبل وصدقوا: إقرأ سورة ياسين وبيدك حجر.

وهز رأسه بحزن ثم تابع:

- حنا ما نريد من عمير أي شيء، بس يكفينا شره، وإذا النصيحة ما فادته، وإذا الكلام الزين ما فاد، فيلزم يعرف أن آخر الدواء الكي، فإذا سكتنا كل هذي الأيام، ما نقدر بعد اليوم.
- فورة وتنقضي يا أبو منصور.
- لكنها طالت وزادت يا عم.
- اللهم لا توصلنا الى الندم.

قال هاملتون لنفسه: « هؤلاء البدو لا يعرفون سوى شيء واحد: المال. المال يدير رؤوسهم، يجعلهم أطوع وأسرع من الماء على منحدر، ويحولهم الى فم لايعرف غير كلمة واحدة: نعم، فإذا امتلكوا المال أصبحوا كالكلاب على العظام، لا أحد يستطيع أن يقترب منهم، لا يتركونها، ولا يعرفون كيف يتصرفون بها، وأخيراً، بعد أن يقلّبوا الأموال في أيديهم مئات المرات، بعد أن يضعوها تحت الوسائد، وقريباً من الصدور، فإنهم يتركونها تتسرب تماماً كما تتسرب المياه من اليد، لا يفعلون أكثر من شراء بندقية جديدة، أو يتزوجون امرأة ثانية، أو يولمون لمن يعرفونهم ولمن لا يعرفونهم، لكي يأكلوا أكثر مما يطيقون، فقط ليثبتوا لهم أنهم قادرون على أن يفعلوا ذلك. ولذلك فإن الأموال لا تحل مشاكلهم، إنها تفسدهم، تجعلهم أناساً غير نافعين لا للعمل ولا للحرب، وليس لديهم مانع أيضاً من أن يحاربوا من أعطاهم المال، حتى لو كان السلطان، لأنهم يتوهمون أنهم أصبحوا أقوى منه! ».

جر نفساً عميقاً، وقد مرت في ذاكرته صور كثيرة، ثم أضاف: « ومع ذلك لا بد من إرضائهم والاستجابة لمطالبهم، مهما كان رأينا بتصرفاتهم. ».

فنر الذي كان يسمع ويتابع كان يزداد تعباً وحيرة. قالت له موضي إنها مشتاقة لعين فضة، وتتمنى أن يذهبا معاً. رد في محاولة للتهرب:

- آخر مرة، بعين فضه، تعبت، والأحسن أن نؤجل الزيارة.

وحين نظرت اليه بطريقة مليئة بالعتاب، رد وهو يضحك:

- عين فضة تجينا لهنا، وما يمر يوم والثاني إلا والجماعة يكونون عندنا!.

وهكذا لم يستجب فنر لعواطفه أو لطلب موضي في الذهاب الى عين فضة، خاصة وإن هاملتون قال له والطائرة تهبط في مطار القاهرة:

- السنوات القادمة هي أهم السنوات في تاريخ المنطقة، وربما في تاريخ كل شخص، شرط أن يكون الإنسان ذكياً، ويعرف كيف يختار مواقفه وأصدقاءه وعلاقاته، وأن يكون أيضاً في المكان المناسب، في الوقت المناسب.

طوال السنوات الأربع التي أعقبت حملة وادي الفيض لم تهدأ موران ولا عرفت الراحة. حركة دائمة في الاتجاهات الأربعة. زيارات يقوم بها السلطان ورجاله الى كل الأماكن وكل القبائل. الوعود تعطى بسخاء، وكذلك الأموال. الآمال تتزايد وتتراكم نتيجة التوقعات والأحاديث. أمراء الجند وشيوخ القبائل يتوافدون على موران العاصمة، ويقضون فترات طويلة انتظاراً للأموال والأسلحة. السلطان يسمي أمراء للمناطق ويبعث بهم مع الأموال والوعود لكي يجندوا الناس. أعمام السلطان وأخوته وأبناؤه على سفر دائم. وبين فترة وأخرى لا ينسى السلطان أن يتزوج من إحدى القبائل ليكسب ولاءها وسواعد أبنائها. بكلمة واحدة: لم يبق شيء أو أحد في موران إلا وأصابته العدوى وبدأ يتحرك.

خزعل بعد أسر قلعة الرفيعة، أحس بالذنب وامتلأ بالمرارة، خاصة وأن ما يدور همساً في قصر الروض يصله، فيندفع الى البادية يؤدب العصاة ويفرض هيبة الدولة، هكذا اقترح العم دحيم ووافق أبوه، لكن الشرط أن يكون رحيماً، كما أكد عليه العم وهو يوصيه. قال له عندما تجهزت حملة السمرة:

- أعرف، يا وليدي، أنك، والشهادة لله، سبع وعزمك يفلّ الصخر، بس أريدك تفهم وتتوعى: بهذي الأيام نريد نرضي الناس حتى يصيروا ويانا، ما نريدهم قوم علينا. ويلزم بعد أوصيك: خد وعين. نوبة تمرة ونوبة حجرة والثالثة عين حمرا، وعسى أن الله يوفقك وترجع سالم وغانم.

ويضحك العم دحيم ضحكة صغيرة ثم يضيف:

- والباقي، يا وليدي، أتركه علينا.

وبين حملة وأخرى، وبعض الأحيان أثناء الحملة، يبعث خزعل لأبيه، أو يبعث له أبوه، لكي يتزوج من قبيلة يسميها، من بيت يرى ضرورة كسبه. والسلطان الذي تأتيه الأخبار أن خزعل تعلم الكثير، وأن الناس راضية عنه، والخير يسير في ركابه، كان يوافق بعض الأحيان على ما يقترح ابنه، وفي أحيان أخرى يبعث اليه ببيت من الشعر يفهم منه ضرورة إرجاء الأمر، لأن ما ينتظره في مكان آخر أفضل! ولا يتردد خزعل في الامتثال لرأي أبيه، خاصة وأنه يعرف أن الرسل، والعيون في معسكره، ينقلون للسلطان كل شيء، وكان يسر لذلك، إذ يثبت من خلال ما ينقل أنه الممثل اللائق لابيه!

وبموازة حملة السمرا يبعث السلطان بالرسل والرسائل الى الحكام المجاورين يطمئنهم، يتفاوض معهم، يبحث شؤون الحدود والمراعي والمياه. يبعث الى الأصدقاء طالباً القروض والأسلحة، وطالباً أيضاً الاستعداد للمعركة، ويوافق على سفر هاملتون هنا وهناك لكي يستطلع، ويتفاوض، ثم لكي يتفق.

عويد المشعان أصبح يقضي في موران وقتاً يوازي الوقت الذي يقضيه في البقعا، فبعد ما وصلت الأخبار عن غضب عويد، لأن السلطان امتثل لأوامر الكفار، ولا يريد للإسلام أن يمتد ويسود، بعث السلطان عمه دحيم اليه يزوره ويعود وإياه الى موران.

وفي هذه الزيارة، ثم بإقامته في موران، وفي جو من الانفعال الديني والحماس، والذي يصل بعض الأحيان الى درجة الهوس والقسم على القرآن، مع الخشوع والدموع، وكان السلطان يؤكد أن راية الإسلام سوف ترتفع في كل مكان، ويوضح لعويد أن ما يؤخره فقط، وليس هناك ما يمنعه أبداً، هو

المال والسلاح، ثم انتظار الوقت المناسب.

وإذ لاحظ السلطان أن عويد ينفر من هاملتون ويتجنبه، فقد كلف بأمره الكثيرين، واستعان باثنين من رجاله المقربين: عنان بسيوني ورأفت شيخ الصاغة، إذ طلب أن يلازماه، وأن يكونا موضع سره وثقته، والشيء الذي لم يستطع أن يتوصل اليه هو أو عمه دحيم حققه هذان الإثنان، كل بطريقته. فعنان الذي كان مملوءاً بروح مثالية، ويريد أن يعيد تشكيل العالم على نسق جديد، والذي يكره الكفرة والملحدين، ويذوب مرارة لأنه هزم في معاركه السابقة، جاء الى موران ووضع نفسه في خدمة السلطان لكي يحقق هنا ما عجز عن تحقيقه هناك، ولكي يبدأ من الصحراء مرة أخرى كما كانت البداية الأولى.

أما رأفت شيخ الصاغة، فهو على قناعة راسخة انه انسان نادر، ولذلك لا بد أن يكون عظيماً، وطريق العظمة، كما زين له رفاق السوء، هكذا يقول، وهو يتذكر تلك الحماقات التي اندفع اليها في مواجهة المحتلين الفرنسيين، لأن شهادة الطب التي عاد بها من فرنسا، لا تكفي وحدها لكي توصله الى ما يريد، فكانت النتيجة أن سقط في المعركة، ولأنه لم يتعود على السجن، أو على همجية المحتلين، والذين يختلفون عن أولئك الذين عرفهم أثناء دراسته، فقد آثر الهجرة، وحين وضع أمامه الأطلس ليختار ديار الاغتراب احتار ما بين العودة الى فرنسا أو الذهاب الى موران، ولم يتأخر في اختيار موران وأن يصبح من رجال خريبط. فهو يستطيع أن يقوم بمهمات عديدة، إذ بالإضافة الى مهارته بالطب، فإنه محدث بارع وصاحب نكتة وبديهة، وملم بآداب القصور، خاصة وأن تقاليد العائلة التي نشأ فيها من الرسوخ والقوة بحيث جعلت جده الأكبر شيخاً للصاغة، ومن هنا اكتسب كنيته، واكتسب معها عراقة لم يتنازل عنها في يوم من الأيام!

السلطان حين كلف الرجلين بملازمة عويد المشعان، كان فكره رغم اضطرابه يملي عليه «أن نأخذ الناس على قدر عقولهم»، فما دام ابن مشعان

لا يثق ولا يرتاح لهاملتون، إذن لا حاجة لصداقة مباشرة بين الإثنين. المهم أن نكسب الاثنين، والمهم أيضاً أن لا يكونا معاً، لأنهما إذا أصبحا سوية ربما تسول لابن مشعان نفسه ويطمع، أو قد يرى فيه هاملتون بديلاً أو منافساً فيستغله. لذلك فإن هذه الصيغة أفضل من أية صيغة غيرها! والمهم أيضاً أن نحشد كل القوى، لكي نحارب معركتنا الأخيرة. فتصبح موران أكبر بلد في المنطقة وأقوى دولة فيها. ومن أجل الوصول الى هذا الهدف يجب أن نرضي الكثيرين، وأن نستفيد من كل قوة لكي ننتصر، وبعد ذلك لكل حادث حديث! الذين يكرهون ابن مشعان يقولون انه دخل، ومنذ فترة طويلة بالإبريق، لفرط ما أصبح متديناً، فيرد السلطان أن هذا شأنه وحسابه عند ربه. ما يهم السلطان الدنيا والانتصار على الأعداء، ومن أجل ذلك لا بد من وجود المال والرجال والسلاح.

عويد طفل في الخمسين من عمره. إذا أحب جرفه حبه، وإذا كره أعمته الكراهية. عنيد الى درجة اللجاجة وسهل مثل الثمر الناضج. إذا اقتنع لا يتبدل، وإذا وثق ليس من السهل أن يحتمل الوشاة أو الذين يوغرون الصدور. علاقته بدحيم وخريبط وبقصر الروض عموماً أن هؤلاء الرجال يطمحون الى الشهادة أكثر مما يتطلعون الى الملك، وأنهم وحدهم الذين يمكن أن يقيموا العدل في الأرض بعد أن امتلأت جوراً. لقد حارب معهم في الرحبية والقويعة وروضة المشتى ووادي الفيض وأخيراً في الحوَيزة، وتأكد من ذلك. كانت عينا دحيم تمتلئان بالدموع وهو يصلي على الشهداء، وكان صوت خريبط، وسط الجند، وهو يلعلع: هبت هبوب الجنة أين أنت يا باغيها. ولذلك كان متأكداً من صدق إيمانهم. أما هذا الكافر الذي لا يعرف كيف جاء أو ماذا يريد، فإنه بقدر ما يخشاه، فلم تبدر منه بادرة، حتى الآن، تجعله يتأكد من ظنونه، ثم جاءت تأكيدات دحيم بأن الرجل على وشك الدخول في دين الإسلام، ويجب أن نساعده؛ قال عويد لنفسه بنوع من السخرية المرة «جماعتنا، أهل دنيا نُحُوشهم هذي الأيام للدين بالعصا، وينهزمون، وهذا

جاي من تلفات الدنيا ويريد يصير مسلم؟ ما ندري نصدق من ولاّ من لكن بتوالي الليل تجينا العلوم... وبعدها نشوف».

هاملتون يرقب المشهد كله، متحرراً من أي التزام. يريد أن يمزج التاريخ بالجغرافيا على نحو فريد؛ فما قرأه في الجامعة عن تاريخ شعوب هذه المنطقة، وما تركه هذا التاريخ من علامات وآثار في الناس والأفكار والأشياء، ثم تلك التقارير التي اتيح له أن يطلع عليها في فترات متعددة، خاصة في سفرته الأخيرة الى لندن، والمقارنة بين التقارير الأولى والتقارير الأخير، وحجم الفرق بين الرغبات والأوهام، وبين ما تحقق فعلاً على الأرض، ثم هذه الصحراء التي عرفها جيداً، وغامر في أن يقطعها من حدها الأول الى حدها الأخير، ولم يجرؤ أحد قبله أن يفعل مثلما فعل، يضاف الى ذلك أنه عرف معظم الذين يملكون القوة، وأولئك الذين يملكون الطموح، وعرف أيضاً الذين يريدون أن يعبروا من ضفة إلى أخرى، أي الذين يريدون أن يعبروا الحياة سريعاً الى الموت، بعد أن عرف كل ذلك تجمعت لديه صورة لما يجب أن يفعل.

صحيح أن المشهد، رغم كثافته وثقله، يبدو له مهتزاً، مليئاً بالنتوءات والخطر، لكنه، أصبح على يقين أيضاً، أنه الوحيد القادر على أن يفعل شيئاً، وأن يصل الى نتائج لا يمكن للآخرين أن يصلوا اليها.

أصبح، في هذه الفترة، أقل خيالاً، وأكثر واقعية، كما دفع الى الخلف الهوايات التي استولت عليه خلال إقامته الطويلة في الصحراء، بأن يمعن النظر في السماء، ويحاول أن يتحرى مواقع النجوم، وأن يعرف مواعيد بزوغ القمر، والزاوية، ويراهن، وبشجاعة كبيرة، على رؤية الهلال، اعتماداً على حساباته وعلى عينيه اللتين لم تصابا بالتراخوما!.

إن كل ذلك جزء من تاريخ مضى وانقضى. لم يعد يرى النجوم تتدلى فوقه كالفوانيس، أو توحي له بالكثير. وأصبح لا يتذكر القمر إلا حين يراه، وهو

ابن أيام، كما يقول البدو.

ليس القمر والنجوم وحدهما ما غاب من ذاكرته، فقد غاب أيضاً ذلك الوهم البدوي الذي كان يجعله يصدق الكثير مما كان يروى له. ففي الفترة الأولى من اقامته في موران، كان يروق له أن يستمع بشغف الى تلك الأحاديث التي تعدّد الخوارق والمعجزات، وتسمي الذين شاهدوها بأم العين، وكيف أن الكثيرين ليس لديهم ما يفعلونه سوى انتظار تكرارها. ولكي يقنع نفسه وينتظر معهم كان يردد في داخله: «لم يتوصل العلم بعد الى تفسير الكثير من الظواهر الكونية». فإذا بدا له أن هذا التفسير لا يناسب ثقافته وعقله العلمي، يقول لنفسه بتأكيد لا يقبل الرفض أو الشك: «لا يمكن فهم شعب من الشعوب دون فهم أساطيره وبنيته العقلية: ما هي معتقداته؟ كيف يفكر؟ ما هي منظومة الأفكار والمعتقدات والطقوس التي تجعله هكذا».

ورغم أنه أكثر الأسئلة ظل أسئلة، فإنه لم يتوقف عن الاندماج في هذا المناخ «تمهيداً للوصول» كما يقول، حين يعجز عن الوصول الى نتيجة!

لم يعد معنياً بهذا الفيض الهائل، والذي يزيد كل يوم، من الأوهام والخوارق والأكاذيب التي تشغل ليالي الشرق. أصبح أكثر ميلاً وحرصاً على أن يفكر بالأشياء الواقعية الصلبة.

حتى أفكار خريبط، صداقاته وعداواته، ما يقوله وما يطمح اليه، لا تعني له الآن الكثير؛ لا بد أن يراجعها، أن يضعها في نسق يتناسب مع الخطة الأساسية التي يجب أن تنفذ. بريطانيا نفسها فردت أمامه الخرائط وقالت له: يمكن أن تعيد رسمها. هذه هي مهمته الأساسية. وهذه المهمة التي يفرضها الواقع لا بد أن تتأثر بأفكاره، بثقافته، بإدراكه العميق لما يجب أن تكون عليه المنطقة. أما أن يصبح أسيراً «لسوالف» الشرق، كما يقول لنفسه، فلا يجد غير تلك الكلمة التي يرددها البدو انفسهم وهم يصفون كلاماً غير مجدٍ أو لا معنى له. كانوا يقولون، مع حركة من اليد: خرطي!

«أكثر من ذلك عويد المشعان ليس عدواً، أو يجب ألا يكون. عواطفه لا تعني شيئاً بالنسبة لي. أن يشتمني؟ أن يتعامل معي بهذه الطريقة؟ يجب ألا أقيم وزناً لذلك، إذا كان لا يؤثر على خطتي، على ما اعتبره أساسياً ومهمّا من أجل الوصول الى الهدف».

كان هاملتون يقول لنفسه، وقد بدت له الصورة مغرية:

«في الشرق ينسون، أو لا يدركون، الجوهري. أنهم أبناء اللحظة والشيء الظاهر، وربما كانت الخيمة مثالاً لتكوينهم العقلي، فهي تجسد رد فعلهم الحقيقي. فالخيمة تتأثر بالآني، ولا تملك ثباتاً أو استمراراً. الريح التي تعصف الآن هي وحدها التي تعنيها وتؤثر عليها، ولذلك فهم لا يتذكرون الرياح التي مرت أو الرياح التي ستأتي. وكذلك أفكارهم أو عواطفهم، انها عرضة للتقلب والتغير بتغير المناخ».

ما يكاد يطمئن الى هذه القناعة، حتى تهاجمه صور اخرى: «ما يثير عجبي وتساؤلي أيضاً، أن هؤلاء البدو البسطاء، ورغم ما يملأ رؤوسهم من الخرافات والأوهام، فإنهم في أحيان كثيرة، لا ينسون ما يعتبرونه أساسياً بالنسبة لهم. خريبط، مثلاً يثير استغرابي، مهما ابتعدنا، وأينما ذهبت بنا الأحاديث وشعر النبط وأمثال البادية، فحين أودعه ليذهب الى محرابه، حيث لا يمل من «التعبّد» جزءاً هاماً من الليل، وقيل لي انه يتنقل من محراب الى آخر! فإنه لا ينسى ولا يتردد في توجيه الأسئلة ـ الام. يسألني عن الأمور التي تعنيه، ولو بطريقة عابرة، لكنها مقصودة تماماً، ورغم تصميمي على عدم الإجابة الواضحة، من أجل أن اعطي نفسي الوقت للوصول الى الحل، فإنه لا يكتفي بتوجيه الأسئلة، ينظر الى عيني تماماً، ليقرأ فيهما ما إذا كنت أكذب عليه أم لا. هذه النظرات تربكني، تجعلني ضعيفاً، بل وغالباً ما كنت أضطر، نتيجة تلك النظرات بالذات، الى الإجابة بما أفكر فيه فعلاً، أو ما أريد تنفيذه. كيف يتوارثون هذه الطريقة في النظر إلى الآخرين كيف يتعلمونها؟ حتى الأطفال الصغار، الذين لم يتدربوا بعد على تلك البذاءة ـ البريئة، ينظرون

اليك بتلك الطريقة، وحين تكذب، تقول لك عيونهم، بشكل جارح: إنك تكذب.

لا بد من تنحية الكثير من الهواجس والاحمال التي ارهقتني خلال الفترة الماضية، والتعامل مع كل شيء بروح واقعية. هذه هي الطريقة الضرورية، وربما الوحيدة، لإقامة مملكة من طراز جديد!».

لم يكتف هاملتون بذلك، فقد ذهب الى آخر الشوط: الى خصوم خريبط، هؤلاء الذين رآهم، وهو يعبر ذلك المحيط الصحراوي الشاسع، إذ لا بد أن يختبرهم مرة أخرى. ذهب اليهم يتفاوض من أجل المراعي والمياه والحدود. مرة يفاوضهم باسم خريبط، وأخرى يفاوض خريبط باسمائهم، كل ذلك ليختبر قناعات واحتمالات معينة، تمهيداً، لاتخاذ القرارات المناسبة، والنهائية.

خريبط الذي ظل شديد الحذر من زيارات هاملتون، وبارعاً الى أقصى حد في إظهار اللامبالاة، لم يكن قادراً على منع تلك الزيارات أو معرفة حقيقة ما يجري خلالها، بل وكان يتظاهر أنه يكتفي بما ينقله اليه الصاحب. وما لا يستطيع أن يعرفه منه مباشرة، يعرفه عن طريق العيون وردود الفعل. وعلى طريقة البدو لم يكن متعجلاً أو منفعلاً. فما لا يقوله هاملتون اليوم قد يقوله غداً، أو قد يقوله غيره من الذين رافقوه. فإذا لم يتوافر من ينقل الأخبار فلا بد أن تفضحها تصرفات الأعداء وعطاياهم، ومهما برعوا وتفننوا في إخفاء الأموال التي قد يحصلون عليها، أو تسريبها الى أتباعهم دون أن يحس أحد، فإنهم لا يستطيعون إخفاء الخيول. فحين تظهر الخيول الغريبة فجأة، وترفع رؤوسها وتصهل، كان خريبط يقول لعمه:

ـ صاحت مثل الواويات يا عم، ولا بد أن نصلها قبل أن تصلنا.

وبكثير من التكتم والمكر، ولكي يخلق السلطان واقعاً جديداً، يختار مجموعات خاصة من الرجال الذين يثق بهم، والمملوئين شراسة وحماسة وهوساً، وفي النصف الثاني من الشهر القمري، يرسلهم في تلك المهمات

الصغيرة، لكن المتعبة، والتي لا تجدي معها الأسلحة أو القوات المنظمة، الى الحدود، الى طرق القوافل، الى مصادر المياه، لكي يفعلوا ما يرونه مناسباً، يقول العم دحيم لقادة هذه المجموعات موصياً: «اللي تغنمونه لكم وحدكم، وحلال عليكم، بس نريدكم تخوفون اللي ما يخاف، وتخلونهم ما يعرفون حلاوة نوم».

ولان خريبط برع بهذا النوع من الغارات، ومارسه لفترات طويلة، فإنه يعرف ما يترتب عليه من نتائج: ما يكاد يقع عدد من هذه الغارات، مع ما يرافقها من صخب ومخاوف، حتى يلجأوا اليه «لتأديب العصاة وقطع دابر الأشقياء وقطاع الطرق» ويبدي تمنعاً متذرعاً بصعوبة هذه المهمة، أو عدم قدرته على القيام بها، وبعد الكثير من الإلحاح والضغط، ولقاء مقابل كبير، يتم الوصول الى أكثر من اتفاق!

يقول هاملتون لنفسه: «هؤلاء البدو لا يعملون شيئاً دون مقابل، وغالباً ما يضطرونك لأن تدفع ما كنت ترفضه في السابق. انهم يحتكرون معرفتهم أو مهاراتهم إلى أن تصبح بحاجة ماسة إلى تلك المعرفة أو المهارة... وعند ذاك فقط يفرضون شروطهم، ولا بد أن توافق على تلك الشروط، وأن تكون شاكراً لهم في نفس الوقت!

«خريبط ليس بعيداً عن ذاك الذي يجري على الحدود، هذه قناعتي، لكن لا أملك دليلاً واحداً على ذلك. وها نحن نلجأ اليه وحده لكي يساعدنا».

لا يكتفي السلطان بذلك، إذ لا بد أن ترتفع أصوات المهووسين والمتطرفين، ولا بد أن يظهر أيضاً بعض الخصوم. وإذا كان هاملتون، في كثير من الأحيان، غير قادر على مفاوضة المعتدلين، أو الوصول معهم الى لغة حوار مفهومة، فإن حالته النفسية تسوء وجسده ينهار حين تحاصره تلك النظرات الغاضبة، وتملأ أذنيه ضجة أولئك الذين جاءوا فجأة الى حيث يكون موجوداً، وقد جللهم الغبار، ولا يعرف هل هم خصوم للسلطان أم رجاله، لأن كلمات

التعريض والتهديد لا توفر أحداً أو شيئاً ومرة أخرى يلجأ الى السلطان، فيبعث السلطان عمه أو أحد أولاده مع رجاله لكي يهدّئوا هؤلاء الـذين لا يُعرف مـاذا يريدون.

مقابل ذلك التشدد الذي يعم موران، ويتركز بشكل خاص في بعض مناطق الحدود الحساسة، فإن السلطان يكون في أصفى حالاته، إذ يفيض دماثة ورقة، ويظهر خضوعاً ما كان ليعرف عنه سابقاً، كما أنه يميل في مجالسه وأحاديثه الى الابتعاد عن هذا الذي يشغل الكثيرين، بمن فيهم هاملتون، ويلجأ أيضاً الى الغياب، بعض الأحيان، في رحلات قنص، أو الى إقامة مباريات في الفروسية أو القصيد.

ولكي تكتمل الحلقة لا ينسى السلطان خلال هذه الفترة أن يستعين بفنر لكي يكون رسولاً ووسيطاً في أمور عديدة مع هاملتون. ويقوم فنر بما يطلب منه بكثير من الإتقان والبراعة، الأمر الذي يثير إعجاب السلطان والعم دحيم. وفي هذه الفترة بالذات، وبعد أن قام فنر بالمهمة، وكأن الأمر مفاجىء، أو حصل عفو الخاطر واللحظة اكتشف السلطان أنه تأخر في تزويج فنر!

السنوات العشرون التي مرت من حياة فنر، مرت دون أن يحس بها الكثيرون، حتى نساء قصر الروض، اللواتي يرتبن الزيجات منذ الميلاد، ويقترحن، بأصوات عالية، أن تكون فلانة لفلان، وغالباً ما يحصل ذلك، فاتهن أن يقترحن له عروساً مناسبة. أمي زهوة، حين استقبلته قادماً من عين فضة، ليقيم في موران، سألت أكثر من واحدة عن عمره، حسبت على أصابع يديها، ثم أغمضت عينها، ولما فتحتهما من جديد نظرت إليه بإمعان تتأكد وتقارن. وانتهى الأمر بأن نسيت. ولا تتذكر مرة أخرى إلا أثناء زواج السلطان أو خزعل، أو أثناء زواج الأعمام والأخوال. تتذكر وجهه لكنها تنسى السنوات، ويطوي الموضوع!

تهاني أكثر من الشيخة قناعة أن فنر لا يزال صغيراً. حين تزوج السلطان بفرحة سألتها الشيخة ان تعدّد على مسامعها اسماء زوجات السلطان وسألتها أيضاً أن تذكرها بأسماء الاولاد واعمارهم. بدأت تهاني بحماس، عدّدت

أسماء أكثر الزوجات، نسيت ثلاثاً أو أربعاً، ولم تفطن الشيخة لذلك. أما حين بدأت تعدد أسماء الأولاد، ووصلت الى الثاني عشر، فقد قالت بنفاد صبر:

ـ هذا حدي، يا ستي، لأن عين الشيطان حمرا!

وكأن تهاني، التي تذكرت موت اثنين مؤخراً من الأطفال في قصر الروض، تذكّر الشيخة، وتريدها أن تتوقف. قالت الشيخة بطريقة فخمة، وخرج صوتها صلباً:

ـ لا تصدقي اللي ينقال. الحياة من الله والموت من الله!

موضي مع الشيخة وتهاني، لا تزال تعتبر فنر صغيراً، ويجب أن لا يفكر بأمر الزواج، رغم أن جسدها طوال السنوات الماضية كان عبئاً عليها، وقد اقتضى الأمر أن تبقى مريضة دائمة لدى الطبيبة الإنكليزية! أكثر من ذلك اقترح فنر أن ترافقه، في أول زيارة لبريطانيا، لكي تجري فحوصاً هناك.

لولوة أسّرت لعدد من نساء القصر أن لسيدتها أختاً، وان هذه الأخت ستكون زوجة لفنر، لكن باعتبار أن فنر لا يزال صغير السن، فكل الأمور مؤجلة!

الخالة مزنة أكثر الناس حديثاً عن الزواج، تتحدث عن المبدأ، ولا تتحدث عن التفاصيل أو الأسماء. « المهم أن يتزوج، ولا يهم من » لأنها تعرف أن ابنتها، شيخة، هي الوحيدة في سن الزواج، والفتاة المحتملة لأن تكون زوجة له. فبنات عمير الثلاث لا يزلن صغيرات. أما عمير، حين يجري الحديث عن الموضوع، فإنه يقول بعصبية:

ـ يا جماعة.. اتركوا هذه السالفة. فنر صغيّر، وكل شيء بوقته زين!

فإذا ردت عليه مزنة تذكّره متى تزوجت ومتى تزوج هو يجيب بنزق:

ـ زمانّا غير زمانهم، يا بنت الحلال!

وحين تصمت حزينة يتابع:

ـ والمسألة، أولها وتاليها، أنه هو اللي يقرر!

كل هذه الأحاديث كانت تجري وفنر لا يدري. المرة الوحيدة التي ذكرته خالة مزنة أنه يجب عليه أن يتزوج، نظر اليها بطريقة أخافتها، قال وكأنه يهدد بانتهاء العلاقة:

ـ ما أريد هذا الموضوع مرة ثانية!

السلطان الذي كان من السهل أن يقرر لنفسه، أو للكثيرين حوله، وجد نفسه حائراً. فنر لا يزال صغيراً. عدد السنين التي يحملها على كتفيه لا يكفي لتحديد عمره. المرض إذا تركه في الصيف لا بد أن يأتي في الشتاء. جسده هش، أقرب إلى القصب. أكثر من ذلك: هذا الحزن الذي يطل من عينيه وعمير الذي ينتظر مثل الذئب، لا بد أن ينقض إذا سها الراعي ولو لحظة واحدة. أمي زهوة التي تتحمس لاي زواج، وكأنه زواجها، حين سألها السلطان عن فتاة تلائم فنر، ردت بتحذير:

ـ البنيّة، يا أبو منصور، تنغصب، إذا ما كان هذا الرّجال ذاك، لكن الوليد، إذا ما راد، إذا ظهره ما حمي، يخرب... وظني أنك ما تريد لولد من أولادك أن ما يقدر ينام مع مرّية!

بعد الكثير من التفكير والتساؤل، وقد تولّت فضة جزءاً من البحث، وتولى الجزء الآخر العم دحيم، وافق فنر على الزواج. قال للعم دحيم:

ـ إذا ما منه بدّ بنت خالي سند.

وسند الذي كان يسكن في المريجة، والذي يهتم بنخيله أكثر مما يهتم بأي شيء آخر، والذي ترك عين فضة في وقت مبكر، «لأن الناس في عين فضة يفكرون بالآخرة أكثر مما يفكرون بالدنيا» وقد قال ذلك الكلام، وبغضب، حين وجد نخيل عين فضة يتراجع ويموت سنة بعد أخرى، نتيجة الإهمال،

لأن أكثر الناس، وخاصة أبوه، يتحدث عن أشجار الجنة أكثر مما يتحدث عن أشجار الأرض، والناس يستمعون اليه، ويهزون رؤوسهم موافقين.

قال سند لأبيه، لأخوته الثلاثة، لمجموعة من الناس، وبعد أن حزم أمتعته وقرر السفر:

ـ أنا رايح.. وأقولها واسمعوها: ما أريد من هذي الديرة نواة. وحقي وميراثي وصلني.

تطلع في الوجوه بحزن، وبعد فترة ليست قصيرة أضاف:

ـ لكن راح تندمون.

وتغيرت النبرة، أصبحت غاضبة:

ـ وإذا كانت عين فضة بها خير، والناس بعدها عايشة، فالفضل لهذا النخل، ما هو لشي تاني. فإذا تركتم النخل يموت، وبس تسولفون عن الجنة والنار، فظني أن بعد كم سنة ما يبقى أحد منكم، اما تموتون أو تهاجرون.

الشيخ عوض الذي كان يسمع بطرف أذنه، لكنه كان غائباً، قام بعصبية وغضب حين وجد النقاش حامياً، قال وكأنه يبرىء نفسه:

ـ عجبي لمن آخرته بدنياه!

أما عمير الذي اعتبر تصرفات سند أقرب الى النزوة، وربما نتيجة خصومات النساء، فقد قال بحزم مشوب بالغضب:

ـ عين فضة، من يوم ما الله خلق الأرض وهي بهذا المكان وبهذا الشكل، اللي يريد يزرع ما أحد يمنعه أو يرده، واللي يريد يعبد ربه، ربه يرزقه.

رد سند بعصبية:

ـ ويلزم تعرفون: الله في كل مكان، ما هو بس بعين فضة.

وبعد قليل وهو يضحك بسخرية:

ـ وعين فضة مثلها مثل أي مكان غيره، ما هي مكة، ولا هي أولى القبلتين وثاني الحرمين.

في تلك اللحظة رد الشيخ عوض بغضب ومن بعيد:

ـ كثيرين قبلك، يا سند، راحوا! وعين فضة ما خسرت شي.

وظلت العلاقات مقطوعة بين المريجة وعين فضة. أو بين أولاد الشيخ عوض، لكن البنات لم ينقطعن، ومن ذلك المسرب الصغير الذي ظل قائماً ومفتوحاً، زارت سارة أخاها في المريجة مرات عديدة، وفي كل مرة كانت تصطحب فنر، ومنذ ذلك الوقت رأى فنر زينة وظلت في ذاكرته.

الآن، وقد حاصره العم دحيم، قال:

ـ بنت خالي سند

فوجيء العم دحيم وارتبك، سأل بعد أن تلفت:

ـ وخالك سند له بنت أو أكثر؟

ـ أريد زينة!
ـ زينة؟

ـ أي نعم زينة!

ولأن السلطان في تلك الفترة يريد أن يحتفل، أن يعبر عن قوته، وان يخلق جوّاً خاصاً في موران، فقد جاءت هذه المناسبة لكي تتيح له ذلك.

الذين شهدوا الاحتفالات التي أقامها السلطان بمناسبة زواج ابنه فنر، امتلؤوا يقيناً أن السلطان سيسمي فنر سلطاناً بعده. والذين لم يشهدوا تلك الاحتفالات، وإنما سمعوا بها، كانوا متأكدين من ذلك، بل وقالوا ان الاحتفالات أقيمت بهذه المناسبة أكثر مما هي بمناسبة الزواج. ومما زاد في تأكيد هذه الأخبار أن خزعل لم يحضر وقيل أن فنر ذهب بنفسه الى الصفرا، حيث كان معسكر خزعل، ودعاه، وألحّ في دعوته، لكن لم يستجب.

السلطان بدا أكثر شباباً من أي فترة سابقة وأكثر قوة، والصاحب كان أحد المدعوين المرموقين، وقيل انه أهدى بندقية مفضضة للعريس، لكنه أشار بتواضع إلى أنها هدية ملك الانكليز وليست منه.

أما الشيخة، أمي زهوة، فقد أكدت لولوة أنها أهدت العروسين جملاً كاملاً من الذهب، وقيل ان العم دحيم شوهد لأول مرة يرقص. أما وطفة التي كانت تنتظر أن يتزوج فنر أختها فقد أكدت، بلسان لولوة، أن أختها، تزوجت قبل زواج فنر بثلاثة شهور!

السلطان أهدى فنر حصاناً صقلاوياً عمره سبع سنين، وأكد مهيوب أن لا أحد ركبه غير السلطان.

موضي قبل الخطبة، وأثناء الزواج، كانت مريضة، لكن قابلة القصر التي كانت تحجمها جاءت قبل الزفاف بدقائق حاملة عقداً ماسياً هدية للعروس من موضي.

الرصاص الذي أطلق، العطور التي صُبت على أيدي الرجال والنساء، الحلويات والدراهم التي وزعت على الأطفال والفقراء، الخراف التي ذبحت. . . وغير هذا كثير، ظل حديث موران أياماً واياماً.

في نهاية الشتاء وبداية الربيع، بلغت الاستعدادات في موران ذروتها. جمع السلطان كبار العائلة وزعماء القبائل وشيوخ الدين وعدداً من التجار والوجهاء، إضافة الى المستشارين، وبجو مفعم بالحماس والانفعال أبلغهم أن الإساءات والجرائم التي صدرت من سلطان العوالي، ومن القبائل الموالية له، وصلت الى درجة لم يعد من الممكن احتمالها أو السكوت عليها، وأنه إذا لم يوضع حد لها، وبأسرع وقت، فإن موران، بسكانها وأرزاقها، بحواضرها وبواديها، بصغارها وكبارها، معرضة الى أكبر الأخطار وأفدح المصائب. وابلغهم أنه، شخصياً، صبر وتحمل الكثير من ابن ماضي، سلطان العوالي، لعله يعود الى رشده، وأنه لا يفضل أكثر من السلم، ولا يريد أكثر من الأمن لموران وجيرانها. وأكد أنه لم يترك شيئاً أو أحداً إلا وحاول معه، أو عن طريقه لكي تحقن دماء المسلمين، لكن الغرور الذي ملأ عقل ابن ماضي، واستهتاره بالدين، وتعديه على حقوق الإسلام والمسلمين، وسماحه بأن تتعرض المقدسات والحرمات للعبث والخطر، يدفعه الآن لان يعلن، أمام الخاص والعام، وأمام صفوة أهل موران، أنه لم يعد قادراً، ولا يطيق الصبر أو السكوت.

والسلطان الذي كان مثل اللجام خلال السنوات السابقة، إذ كان يمنع رجاله من التقدم، ويتذرع لذلك بعشرات الأسباب، لم يكن بحاجة الى هذا التحريض، أو الى ذلك الجو الانفعالي. فقد تسابق زعماء القبائل مع شيوخ الدين، وشاركهم قادة الجند والمستشارون الى التأكيد أن الأمور وصلت

حدها الأقصى، ولا يمكن السكوت بعد ذلك. وبالغ بعض الزعماء بأن قالوا، وبكلمات خشنة، ان سكوت السلطان خلال الفترات الماضية، ومنعهم من تأديب الأعداء، أو منعهم من الشهادة، لا يمكن أن يفهموه أو يغفروه. فقد تحملت موران أكثر من اللازم، وتطاول عليها أعداؤها أكثر مما تطيق، ولولا أن السلطان جمعهم الآن لاتخاذ القرار لاتخذوه دون الرجوع اليه، ولتصرفوا بما يرضي الله ورسوله!

وأفتى رجال الدين، وأيد التجار، وحدد المستشارون ما يجب قوله للقريب وللبعيد، وأبدى قادة الجند استعدادهم بكثير من الرضا والفخار، وبارك الوجهاء كل ما قيل وزكوه، وتركوا للسلطان، بعد أن جددوا تأييدهم وأثنوا على حكمته، أن يتصرف بالطريقة التي يراها مناسبة. ولم يبق أحد من الذين ضمهم السرادق الكبير، بمن فيهم الخدم والحرس وصانعو القهوة والسواس والرواة والخصيان، والصبية الذين رافقوا آباءهم، وبعض المتسولين الذين كانوا في أطراف الخيمة، إضافة الى خمسة من العميان كانوا يقودون بعضهم، ويجب أن يحضروا كل حفل وكل مأتم، ولا بد أن يقرروا أو يشتركوا في تقرير أمور الحرب والسلم، لم يبق أحد من هؤلاء إلا انفعل واهتز، وطلب أن يكون ضمن الجيش وأول من ينتقم من سلطان العوالي!

عويد المشعان الذي رفض المجيء الى موران خلال الشهور الثمانية الأخيرة، وكان أكثر غضباً وشتيمة من أية فترة سابقة، وقال علناً، ولرسل السلطان بالذات، انه لم يعد يثق بأحد، ولا بد أن يفعل ما يأمره به الله، أياً كان رأي السلطان... عويد لم يأت الى موران، هذه المرة، إلا بعد أن زاره دحيم، عم السلطان، وأكد له في هذه الزيارة: «أن كل شيء انتهى، وهذا اليوم يومك يا أبو محجم». وبعد أن استوثق وتأكد، جاء، الآن، وهو يرى هذا الحشد، ويسمع هذا الكلام، ويحس الانفعال الحار يسري من جسد الى جسد، من روح الى اخرى، يلوم نفسه أنه كان سيء الظن، ولم يثق بالآخرين. كان يريد أن يهاجم السلطان، أن يعتبره متخاذلاً أو متواطئاً، لكن

بعد أن رأى وسمع سكت. حاول السلطان أن يستشير حميته، نظر اليه عدة مرات وهو يتكلم. أشار اليه، حين تحدث عن منع رجاله من مهاجمة حدود العوالي، ولما تطلعت اليه العيون لترى وتعرف، قال عويد، دون أن يرفع رأسه:

- اللي نبغيه رفع راية الإسلام أو الشهادة، وما دام طويل العمر أمر حنّا لها!

ابن مياح كان أوضح وأكثر صراحة، قال:

- يا خريبط، أني أقول كلمة وإن كانت تغيظك: كنا نتحدث فيما بيننا ونقول: قد بدل خريبط الشجاعة بالجبانة، وكنا، قبل قدومه، نتمنى قدومه، أما اليوم فصرنا نقول: ليته ظل في بلده بعيداً عنا، فإن كان هناك دليل شرعي يؤخرنا عن القدوم فيبينه لنا حتى نتبعه، وما نحن إلا خدام الشرع، وإذا كان لا قصد لك غير الشح بأنفسنا عن الموت فما أحد يموت قبل يومه. وما نتمنى والله إلا أن نموت شهداء، فأي قتال أفضل من هذا القتال، وأي عمل جاء فيه الضرر للإسلام والمسلمين أكثر من عمل سلطان العوالي وأولاده »

وكان آخرون يريدون أن يتكلموا، فالإنفعال كان يزداد، والجو يمتلىء بالتوتر، لكن دحيم، الذي كان يجلس الى جانب السلطان، وقف. دق الأرض بعصاه وقال:

- يا جماعة الخير...

تطلع ملياً في الوجوه وهو يبتسم بحزن، ثم تابع:

- ترى ما هو كل اللي ينعرف ينقال...

التفت الى السلطان، تطلع اليه وهو يهز رأسه، ثم عاد الى الجمع:

- هذا الرجال، والشهادة لله، تحمل الكثير. حمل اللي ما تحمله الجبال، وكان بين نار قلبه ونار الآخرين.

دق الأرض مرتين، وكان بين دقة وأخرى فترة، وأضاف:

- تحمل منكم وتحمل من غيركم، وهو ما يريد إلا رفع راية الله ورسوله، وما يريد إلا مصلحتكم. وهالحين ما يلزم إلا شيء واحد: أن نكون كلنا قلب واحد، ويدواحدة،نمشي وراه، وهذي هي الساعة، وهذا هو اليوم اللي تبين فيه المرجلة، ويثبت الواحد نفسه. فإما ننتصر أو نستشهد، وما بعد هاذا الكلام كلام!

سيطر التأثر والصمت على الجميع.

قال ابن مياح:

- ما عندنا وقت، يا جماعة، ونمشي هالحين أحسن ما نمشي باكر أو اللي عقبه.

قال عويد المشعان:

- ما لأحد حجة، ويلزم نتوكل على الله ونمشي.

قال السلطان، وهو يجيل النظر بالوجوه:

- بارك الله فيكم وكثّر من أمثالكم، وأقول لكم اني أشوف الجنة بوجه كل واحد منكم!

وهز رأسه عدة مرات وتابع:

- وبزنودكم وقوة قلوبكم إنشاء الله حنا منصورين.

في لحظة صمت قال أحد العميان الخمسة:

- الحرب خطاها قصار، وتاليها ندم يا خريبط. وأنتم يا أهل موران إذا كان عدوكم ما يشوف يلزم تحذروه، لأن دم المسلمين يتحاسب عليه في الدنيا والآخرة.

التفتت الرؤوس الى مصدر الصوت، وقد خيم الوجوم، قال السلطان لعمه

الشرقية، والآن الغربية أيضاً، وهم الذين أعطوا، وهم القادرون على وقف العطاء، ويمكن أن يغيروا الملوك والدول.

هاملتون، وغيره من الإنكليز الذين جاءوا الى موران قالوا كلاماً واضحاً. صحيح أن الإنسان لا يتفق معهم في أكثر ما قالوه، لكنه لا يستطيع أن يخاصمهم، أن يكون قاسياً معهم، انهم يقولون ما يريدون بصراحة ووضوح. وهذه الصفة التي كانت تزعج السلطان الى أقصى حد، وتجعله عصبياً ومستعداً للقسوة، لم تلبث أن أصبحت بالنسبة له صفة محببة. يريد أن يعرف ماذا يريدون بالضبط، لكي يقرر بعد ذلك ما إذا كان قادراً على الاستجابة أم لا. كثيرون غيره لا يفهمون هذه الصفة، ولا يحبونها، وبعض الأحيان يرتكبون الحماقات، لأنهم يسمعون كلاماً لا يعجبهم.

العم دحيم من جيل آخر، عاش وتكوّن في ظل قيم أخرى. لكنه الآن يلمس النتائج، وهذا ما دعاه لأن يكون هكذا مع السلطان.

قبل سنوات كان يعتبر خريبط مجرد شاب نزق، يملك فقط جسداً قوياً وشجاعة أقرب الى التهور. لكن بعد أن اختبره، بعد أن رآه في أوضاع وحالات عديدة ومختلفة، وبعد أن امتحنه تأكد. قال له في إحدى الليالي:

- جماعتنا، يا أبو منصور، كانوا مسّاكين، اللي بقلوبهم على لساناتهم، وهذا اللي سوّى بينا كل هذي السوايات.

وبعد قليل وهو يتطلع إليه بإعجاب:

- واللي جرى لنا، يا ابن أخي، إنّا ضيّعنا المشيتين، لا حنا بدو ولا حنا حضر، لا أحد يخاف سلاحنا وغاراتنا، ولا أحد يطمع بفليساتنا ويحسب لنا حساب.

فنر الذي نما بغفلة، ولا يعرف أحد كيف، حين استشاره السلطان، وسأله عن رأيه بهاملتون، أجاب:

- العالم، يا يوبه، ما عاد بس موران واللي حول موران، العالم كبير. وهذا العالم تحكمه القوة، وأنت تعرف الإنكليز والأتراك والروس والالمان، كل واحدة من هذي الدول روضت العالم، وسوّت اللي ما يصير. كانت تركيا أول وأقوى كل الدول، لكن زمانها فات. وكان الالمان، أصحاب الصناعة: الدرابيل والسيارات وسكك الحديد وغيرها وغيرها. أهل العلم والقوة. والروس نفس الشيء. هالحين الانكليز. عندهم الأساطيل، وعندهم المدافع، وهم أهل السيارات والطيارات، والبلاد اللي تتبعهم ما تغرب عنها الشمس، والواحد لازم يتفاهم معهم، لأنهم الأقوى والقادرين.

لما أحس بالتعب، وبالخجل، لأنه يتكلم وأبوه يسمع، تابع بنبرة جديدة:

- أنا شفت وقرأت، يا طويل العمر. بريطانيا أهم وأكبر وأقوى دولة في العالم، ولا يمكن لأحد أن يعاديها، أن يقف في وجهها، وأنت تعرف أن أسطولها، مئات السفن، آلاف السفن، وما يصدق الواحد إلا إذا شاف.

يصمت السلطان، يهز رأسه، يغيب، يفكر بأشياء كثيرة، يعرف أن ما يقوله ابنه وما رآه بعينه، من القوة والأسلحة والأموال، لا يمكن أن يستهين به، صحيح أن فنر يتكلم مثلما يتكلم الشباب، وأن عمه دحيم لم ير شيئاً، ويفكر أن بضع مئات من السيوف ومثلها من البنادق يمكن أن تغيّر الكثير، لكن يجب عليه أن يفكر بطريقته، أن يأخذ الأمور من كل الوجوه، وأن يقرر ما يراه مناسباً، خاصة في هذه الظروف.

لما التقى خريبط في الأسابيع الأخيرة بهاملتون، بعد أن غاب عنه ثلاثة شهور متوالية، سأله، وعيناه في عيني هاملتون تماماً:

- يلزم تقول لي، يا الصاحب، جماعتكم هناك، وصاروا يعرفون كل شيء، يريدونّا أم يريدون غيرنا؟

ابتسم هاملتون بحزن، وأجاب:

- إن بريطانيا، يا صاحب الجلالة، تضع كل ثقلها وثقتها الى جانب جلالتكم،

ويجب أن تتأكدوا من ذلك.

ـ حنا ما عاد بنا صبار، ويلزم نتحرك.

رد هاملتون بصخب:

ـ هذا ما جئت لكي نتفق عليه ونقرره يا صاحب الجلالة.

وبعد عدة جلسات بين السلطان وهاملتون، وأغلبها كانا وحدهما، وبكثير من الاهتمام والصبر والدقة، وبعد مراجعة الخرائط ومعرفة مستلزمات الحملة، وتسمية قادة الجند وأي الطرق يسلكون، تمّ الاتفاق على مهاجمة العوالي وانتزاعها من يد ابن ماضي. ومن نتائج هذا الاتفاق كان الاجتماع الذي دعا اليه السلطان، إضافة الى مجموعة من الرسل الذين بعث بهم الى عدد من الدول المجاورة والأصدقاء، مع رسائل تعدد، ولا تترك صغيرة أو كبيرة، الجرائم والإساءات التي ارتكبها ابن ماضي، وبالتالي تؤكد أنه لم يعد من الممكن السكوت عليه.

قال العم دحيم للسلطان، بعد أن تم الاتفاق على كل شيء:

ـ الحمدلله.. كل شيء انتهى بخير وسلامة!

رد السلطان وهو يبتسم:

ـ هالحين يلزم، يا عم، أن نتحزم للواوي بحزام أسد، ويلزم نتحذر واجد، لان ابن ماضي إذا شاف ان المصايب كثرت وتدردبت فوق رأسه يمكن يلوصها، ويسوي اللي ما يتسوى!

وهز رأسه عدة مرات، وأضاف كأنه يكلم نفسه:

ـ وهالحين جاء دورنا يا عم، إذا هزمنا ابن ماضي ملكنا الأول والتالي، وإذا صار غير شيء ترى الانكريز يتركونا ويدورون على غيرنا، لأنهم ما هم مثلنا ولا مثل جمالنا يصبرون وينتظرون!

وبدأت في منتصف الربيع حملة العوالي!

من جملة الامور التي تم الاتفاق عليها: ان يكون هاملتون هناك، عند ابن ماضي، بحجة الوساطة والتفاوض؛ وان يكون تقدم جيوش السلطان بطيئاً، بحيث يحكم الحصار على العوالي تدريجياً، ويضطر ابن ماضي الى التسليم في النهاية. ولكي تحقق هذه الخطة النتائج المطلوبة لا بد من ضربات موجعة، في اماكن مختارة وفي اوقات مناسبة، وتكون موجعة اكثر حين يمارسها اناس قساة، اقرب الى الجنون، بحيث تذهب مثلاً، ويتناقلها الناس من مكان الى مكان، ومن جيل الى آخر. «ولا مانع ان يعفو السلطان عن القرى التي تخضع سلماً لا حرباً، وان يجزل لاهلها العطاء».

خريبط الذي يعرف رجاله ويعرف أعداءه لم يكن بحاجة الى خطط والى اقتراحات، ولم يكن بحاجة الى من يوصيه. فقد قضى سنين طويلة ينتظر هذه المعركة ويفكر فيها، كما أن المناوشات بين موران والعوالي، خلال السنين السابقة، علمته الكثير، اضافة الى ما كان ينقله له عيونه والمسافرون عن تردي وضع ابن ماضي، وكيف أنه أصبح متعباً لنفسه ولمن حوله، ولأصدقائه الانكليز بشكل خاص، ثم كيف ضاق به الناس وضجوا بالشكوى نتيجة الضرائب والرشاوى، وأنه لم يعد قادراً على التفاهم حتى مع أبنائه وأقرب الناس إليه.

أما ان يكون هاملتون هناك، عند ابن ماضي بالذات، فإن الحذر البدوي استيقظ دفعة واحدة، وقد ظهر ذلك واضحاً على خريبط. قال له هاملتون يطمئنه:

- ان اكون عند ابن ماضي، يا طويل العمر، افضل، لأن ذلك يساعدني على ان افهم كيف يفكر وماذا يريد وكيف يجب ان يعالج الموقف، لكي اتصرف بالطريقة المناسبة.

رد السلطان وهو يهز رأسه:

ـ الحق اللي تقول يا الصاحب.

ـ ويمكن ان اعرف خططه العسكرية، وانبهكم الى ما يجب ان تفعلوه للتغلب عليه.

ـ هذا، الله يسلمك، اللي نريده!

ـ ولا بد ان تكون النتائج كما تتمنى يا صاحب الجلالة.

ـ انشاء الله، وبنظركم وجهودكم نلقى كل خير.

لم يكن السلطان قادراً على منع هاملتون ان يكون هناك، ومع ذلك يجب الا يظهر عواطفه، ان لا يبدي ملاحظة، الاّ يعترض؛ وعليه ايضاً ان ينتظر ليعرف كيف تسير الامور. قال لنفسه وهو يستمع اليه: «الجماعة، مثل ما قال فنر، ما يقدّرون الا القوي، ومـا يعطون سـرهم لاحد، ويلزم حنـا نمـدّ معهم، حتى نشوف،صدقهم من كذبهم، وهذي بلادنا وناسنا وحنا ادرى».

اما خطة التقدم البطيء والحصار، فإنها تثير الشك ولا تبعث على الراحة او الطمأنينة، هكذا كـان يفكر السلطان. «فـالبدو روحهم ضيقـة، وتعودوا على الغارة، اما تعقلهم، بدون اهلهم، وتقول لهم اصبروا، فإذا كانوا ما تحملونا وهم بديرتهم، بين اهلهم وعشيرتهم، فظني انهم ما يفهمونا ولا يتحملون. ما هو بس كذا: فوق البلا عوانة؟ تقول لهم: اتركوا البرودة والهوا الزين، واقعدوا ناظروا البحر والجبل؟ لا بالله، هذه السالفة ما تمشي مع جماعتنا».

فإذا وافق السلطان ان يكون هاملتون هناك، عند ابن ماضي، ولا يستطيع ان يعترض، فإن ادارة المعركة، وتحديد سيرها، يعود اليه، وللذين يقاتلون. هذا ما سوف يتحقق فعلاً على ارض المعركة، دون حاجة الى الاعلان سلفاً، او الاختلاف بسببه مع هاملتون.

قال لعمه قبل ان تتحرك قوات عويد وابن مياح بثلاثة أيام:

ـ ... وتعرف، يا عم، ما اخذنا موافقة الجماعة الا بشلعان القلب ونشفان

الروح، وها لحين يلزم نحكم جماعتنا، وما يصح ان الواحد يلعب بذيله...

تنفس بعمق وحزن ثم تابع بصوت عميق:

ـ عويد وابن مياح يحسبونها ركضة عرب، ويريدونها بيـوم والثاني، هـذا ما يصير يا عم، لان ابن ماضي ما هو امير القويعة ولا امير الرحيبة، ولا هو مثل امير الحويزة، هذا رابطها من الهند للسند، والغلطة معه كفر، فإذا ما كظّيناه كظة فار يلوصها علينا، يصيح وما يستريح: يا غيرة الدنيا والـدين، شوفوا خريبط وجماعة خريبط. والانكريز وافقوا بشرط: خذوا العوالي، بس لا احد سمع ولا احد دري، اما اذا سويناها طبل وزمر، فالله اعلم تنقلب علينا!

والعم دحيم الذي فهم ولم يفهم، لم يكن يعرف ما يجب عليه او مـا هو المطلوب منه، فقبل اربعة ايام، وبعد الاجتماع الذي شهده الجميع، وبعـد دعوة العشاء التي أقامها السلطان، عقد اجتماعان، وقد حضرهما ابن مشعان وابن مياح، اضـافة الى اقـرباء السلطان واولاده. وفي هـذين الاجتماعين تم الاتفاق على كل شيء، وجيء بالقرآن وتم القسم ان لا تنتهي الحرب، وأن لا تـتوقف الجيوش حتى تعـاد العوالي إلى ديـرة الإسلام، وان يقضى على ابن ماضي وذريته الى أبد الآبدين.

قال العم بمسكنة:

ـ بعد يومين، ثلاثة، الجماعة ماشيين، يا ابن أخي، وكل شيء صار معلوم وتفاهمنا عليه.

ـ صحيح يا عم، بس أريدك تحرّضهم، أن تقول لهم اللي يصير واللي ما يصير؛ وأريدك تفهّمهم ان السالفة طويلة، ويمكن ما تخلص بشهر واثنين.

وبكثير من الصبر افهم السلطان عمه ان الجيوش سوف تتحرك، لكن المعركة الحاسمة يمكن أن تتأخر، وقد تتغير او يطرأ عليها تعديل، لأن الظروف التي تمر بها موران والمنطقة، بصورة عامة، دقيقة وتختلف عن اي من المعارك السابقة. ويجب الا يحرجنا الجماعة، او أن يرتبوا علينا التزامات او مواقف يصعب الدفاع عنها او تبنيها.

ليس هذا فقط، طلب السلطان من عمه ان يفهم ابن مياح وعويد ان المعركة مع ابن ماضي وهي تختلف كثيراً عن المعارك السابقة، لذلك يجب الا يتخذوا اي موقف الا بعد الرجوع اليه والتشاور معه.

ودحيم الذي فهم على طريقته، واحس أن الامر اكثر جدية مما افترض سابقاً، وعد أن يقضي الأيام الثلاثة القادمة مع عويد وابن مياح، وأن يتحدث معهما كثيراً، وبعد لحظة تفكير اقترح ان يكون ضمن هذه الحملة، لكي «نظل نقرأ على روسهم وما يسودون وجوهنا». وافق السلطان على الفكرة بحماس ثم على الاقتراح، واكد له انه سيلحقه بالحملة خلال فترة، وسوف تكون معه قوات كبيرة.

فضة، خلافاً لمرات سابقة، لم تُشعر احداً انها سترافق السلطان، رغم أن الحركة وراء السور، وفي الجناح الكبير من القصر، اخذت تتزايد يوماً بعد آخر. النسوة، في القصر والاجنحة الملحقة به، تناقلن اخباراً كثيرة ومتضاربة حول اي النساء سترافق السلطان، لكن عندما سرت اخبار قوية ان الشيخة سترافق الحملة، فقد تأكد الجميع أن لا العنود، ولا فضة، وان كان بنسبة اقل، ستكون اي منهما مع السلطان. وسرت اشاعات، ولا يعرف من اشاعها، ان السلطان سيتزوج قبل بداية الحملة، لكي ينهي الخلاف الذي وقع بين نسائه، ولكي يرضي ابن مياح ايضاً. وطفة التي سمعت ولم تسمع الإشاعات والاخبار استمرت في الاستعداد، وكانت متأكدة انها وحدها التي ستسافر مع السلطان، ومما عزز هذا التوقع انها ارسلت ابنها، مفرح، الى الرمكة، خوفاً عليه أثناء غيابها. ارسلته الى امها مع توصيات وهدايا كثيرة، وكلفت لولوة بالبقاء الى جانب البنات الثلاث. ورغم ان لولوة اشاعت في وقت سابق انها سترافق سيدتها، لكن فجأة، وبسبب الخصومة والتنافس في القصر، عدلت عن السفر، فقط لتثبت ان السلطان لا يفضل امرأة على وطفة!

لم يقتصر الامر على ذلك، تهاني اكدت لكل من سألها ان الشيخة تقرر في الأمور الخطيرة في اللحظة الأخيرة، وبعد ان تبيّت خيرة لمدة ثلاثة أيام متوالية. وأضافت تهاني، وهي تبتسم، ان الذي سيبقى في موران هو فنر، لأن زينة في شهرها الثالث، وتبدو خائفة، وكان هذا اول اشعار بحملها وفنر الى جانبها،

وبعد أن بحث الامر مع السلطان تم الاتفاق على ذلك. قالت تهاني هذا الكلام اعتماداً على ما فهمته من خادمة زينة. صحيح ان الخادمة لم تقل ذلك بشكل واضح، او بهذه الدقة، لكن قدّرت مما سمعته ان هذا ما سوف يجري.

خزعل تردد كثيراً على قصر الـروض في هذه الفترة، وكان يجزل العطاء ويقدم الهدايا لاغلب الذين يزورهم مودعاً. وقد اتضح لكل من يلتقيه او يسمع ما ينقل عن لسانه، انه سيكون في مقدمة الحملة، اي في الكواكب السيارة. وأشار الذين يحبونه، وبأسف، ان مقدمة اية حملة، خصوصاً حملة كالتي تتوجه إلى العوالي، ستواجه اخطاراً كبيرة، وكانوا يضيفون بنوع من الفخر والمباهاة «وفي المقدمة يكون عادة اهم القادة وأشجع الجنود واقوى الفرسان».

موضي، مثل اغلب المرات، كانت بين الصحة والمرض، ومستعدة ان تصدق كل شيء. حين تنقل لها احدى الخادمات انها سمعت من نساء القصر ان فنر باق تفرح وتبشّر كل من حولها؛ وحين تؤكد اخرى ان فنر ليس اقل من خزعل، ولا بد ان يسافر في طليعة الجيش، تلازم غرفتها وتنخرط بالبكاء. أما فنر حين يسأل فإنه يكتفي بأن يبتسم ويهز رأسه، دون ان يجيب. وإذا اضطر الى الاجابة فغالباً ما تكون سريعة، مبهمة، ولا يمكن ان تفهم بدقة او على وجه واضح.

والأمراء الأصغر سناً، وحتى أولئك الذين بدأوا في السنين الأخيرة أو في الشهور الأخيرة، يقتربون من مجلس السلطان، بدأوا أيضاً يستعدون للحرب. ومجلس الاثنين الذي لم يتوقف عنه السلطان ولم يوقفه، امتلأ خلال هذه الأسابيع بأسئلة ورسائل وأشعار وكلها تتعلق بالحرب. والسلطان الذي كان مشغولاً ومثقلاً بالوفود والزوار والرسائل التي يجب أن يبعث بها، كان فخوراً أيضاً أن تكوّنت كتائب دون معرفته، ودون أن يحس بها، وبدأت، بأصوات عالية، وبالحاح، تطالب أن تكون ضمن الطلائع التي تسافر قبل غيرها!

جو من التفاؤل لم تشهده موران من قبل، لكن الى جانب التفاؤل مخاوف وتساؤلات وبعض الاحيان تحسب وانتظار.

طالع العريفان الذي تحسب كثيراً، وقلق لسفر السلطان، قال لناهي.

- صار لنا كم سنة يا ناهي راسنا بارد، فما دام طويل العمر موجود فهو البلشان

معهن، وحنا ما علينا الا: خذوا وهاتوا. ها لحين، اذا طالت سفرة طويل العمر، الله يستر، وإذا النسا صارن ازكرتّيات، ترى بلشتانا ما هي قليلة، ما تعرف تداري من ولّا من.

ـ عرفناهم وتعلمنا يا ابو جازي، لا تخف!

ـ ما ينحزر عليهن يا ابن الحلال، صارن جيش، ما هن واحدة ولا اثنتين.

ـ قولك كذا؟

ـ ما هو بس كذا، صارت الواحدة فصيل، كل واحدة تجر اربعة أو خمسة، وصارت تؤمر وتنهي.

ـ كان على طويل العمر ان يجندهن، فإذا صارن عماريات لا بد وينتصر، لأن جيش الحريم ينتصر بأول يوم، لأنهن بدون نخوة ينتخن!

قال طالع بحزن:

ـ ترى، يا ابن الحلال، الحرب هنا أكبر وأخطر، ويجوز أنها الزم من هناك، فما دام طويل العمر موجود كل شيء بخير وسلامة، لكن إذا راح...

وضحك بسخرية ثم اضاف يهمس:

ـ وها لحين بعدهم صغار، بعدهم تحت خيمة العود، باكر، اذا راح، الله يستر.

ـ لا تخف، ولا تحزن، تدبر يا ابو جازي، ومع ذلك جماعتنا قالوا: الخيل بلا اعنة مثل الرجال بلا اسنة.

ولم يستطع الرجلان ان يتوصلا الى اية نتيجة.

وكل شيء آخر في موران يحتدم ويتغير. التجار الذين باعوا كثيراً خلال هذه الفترة، توقفوا عن البيع، لأنهم طمعوا باسعار اعلى، وخافوا انقطاع التموين. فما دامت الحملة قد بدأت لا بد ان تنقطع طريق العوالي، ولا بد ان ترتفع الاسعار من جديد. اصحاب الخيل والجمال، الذين تفاءلوا بسنة الخصب، وقالوا إن السنوات القادمة ستجعلهم في حال افضل امتلؤوا بالقلق ثم بالخوف، لأن ما اشتري من الدواب، ولا بد ان ترحل مع الحملة لن يمكّنهم من الشراء مجدداً، وعليهم انتظار المواليد الجديدة او وصول دواب من اماكن اخرى. أما اصحاب الحوانيت والذين ينتظرون المواسم، فقد باعوا في الحملة كل ما

عندهم، ولم يكونوا متأكدين ان اشياء ستأتي، او سيكونون قادرين على تأمينها في المستقبل.

ومثلما حدث في حملات سابقة، بل واكثر من اية حملة، انشغلت موران بالرواتب التي وزعت، وبالأسلحة الجديدة والثياب، وانشغلت النسوة بالحزن والانتظار. أمّا المسنون الذين كانو يتابعون فقد استغرقوا في الصمت والتأمل، وكانوا اشد حيرة من أية مرة سابقة: «الانكريز ما يعطون لله، وإذا كان ابن ماضي، زلمتهم، واللي ما قال لهم في يوم من الايام: لا، تركوه وقالوا لخريبط: دونك الرجال اذبحه واللي تريد تسويه به سوّه، فالله العليم ان صاحبنا، خريبط، اما صار نصراني مثلهم، او باكر يتلفت ما يلقي احد وياه.. ويلزم نُبَجّرْ زين ونسمع زين، لأنا، هذي الأيام نشوف اشياء ما شفناها من قبل».

حمد الشايع، او حمد البصير، كما يطلق عليه في موران، تلقى وهو لا يزال في خيمة السلطان، عشرات الضربات والوخزات من الحرس والجنود ورجال الشيوخ، واكدّ الذين تخلفوا عن متابعة موكب السلطان انهم رأوه مدمى ومشقوق الثياب، وقد ضاعت غترته او سرقت، وقيل ان جماعته العميان كانوا اول من تصدى له وضربوه، بل واكد واحد كان قريباً منهم انه ما كاد السلطان ينهض، ايذاناً بانتهاء الاجتماع، حتى انهال العميان على صاحبهم. كانوا ينادون عليه، وما ان يجيب، ويتحدد مكانه، حتى ترتفع الايدي مع الاصوات: خذ يا ابن الحرام، مع ابن ماضي وما تعلمنا؟ مع ابن ماضي وساكت؟ مع ابن ماضي وما نعرف؟ وذهبت صيحاته في الصخب والضجة. وقيل انه ظل في الساحة القريبة من السرداق وحيداً، كان يحاول العثور على غترته وان يصلح ملابسه، الى ان جاء ثلاثة من حرس السلطان وأخذوه ولا يُعرف الى اين!

ولم تهدأ موران ولم تنم طوال الفترة التي استغرقها الاستعداد، وقد شوهد السلطان اكثر من مرة يذهب الى وادي الرها، وشوهد أيضاً اخوة السلطان واقرباؤه، وقد ظهر البشر والتحفز على وجوههم. وسمعت عدة مرات، وفي اوقات مختلفة من الليل والنهار، طلقات رصاص، وتبرع الذين يعرفون اكثر من غيرهم في تعليل الامر بانه لوداع الافواج التي تحركت. وقيل ان الرصاص

الغزير الذي سمع ليلة الاثنين من جهة وادي الرها، كان لوداع الامير خزعل الذي تحرك على رأس الكواكب السيارة، وأكد بعض الشباب ان السلطان اول من اطلق الرصاص، إذ اخذ بندقية خزعل، عمّرها بنفسه، رفعها على كتفه واطلق. وقال آخرون ان الرصاص الذي سمع في الليل المتأخر، من ليلة الإثنين ذاتها، ومن جهة وادي الرها، هو الرصاص الذي اطلق على ثمانية من جماعة ابن ماضي، وقد قبض عليهم في اليوم السابق، وتفاوتت الروايات كثيراً بخصوص هؤلاء، قيل انه قبض عليهم يوزعون المال الذي ارسله ابن ماضي، وقيل انهم جاءوا ليرصدوا حركة الجيش وليعرفوا معلومات عن عدده واسلحته. وقيل ايضاً إنهم متسببون فقراء جاءوا لشراء بعض الدواب، ومما اكد ذلك أن صرر الدراهم التي كانت معهم أثارت السخرية لقلة ما فيها، ولأن بعض الدراهم كان قديماً وغير متداول. أما حمد الشايع الذي ظل غائباً ولم يسمع عنه اي خبر، فقد جاء من أكد أنه اعدم مع الذين اعدموا!

ما كاد الأسبوع الأخير من آذار يقترب حتى خرج ضارب الطبل ليبلغ الناس. كان يدق طبله بقوة ويصرخ:

- لبيك اللهم لبيك - لا شريك لك لبيك.

يستريح قليلاً ثم يتغير صوته:

- الحاضر يبلغ الغايب يا اهل موران، السلطان يقول هذا اليوم يومكم يا نشامة. هذا اليوم اللي يمشي به يغنم، وأبد ما يندم، ويلزم الحاضر يبلغ الغايب يا أهل موران.

ويدق الطبل دقات قوية، حتى إذا تطامن الصوت وانزلق الى الصمت، خرج صوت مبدر الذي يسير الى جانب قارع الطبل:

- يا راكب اللي هجَّيجها زين
ما ضيقتْ صدر راعيها
ممشى العشر تأخذه بيومين
تجيك ما ملّ راعيها.

وتتابعت قوافل الجند باتجاه العوالي، كان عويد المشعّان على رأس قافلة، وابن مياح على رأس قافلة اخرى. وكان خزعل في قافلة ثالثة، تبعتهما بعد

عشرة أيام. أما قافلةالسلطان، وكان ضمنها فنر، فقد تأخرت في التحرك ثلاثة اسابيع، وتأخرت في الطريق كثيراً، إذ أخذ السلطان الطريق الشمالي، وهو الاطول، وكان يتوقف في القرى والدساكر ليتلقى تأييد ومبايعة الذين يسكنون على جانبي الطريق، او الذين يقدمون من أماكن أبعد حين يسمعون باقتراب قوات السلطان.

حرب العوالي، في معاركها الثلاث، في التعقيد والتشابك وتداخل المصالح ثم تضاربها وتناقض المعلومات، الى درجة تجعل من الصعب روايتها أو الكتابة عنها. فاختلاف الرواة وتناقضهم، وتغير مواقع القوى، وبالتالي تغير مواقفها، ثم غياب الكثير من الشهود، ولا حاجة للوقوف طويلاً عند أسباب غياب هؤلاء! يحوّل التاريخ الى مجموعة هائلة من الأكاذيب والتلفيقات، وإذا كان التاريخ، بصورة عامة، هو تاريخ المنتصرين، ووجهة نظرهم، فغالباً ما يميل المنتصرون، زيادة في النكاية والسخرية، الى رواية الحدث الواحد بأشكال مختلفة للغاية، ولا يتم ذلك دائماً بسبب سوء النية أو النسيان، وإنما أيضاً نتيجة الظروف الآنية، وما تمليه من اعتبارات، ونتيجة لتراكم الأكاذيب الصغيرة، والأوهام لتصبح وحدها في النهاية وهْم الصدق المطلق، أو الرواية الحقيقية الوحيدة للتاريخ الموهوم!

فخريبط الذي تأخر في موران، لم يكتف بأن يأخذ الطريق الشمالي للوصول الى العوالي، وإنما اطال وقوفه في الكثير من محطات الطريق، ليتلقى البيعة، ويطمئن إلى اوضاع الرعية، ولكي يستكمل استعداداته أيضاً. أما النجاب الذي ارسله العم دحيم، قبل موقعة السمحة بثلاثة أسابيع، الى السلطان، حاملاً معلومات دقيقة حول نوايا ابن مياح، فقد وصل والسلطان على ماء عين دامة، وكان يفترض ان يحمل جواباً ويعود سريعاً، لكنه استبقي، ولم يرسل غيره. أما لماذا حصل ذلك، فحول هذه النقطة الثانوية جداً، مثلاً، احدى عشرة رواية، كما دونها أحد الباحثين، وقد قتل هذا الباحث بعد سنة من كتابة البحث وقبل نشره، في ظروف غامضة! طبيعي لا يمكن اعادة ما كتبه الباحث لأن اوراق البحث ذاتها اختفت أيضاً، وحول هـذه النقطة الأخيرة وجهات نظر متعددة. قيل ان البوليس اثناء التحقيق جمع الادوات الجرمية والثياب والاغطية الملطخة

بالدماء وبصمات الاصابع، وكانت الاوراق ضمن ما جمع. وقيل ان البوليس حين سئل عن الاوراق كانت الإجابة انه لا يهتم أبداً بالاوراق والكتب ولا بأفكار القاتل او القتيل، لإنها لا تعني له شيئاً، كما انها ليست من اختصاصه. وقيل: الكتب والأوراق بيعت، مع أشياء اخرى، باعتبار ان لا احد طالب بالتركة، ولم يعرف للقتيل اقرباء يرثونه! وجاء من همس ان الباحث، قبل اسبوعين من وقوع الجريمة، سلم المخطوطة لاحد أصدقائه لقراءتها وإبداء الرأي فيها. وهذا الصديق، عندما سئل اجاب انه اعادها بعد ثلاثة ايام لانه لم يستطع ان يقرأ الخط. وأكد صديق آخر يعرف الاثنين، ان المخطوطة سلمت بعد يوم واحد فقط، ومن قبل من تسليمها للقراءة، الى احد مستشاري السلطان، وحين تم الاطلاع عليها جاء من أشار بضرورة التصرف بسرعة وحزم، لأن المرحلة تقتضي رص الصفوف وشد عزم الامة، لا إثارة البلبلة واقلاق الراحة. أما المخطوطة ذاتها فقد اختفت، ولا يعرف ما إذا اتلفت ام حفظت!

أما كيف عرف أن هذا الباحث جمع إحدى عشرة رواية حول وصول النجاب الى عين دامة، فهذا ما قاله أحد أقرباء ابن مشعان، الذي يعرف النجاب، وقد التقى به في نهاية الحرب وكان هذا القريب ضمن من قابلهم الباحث ليسمع منهم، وبعد أن روى له ما سمع، ابتسم الباحث وقال: هذه هي الرواية الحادية عشرة!

وكما تبدو هذه الرواية مشوشة، وربما مدخولة، فإن الروايات الاخرى لا تقل عن ذلك. مهيوب، رئيس حرس السلطان اشار أن رسالة النجاب، وكانت شفوية، اثارت الريبة لدى السلطان، ولذلك حجز النجاب، دون أن يُشعره بذلك، إذ كلف به ثلاثة يرافقونه ولم يسمح له بمغادرة المعسكر. عنان بسيوني الذي رافق السلطان في هذه الحملة، يؤكد ان السهو هو الذي أدى الى عدم الإجابة، لأن مشاغل السلطان كانت هامة وكبيرة، ولا يشير بعد ذلك الى هذه المشاغل أو إبراز اهميتها. شيخ الصاغة، يتذكر أنه سمع بوصول رسالة ورسول من العم دحيم، لكن لا يتذكر ما بعد ذلك. أما السلطان فيعتبر أن كاتبه عرفان الهجرس، هو المسؤول عن نسيانه. فرغم أنه أوصاه، منذ وقت طويل، بضرورة أن يذكّره بالامور المهمة او التي تستحق التذكير، «لأن عقل البني آدم ما هو دفتر» الا أن ابن الهجرس لم يذكّر السلطان في

عين دامة. عرفان اسر لبعض الذين يثق بهم من الاقرباء، وقد نقلت احدى قريباته، وكانت قد سمعت منه أن السلطان تعمد النسيان، وقد ذكّره عرفان بالأمر ثلاث مرات في ثلاثة أيام متوالية، وكان في كل مرة يهز رأسه ويبتسم؛ وعرفان يفهم معنى الحركة والابتسامة، أو ما يعني باختصار: الأمر لا يستحق الاهتمام!

اقوى الروايات وأكثرها تداولاً، على الأقل خلال الفترة الأولى، تلك التي رويت عن لسان دحيم، عم السلطان. إذ بعد أن وصلت طلائع الجند الى الصفا، وكان يفترض أن تخيم وتبقى هناك الى حين وصول جند الامير خزعل، او اوامر من السلطان لمتابعة المسير، بدأ ابن مياح يعد العدة، وبسرعة، للوصول الى السمحة. اكثر من ذلك بدا غير مستعد لسماع اية وجهة نظر أخرى، وكان، بين خاصته، يهدد ويتوعد أن يجعل السمحة أثراً بعد عين، وقد ادى هذا الموقف إلى خلاف مع دحيم، وإلى حدة في العلاقة بين الإثنين، مما دفع دحيم الى البقاء في الصفا. ولم يتردد ابن مياح، في إحدى المرات، وأثناء مناقشة مواصلة الزحف والخطة التي يجب اتباعها أن قال لدحيم:

- اترك، يا ابن الحلال، أنا والسلطان، من حلقه لاذني، قال: ما هو كل يوم نقدر على ابن ماضي، وما دام صار لنا فلا تترك حجراً على حجر، ولا تترك أحد يعتب عليك، ولا تسمع أي شيء من أحد ثاني!

أما ما كان يجب ان يُفعل، ولماذا لم يُفعل، ومن المسؤول، فإن اختلاط الوقائع وتشابكها لا يترك مجالاً لحسم الكثير من النقاط.

لكن قبل إصدار الأحكام أو تقييم النتائج، لا بد من السؤال الأساسي: ماذا حدث؟

حتى هذا السؤال الذي يفترض ان لا يكون موضع خلاف كبير، فإن الإجابة عنه تتفاوت أشد التفاوت.

احد الذين كتبوا سيرة السلطان، وقد جرى ذلك، بعد حملة العوالي بسبع سنين، كتب ما يلي: «وابن مياح، ذلك المتعصب، الضيق الافق، والذي كان يمتلىء غروراً وطموحاً، لم يمتثل لاوامر السلطان، إذ اندفع، كما تندفع

الحيوانات الهائجة، واستغل عنصر المفاجأة، ليهاجم السمحة، وكانت جنود حاميتها في غفلة عما يجري، إضافة إلى أنها حامية قليلة العدد. وبعد معركة لم تدم سوى بضع ساعات اندحرت الحامية، وأعلن من فيها التسليم، لكن ابن مياح طلب من جنده ان يلاحقوا رجال الأعداء ويفنوهم عن بكرة أبيهم. وقد امتثل الجنود للأوامر، وقاموا بأعمال قاسية، وحين وصلت الأخبار الى صاحب الجلالة السلطان استشاط غضباً، ثم غرق في الحزن، وقد شاهده الكثيرون يبكي والدموع تتساقط على لحيته. وبعث ابنه فنر على عجل لكي يضع حداً للمجازر والاساءات التي ارتكبها ابن مياح».

احد «المؤرخين» الذين سجلوا تاريخ موران، كتب عن موقعة السمحة الآتي: «ثم اندفع جند موران دون أن يدري بهم أحد، وإشتبك الطرفان بمعركة دامت عدة ساعات، أسفرت عن هزيمة جنود ابن ماضي، وقد رابط عدد من هؤلاء الجنود في الهضاب القريبة، وشرعوا يطلقون مدافعهم على المجاهدين الزاحفين، ودامت الحال ثلاثة أيام دون فائدة، تدفقت بعدها قوات موران على المدينة. وفي هذه الأثناء أخذ بعض الاهلين يطلقون الرصاص على جيش موران، مما ادى الى مذبحة رهيبة لم تقف الا بتدخل ابن مياح ذاته، ولما درى السلطان بذلك أصدر أوامره المشددة بعدم التعرض للسكان الآمنين المسالمين، وأمر بدفع التعويض لجميع الذين سلبت أموالهم أو أصيبوا بفقد عزيز، وأمر بتأليف لجنة خاصة لهذا الغرض النبيل».

وكتب باحث جاء الى موران متأخراً ليقوم بمهمات كثيرة، بما فيها كتابة التاريخ، كتب عن تلك الموقعة: «دخل جند موران السمحة كالسيل الجارف، وهم يكبرون ويهزجون ويطلقون بنادقهم في الفضاء، ثم طفقوا يطلقونها في الأسواق، وهم يطوفون المدينة، فقتلوا عدداً من الابرياء...

«وكان قد تخلف في المدينة جماعات من البدو، ناهيك بمن دخل مع الجيش، فاختلطت هذه الجموع في ظلمات الليل، وكانت ساعة الهول والفزع. راحوا يطرقون الأبواب ويكسرونها فيدخلون البيوت اما قهراً واما بعد أن يؤمنوا أصحابها، ثم يعملون فيها أيدي السلب، وكانوا يقتلون في سبيل السلب».

أما هاملتون، فكتب عن موقعة السمحة، بعد سنوات ما يلي وقد اعتمد على اليوميات: «فلم يلق جيش موران مقاومة تذكر، وحين اندحر جيش العوالي، فرّ مع الجيش الآلاف من السكان والمصطافين. وطارد جنود موران القوات المتقهقرة واللاجئين، فقتلوا جميع الشاردين منهم، واشتبكوا مع قوات العوالي ففر جند ابن ماضي في حالة من الاضطراب عبر المنحدر الجبلي العميق. أما ابن مياح مع بقية جيشه فقد أعمل السيف في سكان السمحة واخضعهم لحكم ارهابي، قاتلاً المشركين. ونهب جيشه كل بيت وكل انسان».

ويضيف هاملتون «كان هذا كافياً لبث الرعب والذعر».

وفي وقت متأخر كتب مؤرخ محايد حول تلك الوقعة «وقد استولى جند موران على خزين الذخائر العسكرية في السمحة، واستبيحت لمدة ثلاثة أيام، وفر الكثير من أبنائها، وسقط المتبقون صرعى بأيدي جند ابن مياح».

والباحث الذي جاء الى موران والعوالي ليدرس ويدون تاريخ المنطقة وجغرافيتها كتب عن الأيام الثلاثة التي أعقبت دخول المدينة ما يلي: «وبدخول ابن مياح أمر بجمع السلاح وبتفتيش البيوت، فاضطر لذلك أن يخرج الأهالي منها، فسيقوا نساء ورجالاً وحبسوا في حديقة عامة ثلاثة أيام، ثم أطلق سراحهم وأذن لمن شاء منهم بالخروج من المدينة»

لم تكن معركة السمحة، إذن، واحدة من معارك عديدة يمكن على ضوء نتائجها أن يتقرر مصير الحرب، ومصير ابن ماضي. كانت البداية، وكانت النهاية معاً.

فالذين شكّوا بقوة خريبط، او الذين كانوا يشكّون بامكانية أن يغزو العوالي، رأوا بأم اعينهم جنده يندفعون فلا يقف في وجوههم احد، وحتى المقاومة الضعيفة هنا أو هناك كانت بهدف المشاغلة والتأجيل، من أجل ترتيب صيغة ما لابن ماضي. والذين أكدوا أن الإنكليز لن يسمحوا بتقدم قوات خريبط، اكتشفوا انهم كانوا مخطئين، فالإنكليز هم الذين طلبوا من خريبط أن يغزو العوالي، ومما عزز هذه القناعة وأكدها أن الأموال التي صرفت، والأسلحة التي ظهرت، إضافة الى العدد من المستشارين الذين كانوا يأتون بين فترة وأخرى، وكانوا يدربون

الجنود على المدافع الجديدة، لم يكن ليتم لولا موافقة الانكليز وتشجيعهم! ولم يكن الأمر بحاجة الى براعة أو ذكاء لمعرفة هذا التحول الذي حصل. وأن يقع هذا التحول تتحول عواطف الكثيرين ومواقفهم.

أما بعد معركة السمحة، وما جرى خلالها، فقد قال الكثيرون: «أفضل طريقة ان يراقب الانسان نطاح التيوس والأسلم ان لا يقترب منها».

فابن مياح الذي اندفع بتلك الطريقة، كأنه يريد أن تنتهي الحرب منذ أيامها الاولى، هدفه أن يكون وحده المنتصر. والسلطان كان يرغب للحرب أن تنتهي في أيامها الأولى أيضاً، لكنه يريد أن يكون المنتصر الوحيد، ولذلك نسي الرد على رسالة عمه، وترك الحرب تمتد شهوراً طويلة لأنه خلال ذلك سيكون أقدر على ترتيب الوضع لما بعد الحرب.

قناصل الدول كتبوا الى دولهم أن خريبط يتقدم، وأنه وحده الذي يزداد قوة، في الوقت الذي يتراجع فيه الآخرون، خاصة ابن ماضي، ويضعفون. وكتبت الدول الى القناصل أن يحرصوا على شيئين اثنين: ان يقيموا علاقات، لكن حذرة، بالسلطان خريبط، وأن يكسبوا وده، ويجب أن يبذلوا اقصى جهدهم للمحافظة على أرواح مواطنيهم والمواطنين الاجانب. أما فيما يتعلق بالمذابح التي جرت، والفظائع التي ارتكبت، والتي إقشعرت لها جلود القناصل، وابدوا تأثراً زائداً، وبالغوا بالوصف والارقام وايراد الوقائع، فقد أشارت الدول الى قناصلها أن الامر شأن داخلي، ويحسن عدم التدخل فيه، لكن يجب، مع ذلك، مراقبة كل شيء وتقصي أدق المعلومات، لأن الوقائع والمعلومات ستكون ذات فائدة في المستقبل!

ورغم ان رسائل القناصل كانت تفيض بالعاطفة وتمتلىء بالتفاصيل، ولم يتورع قنصل هولندا عن تسجيل اسماء عدد من العائلات التي أبيدت، وتعداد الاموال التي سلبت، وقد أورد القنصل جميع ذلك اعتماداً على مشاهدة رجل عيان، فإنه لم يذكر اسم الشاهد، وكان جواب هولندا الى قنصلها: «في الشرق غالباً ما تكون الحروب بهذا الشكل، ولذلك نرى أن تتحرى بدقة، وأن تكون شديد الحذر في علاقاتك مع الذين يزودنك بالاخبار»!

الامهات اللواتي كن يعرفن اسم عويد المشعان، وكن يخوفن أولادهن باسم هذا الوحش، فجأة تراجع هذا الاسم، واصبح اسم ابن مياح على كل شفة ولسان. وبالغت النساء في رواية الروايات عما حصل في السمحة، وقد ادى ذلك الى غضب الرجال، لأن الحديث، حين كان يجري كان يولّد ظلالاً من الشهوة، هذا، على الاقل، ما يستشعره الرجال في أحاديث النساء، وكان غضبهم يتغلف بشجاعة خائفة، او بذلك المزيج من التقدير مع الكراهية!

ابن ماضي لا يريد ان يصدق ما حصل، فغضبه يزداد يوماً بعد آخر، ومع الغضب الشتائم وتحريك القطع العسكرية، والتدخل بكل صغيرة وكبيرة، حتى ما يكتب في جريدة «الزمان» من مقالات كان يقضي ساعات في مراجعتها و«تعزيز همتها» كما يقول، حين يستبدل كلمات بأخرى، أو حين يضيف بعض الكلمات والعبارات أو أبياتاً من الشعر. ومع زيادة التدخل، وفقدان الثقة بالآخرين، أو الشعور بفتور حماستهم، تزداد الاخطاء، وتتراكم الهزائم، ويزداد معها الشعور بالإحباط وخيبة الامل.

لماذا وقع كل هذا وكيف حصل التحول بهذا الشكل وبهذه السرعة؟ ولماذا يصبح حتى الابناء والأقرباء واكثر الناس صلة، وخاصة الكبار، خصوماً؟ لماذا يتحولون؟ لماذا يتكلمون في الوقت الذي يجب أن يصمتوا، ويقدمون أفكاراً وإقتراحات مليئة بالجبن وإن كان ظاهرها الشجاعة؟ حتى الشجعان الذين يريدون أن يموتوا، فإنهم يفتقرون إلى الأسباب الوجيهة التي تجعل موتهم مبرراً أو ذا معنى!

وإذا كان ابن ماضي يجد نفسه في هذه الدوامة من الهزائم وخيبة الامل وتراكم الأخطاء وعدم الفهم، وحتى التنكر، فأكثر ما يعز عليه، وأكثر ما يؤلمه، إن لا احد يفهمه، حتى زوجته التي يحبها، ويسمع منها الكثير، يجدها مع الآخرين اكثر مما هي معه. فالأبناء والمستشارون حين يجدون صعوبة في التفاهم معه، فإنهم يلجؤون الى الاميرة، كما يسمونها، ويبالغ بعضهم فيسميها الملكة؛ وبطرق بدائية، وبحيل مكشوفة، وبتلك القصص التي يتناقلها السقاة والخدم يملؤون رأسها، فإذا امتلأ لا بد أن تفرغه، ولا تجد غير زوجها

والاولاد الصغار. كان ابن ماضي يعاني أشد المعاناة. كان يصرخ، يعربد، يرفض أن يستقبل هؤلاء المجانين الذين وفدوا عليه دفعة واحدة، ولا يعرف كيف او من دفعهم. فإذا استطاع لهم ردا، أو استطاع بما تبقى لديه من قوة ودهاء أن يتكلم معهم بطريقة توضح لهم أكثر مما ترضيهم، كان يجدها في القسم الخلفي من القصر، أو في الليل المتأخر، تنتظره لكي تقص عليه، ما يعرفه الصغير والكبير، وبالتالي لكي تطلب منه طلبات لا يعرف كيف أمكن للآخرين أن يقنعوها بها، أو كيف استطاعت هي أن تقتنع بها. عندئذٍ يثور، يحطم، يصرخ، وأخيراً لا يجد سوى الوحدة ملجأ ومهرباً!

قال بعض خدمه، إنه لا يفعل شيئاً سوى أن يدير رأسه من ناحية إلى أخرى. أصبح رأسه، كما يقول مفرّح، خادمه الذي لا يكاد يفارقه: مثل بندول الساعة، لا يتوقف ولا يهدأ. فإذا أراد أن يستريح فإنه يغير اتجاه حركة الرأس من الحركة الافقية الى الحركة العمودية.

الرسائل التي تأتيه من أولاده، ومن قادة الجند، وحكام المناطق، وحتى من شيوخ القبائل او الاحياء، لا بد أن يعرف مرسليها قبل أن يفضها، وكثيراً ما أعاد الرسائل أو مزقها دون أن يقرأها. كان يعرف لماذا أرسلوها، وماذا يريدون أن يبلغوه بها. ولانه يخاف قوّته مثلما يخاف ضعفهم، فقد ظل حريصاً على أن يبقى في تلك المنطقة العازلة. إذا لم يمتثل له الآخرون، إذا لم يفهموا، بعد كل ما حدث، ويقفوا عن قناعة الى جانبه، فإنه من ناحيته لا يريد أن يسمع كلمات الخوف والضعف، ولا يريد للذين عرفهم في اوقات سابقة وأوضاع أخرى، أن يراهم الآن، ومن خلال الرسائل، وقد ضعفوا أو تراجعوا، ليس ذلك فقط، وإنما امتلؤوا فجأة بهذا الكمّ من العقل والحكمة! كان يتساءل، في أحيان كثيرة، كيف يمتلك الجبناء والضعفاء والمهزومون هذا القدر الكبير من الحكمة، يخرجونه كما لو أنهم يَسْلَحُون على أنفسهم. ويباعد ما بين ساقيه، يحك هناك، ويقول: «الاصدقاء الجبناء هم الذين يسببون الهزيمة، اكثر مما يفعل الاعداء».

خريبط، في الضفة الاخرى، يلعب اللعبة ببراعة وأحكام: اضرب، اضرب بقسوة، حيث لا يتوقع، ولا تتركه يرتاح يوماً واحد. تقدم دائماً، والتقدم ليس

فقط الى الامام، إنه في بعض الاحيان بالتراجع، باخلاء بعض المواقع، حتى لو كان الامر مجرد عبث، فقط لتجعل الآخر يحار فيما تفعله. والعبث، او عدم المنطق، اثناء الحرب، يمكن أن يكون منطقاً، طريقة مناسبة، لإنهاك الخصم، خاصة اذا كان شيخاً، ويفترض انه امتلك الحكمة كلها! اعمل الشيء الذي لا يتوقعه أبداً. وحارب بأساليب وبقوى لم يألفها ولم يتصور إنك تملكها. ويمكن أن تجند عليه أقرب الناس إليه. لوّح لهم، اقنعهم، إبعث بالرسل والهدايا والوعود، ابعث كل ذلك مع أشخاص يثقون بهم، او على الاقل يعرفونهم، وليس المهم ان تكون صادقاً في الوعود او غير صادق، المهم الآن ان تخرّب جبهة العدو، أن تنفذ إليه من كل المسارب، وعند ذاك، وبعد ان تصل إلى المواقع التي تريدها، تبدأ بمفاوضته من حيث وصلت لا من حيث بدأت. أما الشيوخ، فإن أقسى حرب يمكن أن تشنها عليهم هي أن تدمر أعصابهم، اذ لم يبق لهؤلاء سواها، بعد أن غادرتهم قواهم وآمالهم، وعليك أن تضرب في موضع الألم، يجب أن تضرب الرأس والخصيتين، وكلما كانت ضرباتك شابة، كانت مؤثرة. الضربات الشابة هي الضربات المختلفة عما يتوقعون وينتظرون، وهي التي تؤثر فيهم ويمكن أن تدمرهم.

شهور طويلة في حرب لم تتوقف يوماً واحداً، ولا يشبه فيها يوم يوماً غيره، ولا يشبه مكان المكان الآخر.

قال ابن مياح لعويد ذات ليلة، وبعد انقضاء شهور على سقوط السمحة:

- يا أبو محجم.. ترى سالفتنا طالت، وهذا خريبط حاط يد على الرحمان ويد على الشيطان!

رد عويد وهو يبتسم بحزن:

- اللي به عادة ما يتركها يا ابن الحلال، ومن قبل قالوا: يظل ذنب الكلب بالقصبة اربعين يوم ويخرج أعوج!
- لكن حنا ما عاد بنا صبار. اهلنا وديرتنا وأولادنا، فإذا ما مشى، وحدنا مشينا، وإذا ما تحركنا راحت علينا!
- حسابات الشيوخ، يا أبو جازي، طويلة وما تخلص، فإما تصبر عليهم او يصبرون عليك، لكن أبد ما تعرف شلون يفكرون وشنهو اللي يريدونه.

رد ابن مياح بعصبية :

ـ يا ابن الحلال قلنا لربعنا إنها يوم والثاني ، وتذكر يوم السمحة ، كنا متفقين إننا إذا صيّفنا هنا نرّبع بآخر العوالي ، لكن ، مثل مـا تشوف عينـك : الصيف انقضى ، وعقبه الشتاء ، وهذا اول ربيع ، وما ينعرف بعده كم ربيع يجي . وإذا قلنا وحكينا يقول : طولة البال ما مثلها ، وهذا ابن ماضي العود فارق ، ها لحين أبو الزغب إذا تحمل الصيف ما يتحمل الشتاء ، وكل شيء بوقته زين .

العم دحيم الـذي غضب خلال فترة معينـة ، لأن السلطان لم يجب عـن رسائله ، ما لبث ان اصبح شخصاً آخر . قال له السلطان بعد معركة السمحة بشهرين ، وكان هذا اول لقاء :

ـ . . . وتعرف ، يا طويل العمر ، هذي حرب ، وبالحرب كل شيء يصير . حنّا بحاجة الى ابن مياح والى عويد . وأنت تعرف الجماعة : بين الصلاة والصلاة صلاة ثالثة ، وبين الركعة والركعة ركعة ثالثة . وكأن الواحد منهـم يسلّـف رب العالمين ، أو أنـه يتصـور دينه على الله ، ها لحين ، اكبر من الجبال ، ومثل ما قلنا بموران : يلزم نأخذ الناس على قدر عقولهم ، فتركنا السمحة لابن مياح ، وهذا دين ، ويلزم نرد دينه ، اذا ما هو اليوم اللي عقبه ، والسمحـة ، والشهادة لله ، ما تركت لابن حرة قلب ، كل واحد يتلمس على رأسه ويقول : الله يستر . وصل خريبط وجماعة خريبط ، ومثل ما قالوا جماعتنا : صيت الغنى ولا صيت الفقر !

رد دحيم ، وكان صوته رخيماً :

ـ اللهم قدّم اللي به الخير .

وتغير صوته قليلاً :

ـ وحنا نريد ، يا أبو منصور ، رضا الله ورضا الوالدين !

وحين بدأ العم دحيم يتساءل ، ولا يسأل ، كيف ستكون المعارك القادمة ومتى ، رد السلطان إن الأمر يتطلب مدة ، انتظار وصول قنابل المدفعية ،

وإصلاح المدافع المعطوبة . وأشار الى أنه بعث بطلب الذخيرة والمهندسين الذين يصلحون الأسلحة .

فضة لم تكن فقط مع السلطان ، وإنمـا كانت في أحسن حـالاتها ، لإنهـا أنجبت الولد الرابع ، في هذه الحملة ، ورغم أن السلطان تزوج في محطة من محطات الطريق ، فقد كانت شديدة السـرور بعد معـركة السمحـة ، وطلبت ، وألحّت كثيراً ، ان يسمى السلطان الابن الذي سيولد منصور ، لكنه تردد ، وانتابه الحزن وعاودته الذكرى ، مما اضطـر فضة الى صرف النظر ، واختارت ، وبمساعدة اثنين من أقربائها . تسميته : فواز ، وهذا ما حصل .

هاملتون الذين قضى شهوراً طـويلة في بلاط ابن مـاضي ، وأبدى حـرصاً واضحاً لكي يصل مع خريبط الى نتائج ترضي الطرفين وتنهي النزاع ، ما لبث ان صمت ثم غاب ، عندما بدأت الوساطة بين الطرفين . أما الآن ، وبعد أن سافر ابن ماضي ، وجاء مكان ابنه المعز ، فقد جاء هاملتون أيضاً في زيارة خريبط :

ـ . . . والجماعة ، يا طويل العمر ، مستعدون للموافقة على أية مطالب : ترسيم الحدود ، بما في ذلك المناطق التي تم الاستيلاء عليها ؛ إقامة علاقات حسن جوار وصداقة ؛ إنهاء منازعات المياه وإسقاط المطالب . . .

ويبتسم هاملتون ويضيف كأنه يكلّم نفسه :

ـ كل هذه المطالب مرفوضة ، ولا بد الآن ان ترحل عائلة ابن ماضي نهائياً وتترك الامانة للامة لكي تقرر ما تراه مناسباً لمستقبل العوالي .

وبدون صعوبة يفهم السلطان تماماً .

ولم تمض شهور حتى قال السلطان لابن مياح ولعويد ، وبجفاء :

ـ اذا كنتم تريدون تشاركون فنر المعركة فأهلاً ومرحباً ، حنا حضرنا كل شيء ، والمعركة بين يوم والثاني ، ولا بـدّ نخلص من آل ماضي ونرفع راية الإسلام .

صمت قليلاً ، تطلع الى الرجلين بنوع من التشفي وتابع :

ـ وحنا ، إذا قلنا كلام ، إذا أعطينا قول ، أبد ما يصير اثنين ولا نتراجع عنه ، لكن ،

يلزم للبني آدم أن يتحضر، والحرب هذي الأيام ما هي مثل قبل، تحتاج، هالحين: المدافع والذخيرة. . . وحتى الطيارات، مثل ما شفتو قبل كم شهر، لما رمونا من السما.

تنفس ملء صدره، صمت، ثم أضاف، وكان صوته حاداً ومزهوا:

- وها لحين، وبتوفيق من الله، وبعدما حضرنا كل شيء، ترانا إذا ما مشينا اليوم نمشي اللي عقبه، فاللي يريد يمشي معنا فأهلاً ومية مرحباً، واللي ما يريد بكيفه!

ولم يكن أمام الرجلين سوى أن يظهرا استعداداً وصل حد المبالغة، فقط يحتاجان الى فترة قصيرة من أجل أن يستعدا. قال دحيم:

- ترى قوات طويل العمر كافية وزود، بس أبد منصور ما ينسى احد، وقال جماعتنا، وأبد ما ننساهم، ويريدكم تكونون معنا.

قال السلطان بنوع من الغضب:

- اللي قلته، يا طويل العمر، هو الصحيح، بس يرحم والديك لا تلح ولا تحرج احد، لأن الله لا يكلف نفساً الا وسعها!

قال عويد:

- حنا حاضرين وجاهزين يا طويل العمر، وانشاء الله نبيّض الوجه.

قال ابن مياح:

- لا احد يقدر يمنع مؤمناً من الجهاد في سبيل الله.

وبهذه الطريقة تم الاتفاق على معركة الطريفة، وهي آخر معارك العوالي.

أثناء الاستعداد لمعركة الطريفة، والتي يفترض أن تكون آخر المعارك في العوالي، وعلى ضوء نتائجها يتقرر مصير الحرب، وقعت اضطرابات على الحدود، من جهة الحويزة، وقد تضاربت الاخبار حولها كثيراً، الأمر الذي اضطر السلطان لإرسال ابنه خزعل على رأس حملة لقمع الفتنة وتأديب العصاة، وأوفد معه أيضاً ابن مياح والعم دحيم.

وقد أوصى الجميع، وبلهجة قوية، وقيل غاضبة وقد شابها الخوف، ان يكونوا في منتهى الحزم، «لأن الأمور لا تحتمل، وما عندنا لحية مشطة، خاصة بهذا الوقت».

ورغم أن السلطان كان على ثقة ان تلك الاضطرابات ليست بعيدة عن تأثير ابن ماضي، وهي للمشاغلة وتشتيت القوات، أكثر مما هي خطرة، وتشكل تهديداً للسلطنة، فقد حرص أن يكون ابن مياح مع القوات المتجهة إلى هناك، لأنه يريد أن يتفرغ للمعركة الرئيسية هنا، وأن لا يشاركه احد في جني ثمار النصر. قال لخزعل يوصيه:

- أنت في الحويزة السلطان، أنت اللي تؤمر وتحكم، ويلزم الكل يطيعك؛ حتى عمي دحيم أنت فوقه.

يصمت قليلاً، يفكر، ويخرج صوته صلباً:

- وابن مياح إذا شاخ، إذا قال يصير وما يصير، تكسر رقبته، وما عندنا كبير الا البعير.

أما مع عمه دحيم فتكلم بطريقة ثانية:

- . . . وتعرف يا عم، الجماعة هنا يلزم لهم كم عصا، ويلزم لابن مياح ان

ينفث، فاتركوه يتناطح وياهم الى حين ما يتعبهم ويتعب، وإنشاء الله شهر والثاني موعدنا، من جديد، بموران!

وتغير صوته:

- وخزعل يلزمه يتعلم شلون يحكم، لأن البني آدم مهما عاش آخرته الممات، وإذا كنا هالحين عايشين وفوق راسه. ونقول له سوِ ولا تسوِ، باكر أو عقبه يكون شوره من راسه، ويلزم أنه يكون شاف وتدرب.

وبعد قليل وبلهجة ودودة:

- وأنتم فوق رأسه تشورون عليه، وأنا وصيته أنه ما يسوي أي شي الا بشوركم وبمعرفتكم، وظني أن الامور هناك سهلة، وهو كان معنا أيام الحويزة ويعرف الديرة والناس، والناس تعرفه وتحبه.

مع ابن مياح كان شخصاً مختلفاً:

- . . . بالشدايد ما لنا غيرك يا أبو جازي، وأنا ما اخترتك الا لثقتي بك ولاعتمادي، بعد الله، عليك.

تنفس بعمق ثم أضاف:

- انا خايف يا أبو جازي أن الجماعة هناك ما تحركوا الا ومن قال لهم السلطان والجيش كله بالعوالي، وإذا براسكم شي هذا اليوم يومكم، والجماعة ما يقدرون يردونكم، بعيدين ومشغولين بابن ماضي . . . .

وتغيرت اللهجة:

- واريد منك، الله يسلمك، ان تثبت لهم ان يدنا طويلة، وأن إيمانًا بالله ورفع راية الإسلام ما يأخرنا عنه شي، ويلزم يتأدبون ويعرفون حدهم، وهذول شيوخهم واللي قالوا لهم ثوروا، اريدك ما ترحم منهم احد.

وعاد الى اللهجة الاولى:

- وخزعل مثل ولدكم تشورون عليه وتوصونه. . .

وضحك السلطان وهز رأسه، وبعد قليل:

- والاولاد، يا ابو جازي، راسهم حار ومستعجلين، والواحد يلزم ياخذهم على قدر عقولهم!

هاملتون الذي أشار على السلطان أن يبعث الى الحويزة خزعل وابن مياح كان أكثر خشية من السلطان، أو هذا، على الأقل، ما أشعره به:

- في أحيان كثيرة، يا صاحب الجلالة، تتغير الامور في اللحظات الأخيرة، وهذا تاريخ الحروب يشهد على ذلك، فكم من خدعة انطلت على اكبر القادة، وغيّرت مصائر الحروب والدول. قرطاجنة على سبيل المثال. . .

وكاد يسترسل في حديث تاريخي، لكن السلطان ابتسم وتطلع اليه باستغراب، ابتلع هاملتون ريقه وتابع:

- التاريخ يعلم الانسان الدروس، ويجعله اكثر وعياً واقدر على اتخاذ الخطوات المناسبة.

ولما وجد السلطان بعيداً ويفكر بأمور اخرى، اضاف بلهجة جديدة:

- صحيح ان الامور في العصر الحاضر اختلفت كثيراً عن العصور السابقة، لكن مع ذلك اعتبر ان حوادث الحويزة خطيرة، خاصة في هذه المرحلة، ولا بد من معالجتها بحزم وبسرعة.

قال له السلطان وهو يبتسم:

- أنتم، الله يسلمك، تعرفون بالتاريخ أحسن منا حنا يا البدو، بس حنا البدوان، ولا تزعل من هذي الكلمة، نعرف جماعتنا وديرتنا أحسن من غيرنا!

- بكل تأكيد يا طويل العمر.

- وهذول أهل الحويزة، وحنا بهم ادرى، قالوا لأرواحهم مادام السلطان بعيد، نضرب بهذي الظلمة، فإذا ما حصّلنا اللحم ما يفوتنا المرق.

وتغيرت ملامح السلطان تماماً، اصبحت أقرب الى الحزم:

- لكن، وبمشيئة الله، وبقدرته، سبحانه وتعالى، لا بد ينكسون وترتد رماحهم لصدورهم، ويلزمنا نكسرهم ونؤدبهم زين، حتى نعلمهم ونعلّم غيرهم.

وهكذا بدأت حملة الحويزة الثانية، وبدأت الاستعدادات الأخيرة لمعركة الطريفة. السلطان الذي بدا واثقاً، لم يشغل نفسه بالحملة التي تحركت الى هناك، وانما انصرف كلية الى ما يجب ان يعمله هنا.

قال لفنر، وهاملتون موجود ويريده أن يسمع:

- إذا خلصنا هنا، بالخير والسلامة، كل الباقي نوافل. هنا راس الحية، ويلزمنا نضرب، وبعدها ما تلقى احد يرفع راسه!

ما كتب عن معركة الطريفة متشابه، ويكاد يكون من كتبه واحداً! فهذه المعركة كانت بمثابة تتويج لمرحلة طويلة من الصراع والعناد والمساومة، وفي جانب اساسي منها انتهت قبل أن تبدأ. قال بعض المتابعين انها انتهت يوم السمحة. وقال من هم اخبر منهم إنها انتهت قبل ذلك بعدة سنين. فما تراكم خلال فترة طويلة، وما حاول الانكليز أن يخلقوه أو يؤدوه عن طريق اشخاص عديدين، أداه خريبط وحده. وهذا، وإذا كان يشكل استثناءً للطريقة التي اتبعوها في المنطقة، فإنه يؤكدها. فما دام بعض الاصدقاء اصبح متعباً وشديد الالحاح على ضرورة تنفيذ وعود سابقة، أو الوقوف في وجه مشاريع اخرى، باعتبار أن هناك من هم مستعدون للقيام بأدوارهم وأدوار غيرهم، فإن المهم هو النتيجة، وهذا ما حصل بالضبط!

صحيح ان هناك تفاصيل كثيرة، وقد تختلف بين واحد وآخر، لكنها لا تختلف عن وصف عرس أو سباق خيل: ان تكون العروس، او الفرس، وضعت رجلها اليمنى قبل اليسرى وهي تدخل أو وهي تركض؛ أن تكون بدت واثقة مهيبة أو خائفة؛ أن تكون قد تعرفت أو لم تتعرق ابداً... كل هذه تفاصيل ثانية. المهم ان العروس قد زُفّت، وأن الفرس ربحت!

فخريبط دخل الطريفة في اليوم التالي لرحيل المعز، آخر امراء آل ماضي في العوالي، بعد أن عقد له النصر، وكان معه فنر، وقد أدى الصلاة في جامعها

الكبير. وأولم لوجهاء المدينة. وأول المساء طمأن أهلها والقناصل، وقال انه يترك لأهل العوالي أن يقرروا ما يرونه مناسباً لهم، وهو مستعد لأن يمتثل وينفذ ما يتفق عليه المسلمون.

خريبط ذاته لم يصدق ما تراه عيناه. كان، وحوله جنده، يبدو، رغم حزمه والتماع عينيه، في منتهى العذوبة وهو يرد تحيات الذين اصطفوا على الجانبين، وكان في حالة من النشوة أقرب الى الخدر. فهذا اليوم الذي لم يتوقعه ولم يحلم به، أصبح واقعاً مجسداً ووحيداً. ورغم أنه كان مستعداً للموافقة على ما هو أقل من هذا بكثير، وقد حاول دون كلل مع ابن ماضي، لكي يعترف به فقط، وأن يوافق على أن يكون في موران وحدها، ورغم الهدايا والعطايا والخضوع، فإن ابن ماضي ركب رأسه ورفض أن يبعث اليه مجرد كلمة ليشعره برضاه وبركاته!

الآن وخريبط يدخل المدينة الأخيرة في العوالي، وقبلها بعام يضطر ابن ماضي نفسه لركوب البحر والهجرة، ويضطر ابنه المعز - والذي جاء كحل لمشكلة بدت مستعصية - على ركوب البحر بالامس ويترك العوالي الى الأبد، فإنه يشعر بغبطة لا يحتملها، تسقط من عينيه الدموع، يتطلع الى الذين حوله بامتنان، ويخرج صوته متحشرجاً: «ان الله، سبحانه وتعالى، يعطي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء!».

فنر وهاملتون اللذان سبقا السلطان الى القصر، للتأكد من الحراسة والاطمئنان لمكان اقامته، لم يكونا يريدان أن يناما هذه الليلة أبداً. كانا في حالة من الانفعال اقرب الى الذهول او الهوس، وزاد انفعالهما وهما يطلان من شرفة قصر الهازعي على الساحة الكبيرة الذي جرى فيها الاحتفال، قال هاملتون:

ليلة من ليالي التحام التاريخ بالأفكار، بالاماني. ومجنون من ينام في مثل هذه الليلة، لان مثلها لا يتكرر في حياة الانسان.

فنر لم يكن اقل تأثراً وانفعالاً من هاملتون، رد:

- هذي، يا مستر هاملتون، يسمونها عندنا: ليلة القدر!

في الليل المتأخر، حين عاد السلطان الى قصر الهازعي، بعد أن شارك في

العرضات وإطلاق الرصاص، ولم يترك احداً الا وحياه، وأوعز لعرفان الهجرس الا ينسى تسجيل اي شيء، بما في ذلك أسماء الذين يسلّمون عليه، بغية تقديم الهدايا لهم، وطلب بتأكيد أن يسجل اسم سويلم الذيب، قارع الطبل، ثلاث مرات، للشعر الذي تلاه، والطرائف التي قالها وتناولت ابن ماضي، ولدقات الطبل التي لم تهدأ ولم تتوقف طوال الليل!

حين عاد السلطان لقصر الهازعي وجد فنر وهاملتون ساهرين وبانتظاره. بعد أحاديث سريعة، أقرب الى الغزل والنشوة، وفي لحظة انفعال، طلب الى الجميع ان يخرجوا الى الشرفة، وهناك بدأ بإطلاق النار، أطلق ناراً غزيرة، وكان مع كل صلية يردد: ظلينا بصدورهم ونحورهم الى أن مكّنا الله منهم.

ابنه راكان، الذي جاءه ثلاث مرات، يبلغه أن أمه تريده، ولا بد أن يكلمها، لم يتلفت الى كلماته. صحيح أنه رآه، احتضنه، لكن لم يسمع ما قاله. وحين الحّ الصغير في المرة الأخيرة، نتيجة الحاح فضة، وكان السلطان في حالة انفعال يستمع، ربما للمرة العاشرة، إلى خادمه الزين، وكان اسمه من قبل المعتوق، والسلطان ذاته هو الذي اعطاه الاسم الجديد، يروي كيف ركب المعز الباخرة في الليلة السابقة، واصرّ ان لا يترك الطريفة إلا إذا اطلقت له المدفعية احدى وعشرين طلقة، فكان السلطان، حين يسمع احدى وعشرين طلقة يسأل، والضحك يملأ وجهه كله: واحد وعشرين شنهو؟ فيرد عليه معتوق: طلقة؛ ومن جديد يسأل: قلت طقعة؟ فإذا اجابه طلقة، يرد السلطان: اي والله يستاهل، وما واحد وعشرين طقعة يستاهل ازود. أما حين الحّ عليه راكان، وفي لحظة صمت، فقد سمعه الذين حوله يقول بمرح:

ـ يكفي يا وليدي، واليوم ما هو دورها، اليوم دور غيرها!

قال الذين شهدوا الليلة الاولى للسلطان في الطريفة، انه لم ينم ولم يترك قصر الهازعي، او بالأحرى شرفاته. فقد تنقل من شرفة لاخرى، وعند الفجر، حين سمع الأذان، وقد خيمت لحظة صمت، قال، وخرج الصوت من اعماق صدره:

ـ اشهد ان لا إله إلا الله وأشهد ان محمداً رسول الله.

وتغير فجأة، اذ طلب، وبصوت اقرب الى الامر:

ـ الصلاة.. الصلاة يا عباد الله.

وخرج وخرج من معه. هاملتون الذي تخلف، وكان معه عدد من خدم السلطان، قال لنفسه: «من الرائع والمفيد أن يعتقد هؤلاء السلاطين أنهم كبار وعظام، وان يكونوا واثقين هكذا، وان ينظروا الى الآخرين دون ان يرف لهم جفن. انهم شجعان حين يتحدثون، ولا بد أن يجيء وقت يتوهمون أنهم فعلاً يصنعون التاريخ، لكن من حسن حظ التاريخ، خاصة الآن، انه يصنع في أماكن اخرى، وانه رغم العلامات التي تميزه، ولا يخطىء في قراءتها الكثيرون، فإنه لا يصر على أن يُستهلك في مكان محدد، خاصة مكان صناعته، فهو ملك مشاع، ويمكن لأي قوي ان يدعيه، كما يمكن لأي واهم أن يدعيه ايضاً، مستغلاً ضَعف الآخرين أو جهلهم».

ورغم أن هاملتون سجل في يومياته، خلال هذه الفترة، اشياء كثيرة، لكنه لم يعتبرها الاكثر أهمية، خاصة في هذه المرحلة. كان يريد أن يساهم في صناعة تاريخ منطقة في مرحلة معينة، او على الاقل يسهل لصانعي هذا التاريخ مهمتهم، ولذلك أجل الكتابة بعض الوقت، وانصرف الى امور أخرى.

بسقوط الطريفة انتهت مشاكل الحرب لتبدأ مشاكل السلام. صحيح أن عدة جيوب للمقاومة ظلت هنا وهناك، وأخذت وقتاً واهتماماً كبيرين من السلطان، إلا أنه كان واثقاً فقد وصفها، ذات ليلة لهاملتون، وهما يتحدثان عن شؤون المستقبل، بأنها تشبه بقايا اللحم بين الاسنان، وأضاف وهو يضحك:

- وحنا يا البدوان عندنا بدل المسواك عشرة، فإذا ما فاد الاول يفيد الثاني، وبعدها الحلق مثل المسك!

ارسل عويد المشعان في حملة إلى الشمال، وأرسل فنر في حملة اخرى الى الجنوب، وكان هدف الحملتين أن تجتث ما تبقى لابن ماضي من آثار، وان تشعر القاصي والداني إن دولة جديدة قد قامت، وان لهذه الدولة من القوة ما يمكنها أن تصل الى أبعد المناطق، وأقوى الاشخاص. ولم ينسَ السلطان أن يوصي قادة الحملتين بضرورة الحزم، وبعض الاحيان القسوة.

قال لابنه فنر في الليلة الأخيرة، قبل أن تتحرك الحملة:

- أنت، يا وليدي، غير الباقين، دارس وتفهم، سافرت وشفت، بس اريد اعلّمك بجماعتنا: ترى إذا رخيت مدوا، وإذا شديت خافوا وارتدوا. العين الحمرا تخوف اللي ما يخاف، وأريد منك ما تعطي وجه لأحد، لأن هذول البدوان إذا انعطوا وجه يطمعون،وما يشبعون. اسمع من الكبار قبل الصغار، واسمع من الشيوخ ولا تسمع من غيرهم. لا تقول لا أبد ولا تقول نعم، خل سرك بصدرك ولا أحد غيرك يعرفك أو يحزر عليك. قبل أن تقبل على قوم خلي خوياك يجوسون ويتأكدون، لأن الطريق ما هي آمنة، فإذا

وصلت خلي الأرض ترجف تحت رجلك، وما أحد كبير غيرك، ولا تخجل ولا تخف يا وليدي.

كان بوده أن يضيف، أن يتكلم أكثر، أن يلخص تجربته ومعارفه لفنر وهو يقود أولى حملاته،لكنه كان على ثقة أن فنر استوعب اغلب الدروس. لقد اختبره في أوقات سابقة، تحدث معه طويلاً، وسأل، دون أن يشعره، الذين رافقوه، وقد خرج نتيجة ذلك كله «أن فنر رجال وذهين وما ينخاف عليه». ومع ذلك فقد اختار له أحسن رجاله، من حيث القوة والشجاعة، وقال لهم، بطريقة غير مباشرة، إن فنر ربما احتاج إلى خبرتهم ومعرفتهم بالأرض والناس، وإنهم لن يبخلوا عليه، وختم حديثه مع أخلص الرجال الذين رافقوا الحملة:

- ... وتعرفون أن العمر يعلّم والإنسان ما يتعلم إلا من كيسه، بس دايماً الكبير يعلّم الصغيّر، واللي يعرف يعلم اللي ما يعرف، وما يلزم ابين لكم منزلتكم عندي وكم تعزون عليّ، وإنشاء الله برجعتكم غانمين، الله يقدرنا على مجازاتكم!

مع عويد المشعان كان السلطان مرحاً ومزهواً:

- ... الواحد، يا أبو محجم، يوصي اللي ما يعرفه، اللي ما جرّبه، وهذا الشمال لك كله، بحماده ودياره، وما اظن أن الواحد يخرب رزقه بيده!

وحين تطلع ابن مشعان الى السلطان بتساؤل، تابع:

- العوالي صارت لنا يا أبو محجم، ما هي لابن ماضي أو لغيره، والناس بذمتنا ما هم قوم علينا، فارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. العاصي، اللي يحمل سلاح، اللي يريد يحارب الحكومة ما له بقلبنا شفقة أو رحمة، نضربه حتى نؤدبه ونؤدب غيره، أما اللي هم على باب الله، اللي ما بي بينّا وبينهم شي، فمرحبا يا أولاد، ويا هلا بالنشامة، وكل ما نريده منكم، يا جماعة الخير، أن تطيعوا الله ورسوله وتدعوا لطويل العمر بالخير والسلامة.

توقف السلطان قليلاً ثم اضاف بنبرة مرحة:

- هذا الكلام يا عويد أقوله لنفسي قبل ما أقوله لأحد غيري، وأبد ما تفهم منه شي ثاني، وهالحين حنا نريد نسألك...

تطلع عويد المشعان بحذر وترقب، وخرجت الكلمة من فمه بعداء:

- سم.. يا طويل العمر.

- نسألك، يا أبو محجم، قبل ما تمشي: توصينا بشيء؟ تريد شيء؟ من طلبات سهينا عنها؟ طلبات لك، لأهلك، لجماعتك ورجالك؟

- اريد سلامتك، يا طويل العمر، وأنت دايماً مفضّل.

- وبرجعتك، الله يسلمك، غانم وسالم، راح تصير حملة العوالي أخبار وأمثال يرويها الكبير للصغير، لولد الولد، ويقولون عويد المشعان، أبو محجم، سوّى وسوّى... وهذا اللي يريده البني آدم بهذي الدّنيا، وكل ما عداه ما يسوى شي!

وهكذا خرج عويد المشعان راضياً، وندم انه اخطأ، في فترة معينة، بل اكثر من ذلك لام نفسه أنه ظن الظنون بالسلطان!

نشوة النصر التي أدارت رأس السلطان، وملأته ثقة وزهواً، واستيلاؤه على العوالي بمساحاتها الكبيرة ومدنها العامرة، وبسكانها الاكثر وعياً وتطوراً من موران، لم ينسه أن يتلفت حواليه أيضاً. ففي هذه الفترة التي تقام خلالها الممالك أو تزول، وأثناء رسم الخرائط الجديدة للمنطقة، فإنه وحده الحصان الذي يمكن أن يصول ويجول، خاصة بعد غياب ابن ماضي، والقادر على أن يقنع الآخرين، وأن يقتنع به الآخرون.

هاملتون الذي ظل سنوات في موران والعوالي، لا يغادرهما الا في سفرات قصيرة ويعود، قال للسلطان، بعد شهر من انتهاء حرب العوالي، وكان يستأذنه بالسفر:

- في الاماكن الاخرى من العالم، يا طويل العمر، يعتبرون الاجازة، الراحة

السنوية، حتى بالنسبة للعسكريين، ضرورية ومقدسة مثلما العمل ضروري ومقدس، وهناك لا يؤخرون اجازاتهم ولا يؤجلونها، لذلك يحق لي ان استأذن جلالتكم في إجازة.... بعد هذه السنين.

والسلطان الذي لم يعترض، كان تواقاً لأن يعرف: الى اين يمكن أن يصل في المرحلة القادمة؟

قال ليواصل الحديث، وبجو من المرح والالفة:

- الحق اللي تقوله يا الصاحب، وجماعتنا، هنا، يقولون: اللي ما يصل أهله ما يجيه ولد، فيلزم تصل اهلك وترجع لنا أنت والعيال والأخبار الزينة!

رد هاملتون بمرح ايضاً:

- انقضت سنوات، يا طويل العمر، لم أر ولدي الا بالصور، فإذا لم أذهب الآن، وأقدم نفسي، وأقول له: أنا أبوك يا مايكل، فسوف ينساني ولن يتعرف عليّ في المستقبل

- لا.. لا هذا أبد ما يجوز.

وبعد قليل وهو يبتسم:

- ولو الله هداك، وصرت مسلم، كان زوجناك وخليناك هنا، بس ما هي باليد، قال عز وجل: ﴿إنك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾.

قال هاملتون، بعد ان انتهى هذا الحديث المرح وخيم الصمت:

- كنت اود، يا صاحب الجلالة، لو أن سمو الامير فنر رافقني في هذه السفرة، لأن الأصدقاء الكثيرين له في بريطانيا سوف يفتقدونه، كما أن زيارته الآن ستكون مفيدة بعد هذه السنين من الغياب.

رد السلطان، وجو المرح لم يزايله:

- الخير بالجايّات يا محروس السلامة، وأنت تكفي وتوفي، ولا بد تسلّم على

الجميع، وخاصة طويل العمر ملك الانكريز كثير السلام، وتقول له أن الجماعة هناك يذكرونك بالخير، ودوم دوم يسألون عن صحتك وراحتك، ويتمنون لك السعادة والسلامة.

شكره هاملتون وأكد له أن الجماعة هناك يتابعون الأخبار باهتمام وعناية وسوف يرجع أيضاً بالأخبار الطيبة!

بعد أن تحركت الحملات، وهدأت ضجة الاحتفالات، وبدخول فصل الشتاء، اخذت العوالي تبدو بنظر السلطان ورجاله غير مفهومة بالمقدار الكافي. فالناس الذين كانوا شديدي الضيق بابن ماضي، وضجوا بالشكوى، ولم يخفوا المرارة، بل وكانوا لا يريدون لتلك الحال أن تدوم، وعبروا عن فرح مشوب بالحذر، لأن الحرب انتهت أو كادت، بدأوا يظهرون ضيقاً، وفي أحيان كثيرة يصل حدود الاستياء في تصرفات جنود السلطان ومن رجاله. فالجنود الذين كانوا خائفين في بداية الامر، وينظرون الى كل الوجوه بارتياب، ما لبثوا ان شعروا بالطمأنينة والثقة، وهذا دفعهم لأن يواجهوا أي رفض أو إختلاف بالقوة، ولم يترددوا في شهر السلاح، أو ضرب الذي لا يمتثلون لرغباتهم أو اوامرهم. فالاختلاف على البيع والشراء، والمزاح، وتلك التوريات بالحديث، وبعض الاحيان المناداة على السلع بالغناء والتطريب، وغير هذه من الامور الصغيرة التي كانت تميز العوالي، وتطبع ناسها في المدن الكبيرة وفي أصغر القرى، وتخلق لهم ملامح وعادات يأخذها الصغار عن الكبار، ويتوارثها جيل عن جيل، كانت هذه الامور تثير رجال السلطان وتدفعهم الى التحدي. وكثيراً ما وقعت في الاسواق الداخلية، او في الاحياء البعيدة، عمليات تعدٍ من هذا الطرف أو ذاك. كانت في بداية الامر عابرة، قليلة ومتباعدة، ولا يذكرها أحد، لكن عندما ترافقت بذلك العناد، وذلك الاصرار الذي يبديه رجال بالسلطان، على ضرورة أن يتغير كل شيء، سواء في عمليات البيع والشراء، او بطريقة التعامل، وحتى بنظرة العيون، فإن عناداً أقوى وإصراراً أشد بدأ يظهر من الناس. صحيح ان الامر حصل بشكل عفوي، ونتيجة رد الفعل، وظل في نطاق الافراد، لكنه بدأ يتسع ويزداد.

وبدأ يتسع أكثر ويزداد أكثر حين ترافق ذلك مع التعليمات التي أخذت تصدر

تباعاً حول ما يجب على الناس من إلتزامات دينية: الصلاة في المساجد، وفي أوقاتها، ومن يتخلف يتعرض للعقوبة. التدخين ممنوع ومن يقبض عليه وهو يدخن لا بد أن يجلد أمام الناس. أما الغناء، أما اللهو فيجب أن يُنسى أمرهما لأن عصر ابن ماضي مضى وانقضى وبدأت الآن دولة الإيمان.

ظن الكثيرون أن ما نقل إليهم لا يزيد على كونه إشاعات يروجها رجال ابن ماضي؛ وفسر الذين سمعوا الأخبار من أناس ثقات ان الأمر لا يعدو أن يكون نزوة، مثل نزوات كثيرة تظهر في بدايات العهود، أو مع القادمين الجدد، ثم لا تلبث أن تسقط أو تنتهي. وقال بعض الذين يعرفون رجال خريبط أكثر من غيرهم: «يظنون أن كل الدنيا موران، وهم بكل تأكيد لا يعرفون العوالي، ولا يعرفون غيرها، ولا بد يخطون، وبعدها يندمون».

حين قابل الوجهاء والتجار السلطان، وأشاروا، بطريقة بعيدة، الى بعض ما يجري، ابتسم ثم رد عليهم بطريقة لم يستطيعوا أن يفسروها تفسيراً دقيقاً، أو ان يتفقوا على معناها، لكنهم لاحظوا ان وجهه اعتكر وبدا عليه شيء من الضيق، فلم يتابعوا، وتركوا الأمر الى وقت آخر، أو ظرف مناسب.

وحين أشاروا إلى ما يجب أن يكون في العوالي من العلاقة بين الحاكم والمحكوم، واستشهدوا بما قاله السلطان ذاته، فقد أكد لهم أنه سيفي بكل كلمة قالها وبكل وعد أعطاه، فقط يطلب تعاونهم والتفافهم، وإن الأمور مرهونة بأوقاتها. فلما التمسوا منه، وكان ذلك أقرب إلى الرجاء والتوسل، أن يفرج عن بعض موظفي ابن ماضي، وجنود الحامية الذين استسلموا، صاح بصوت عالٍ على ابن هجرس، والذي يقف دائماً غير بعيد، وبيده دفتر وقلم:

ـ اسمع يا عرفان.. حنّا اليوم بيوم الاثنين، تبلغ الجماعة، وتقول لهم، السلطان يامركم أن آخر حد معكم يوم الخميس، كل بريء، كل واحد ما حمل بوجهنا السلاح، وما سرق ولا نهب، يلزم يفرجون عنه. تسمع يا ابن هجرس؟

ويتطلع الى تأثير كلماته في الوجوه والعيون التي تتابعه، حتى إذا رأى رضى اقرب إلى الفرح أضاف:

ـ ويوم الخميس بنفسي أتأكد، وما يلوم المقصّر الا نفسه، تسمع يا عرفان، بلغهم هذا على لساني.

والتفت الى الوجهاء والتجار وقال بلهجة أبوية:

ـ وإنشاء الله يصلّون ويانا الجمعة جماعة.

وتغير الحديث وأخذ مجرى آخر.

ويوماً بعد آخر يغرق السلطان في دوامة المشاكل والهموم، والتي لا تنتهي، فابن ماضي الذي ركب البحر بعد أن خسر معركته العسكرية، بدأ حروبه الاخرى. بدأ بحرب التحريض وتأليب القوى والرأي العام ضد ما يجري في العوالي من فظائع: القتل، التهجير، هدم الاحياء والقرى، نهب البيوت والبشر، وكان يستغل اللاجئين والفارين من مذابح البدو، لكي يتحدثوا عما يجري هنا. أما ما يفعله رجال خريبط في أمور الدين فإنه حديث القريبين والبعدين، ومن شأنه أن يستفز ويثير ويعبّىء. والسلطان خريبط الذي بدا غير خائف، او بالأحرى كان واثقاً من المعركة العسكرية ونتائجها، اكتشف الآن إن هذه المعركة لم تحسم إلا القليل من المشاكل، وخلقت، بالمقابل، مشاكل من نوع آخر. وإذا كان مطمئناً ان أغلب ما يدور في الخارج لا تصل اصداؤه الى العوالي وإلى موران إلا بعد مرور فترة طويلة، وبعد أن تنكسر حدته، ويصبح جزءاً من الماضي، لعدم وجود وسائل اتصال مع الخارج، حيث تدور الأحاديث، وتنشر الفظائع والفضائح، ولأن في العوالي صحيفة وحيدة تنشر الاخبار تصدر مرتين في الاسبوع، وما تغيّر فيها سوى المحرر الرئيسي، فبعد أن كان ابن ماضي نفسه في فترة معينة، جاء بعد سفره غالب الدباغ، أحد رجال الامير معز، فلما سافر الامير سافر غالب معه، وبعد أن جاء خريبط أصبح يونس شاهين مسؤولاً عن الجريدة التي تنشر البلاغات والقصائد.

لكن بمرور الوقت أصبح الخارج يؤرق السلطان اكثر من الداخل، فقد اعتبر معركته الأساسية، والتي كانت تثير مخاوفه، قد انتهت، لكنه اكتشف أنها انتقلت من الداخل الى الخارج، ومثلما بعث بالحملات الى معظم المناطق شمالي العوالي وجنوبيها، لكي تجتث ما تبقى لابن ماضي، وتبشر بالحكم الجديد، ولكي تفرض هيبة الدولة، فلم ينسَ أن يبعث بعدد من رجاله إلى حيث يكون

ابن ماضي. وفي هذه الفترة من الاضطرابات والتداخل وتغير الولاءات، وكان من السهل أن يكون لكل واحد من المتنازعين عيون عند الآخر، وأن تنتقل الأخبار والمعلومات، حتى تلك التي تجري في غرف النوم ووراء الأبواب المغلقة، فلما وصلت للسلطان الأخبار أن ابن ماضي لم يترك أحداً، ولم يترك قوة أو عاصمة إلا وبعث إليها رجاله، وان الصحافة والناس في الخارج لا تتكلم إلا عما يجري في العوالي، فقد تحسب كثيراً، ولام نفسه انه ترك هاملتون يسافر، بل وخاف من هذه السفرة.

لم تقتصر الحرب الجديدة على ما يكتب أو ما يقال، فقد ترافقت أيضاً بالأموال ترسل الى الكثيرين في الداخل، إلى زعماء العشائر وقادة الجند السابقين، وإلى التجار وأئمة المساجد. وترافقت أيضاً مع الصعوبات التي تواجه الناس في تأمين ما يحتاجون إليه، بعد أن اشتريت من الأسواق المواد لحاجة الجنود وحملات السلطان. ومع الصعوبات رجال خريبط وطريقتهم في التصرف والتعامل. صرخ سعيد السقاف وسط السوق، حين لطمه أحد رجال خريبط، وكان في باب دكانه يدندن.

- أيش دا يا أبويه احنا عبيد ولاّ صنف ثاني؟

وهز رأسه عدة مراة بلوعة وأضاف:

- أعوذ بالله جماعة ما يمكن التفاهم معهم، تقول لهم ثور يقولوا احلبوه، نقول لهم احنا إسلام مثلكم يقولون: تخسون. جماعة ما يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب، لكن يومهم قريب!

ومع الصعوبات وتزايد نقمة الناس حرب الحدود. فالمعزّ الذي وُجد في ظروف صعبة، واضطر، من أجل الحفاظ على أرواح الناس، كما يقول، ومن أجل أن ينسوا أخطاء الماضي، ولكي يفرض المعركة، لا أن تفرض عليه، بدأ. وكان متأكداً أن الظروف الجديدة، رغم صعوبتها، سوف تتيح له أن يعمل ويتصرف بطريقة مختلفة. ماذا يريد الانكليز؟ ماذا يريد الفرنسيون؟ ماذا تريد القبائل والناس وكل أهل العوالي؟ إنه مستعد لذلك. وندم انه ترك الطريقة سلماً. كان يمكن أن يبقى، ويقاوم، لكن المستشارين، هؤلاء الذين

قال عنهم أبوه: إنهم يخصون الثيران، ويقتلون خيل السلطان، وكانوا حوله، لا يتعبون من الاختلاف والتنافس، وكان الإنكليز يملؤون جيوبهم بالمال، وعند ذاك يسمعون ويسمّعون ما يجب أن يكون!

الآن، يمكنه أن يفكر دون ضغط البدو ودون صراخ اللاجئين والهاربين، ويستطيع أن يخطط بدقة للمستقبل. ماذا يملك خريبط أفضل منه؟ وهل يثقون به أكثر مما يثقون باولاد الملوك والذين توارثوا الحكم أباً عن جد؟ والبدو... إنهم لا يريدون أكثر من الذي يؤمن لهم قوت يومهم. وإذا كانت مدن العوالي وتجارها قد أنستنا البادية فيجب أن يُصحّح الخطأ، وأن يُحارب خريبط بالقوى التي حارب بها.

حرب الحدود لها بداية، لكن ليس لها نهاية. ومثلما بدأ خريبط يمكن أن يبدأ هو.

وهكذا، وبانسجام مع الحرب النفسية وحرب الإعلام، ومع الأموال أيضاً، بدأت حرب الحدود. وخريبط الذي كان يخاف من الأماكن البعيدة، والتي تبدو له مجهولة، لم يكن يخاف كثيراً من هؤلاء البدو أن يأخذوا الف طلقة لكي يطلقوا عشراً، ثم يعودون، ليأخذوا بدلها آلافاً. إنه يخاف من الطلقات البعيدة التي لم تسمع بعد، ويخاف أكثر من الذين لا يحملون البنادق الآن، أو الذين يحملونها ولا يطلقون!

لو أن الامر اقتصر على ذلك لهان ووجد حلاً، لكن رجال موران ذاتهم الذين كانوا يحاربون بحماس ودون تردد، أصبحوا الآن نمطاً آخر من البشر: يضغطون، يتكلمون بأصوات عالية، يلومون السلطان أكثر مما يلومون غيره، لأنه يمنعهم من تصحيح الاخطاء، من قمع هؤلاء الذين لا يفعلون شيئاً سوى أن يجعلوا منهم مسخرة، رغم كفرهم، ولا يترددون في أن يمتنعوا عن بيعهم أو التعامل معهم.

فأهل العوالي الذين أبدوا تساهلاً كبيراً حين وصلت قوات السلطان، وكانوا مستعدين للترحيب بالذين جاءوا والتعاون معهم، وكانوا كذلك خلال الأيام الأولى، ما لبثوا أن تحولوا وتغيروا. فالماء البارد الذي يخرج من

البيوت، والخضر النديّة التي يقدمونها، وتلك الابتسامات التي تترافق مع الاحاديث، كل ذلك انتهى ليحل محله نوع من الجفاء أقرب الى العداوة، وسخرية سوداء بدل الإبتسامات والترحيب، اضافة إلى اجوبة تتكرر لدى الباعة والمخابز وفي الأحياء البعيدة، عند أطراف البحر أو قريباً من الصحراء: «ما عندنا يا أخوي، ما فيش، نفقنا وما تتعب روحك». وهؤلاء البدو، رجال السلطان، والذين جاءوا من ابعد الاماكن، من أجل الغنائم، أو من أجل المال والحرب، أو من أجل رفع راية الله، يجدون أنفسهم في وسط أقرب الى العداء، في وسط مليء بالصمت والريبة والاختلاف.

ولأن رجال السلطان يواجهونه كل يوم، وهم حوله وأقرب الناس اليه، لذلك لا يتركون أية حادثة، مهما كانت صغيرة، إلا ويرددونها المرة بعد الأخرى، حتى إذا وصلت إلى مسامع السلطان، صاح بغضب:

- يا عباد الله، هذي غير موران. وهذول غير جماعتنا، ويلزم تفهمون وتصبرون!

وتنقضي أيام الشتاء، وتأتي بعدها أيام الربيع، لكن شتاء هذه السنة كان أشد برودة من سنوات سابقة، وكان أقل مطراً. فإذا احتمل الناس، من أهل العوالي، أو من أهل موران، الشتاء انتظاراً لأيام الربيع، وانتظاراً للخصب وانفراج الأحوال، فقد جاء الربيع بطيئاً ضعيفاً، وانتهى بسرعة ليبدأ معه الصيف. والصيف إذا جاء مبكراً وكثيفاً هكذا فإن مزاج الناس وتصرفاتهم، وحتى عقولهم تتغير. قال أهل الحواضر في نهاية الشتاء: «انتظروا الربيع فإنه يحل المشاكل ويفرّج الهموم» فلما جاء الربيع هكذا، قالوا: «اللهم اجعلها سنة يمكن احتمالها، فإذا انقضت تنقضي الهموم» ولما حل الصيف قاسياً ثقيلاً تشاءموا، وقالوا وراء أبواب مغلقة: «اللهم نجنا من الأعظم». وضاقت خطوات الناس أصبحوا لا يخرجون إلا إلى الأماكن القريبة، ولا يلتقون إلا بالأقرباء أو الذين يعرفونهم. أما أهل البادية، وهم أقدر على تحمل سنوات المحل، فكانوا يجدون حلاً لما يعانون بأن ينزلوا إلى أطراف المدن، أو أن يرابطوا على طرق التجارة، وهناك، وبمحاولات ووسائل لا تخلو من المكر والقسوة، أو المسكنة، كانوا

يجدون قوت يومهم، ويواصلون الحياة، رغم صعوبتها.

الآن، وقد هجمت هذه السنة العكرة القاسية، وبعد أن توقف الذين يحسنون عن تقديم الإحسان، وتوقف الذين يدعون البدو لأعمال البساتين، أو لحفر القنوات أو لنقل الحجارة، ليس لأنهم بحاجة إلى كل هذه الأعمال، وإنما لأنهم يريدون أن يساعدوهم وأن يجعلوهم يعملون شيئاً مقابل ما يقدمونه لهم من الطعام والمال، فإن هؤلاء لم يعودوا متسعدين أو قادرين لأن البدو ارتبطت صورتهم بصورة رجال السلطان، ولأن ليس لديهم من المال فائض يقدمونه لهم.

سنة وليست مثل أي من السنين.

قال خريبط ليونس شاهين:

- اكتب يا يونس: «إن الله يرزق الناس من حيث لا يحتسبون». كتب يونس ذلك، لكن الرزق لم يأت.

قال خريبط لرجاله: «لقد صبرنا من قبل؛ اكلنا الجراد، وتحملنا، فيجب ان تتحملوا. وقال أيضاً إن الله يمتحن عباده، وأنتم الممتحنون». سمعوا منه، لكنهم تلفتوا ونظروا لا يعرفون هل يوافقون على ما يقوله أم يفعلون شيئاً آخر!

قبل أن ينقضي الصيف لاحت في الأفق علامات جعلت السلطان يستعيد ثقته ويصبح أميل الى التفاؤل: حملة الجنوب قامت بدورها وعادت، أو عاد أغلب الذين شاركوا فيها. فنر بدا لكل من رآه إنساناً آخر: لوحته الشمس وغيرته تماماً، ومع تغير الملامح تغيرت التصرفات، وحتى النظرة والعقل تغير. أبوه السلطان، بعد أن سمع منه، خلال يوم وليلتين، تفاصيل كثيرة ودقيقة حول الحملة وما واجهها، منذ أن تحركت الى أن عادت، وكان في أحيان كثيرة يستوقفه، يستفسر ويتساءل بدهشة عن الأماكن والأشخاص، قال لنفسه: «يوم حرب ولا سنة تنجيم، لأن الواحد في الحرب شايل روحه على كفه، وما يدري شنهو اللي يصير بعد ساعة، وبهذا السبب ينشّد عصبه وكل يوم يطلع له قلب». أكثر من ذلك بدا له أن وجود فنر إلى جانبه، وقد كبر وتغير هكذا، سوف يساعده كثيراً.

اخبار حملة الشمال مشجعة، لكن لا تزال أمامها مهمات. وابن مشعان، منذ أن تحركت قواته، أصبح أكثر وداً، وأكثر حرصاً على أن يظهر للسلطان التزامه. فالرسل الذين بعث بهم، ليطلعه على تحركات الحملة وأخبارها، أوليبعث له عدداً من كرام الخيل وأطايب الفاكهة، ثم ليشعره أنه تزوج في الطريق مرتين، مع إشارة، لا تخفى، إن هذين الزواجين كانا ضرورين لاستمالة بعض القبائل والتقرب منها. كانت الرسائل والإشارات واضحة الدلالة: إنه ينفذ تعليمات السلطان، وإنه يكسب ود الناس أكثر مما يقسو عليهم!

أما حملة الحويزة، فرغم أنها انتهت خلال الشهور الثلاثة الأولى، لكن لا تزال هناك جيوب كثيرة، خاصة قرب الحدود، وهذه الجيوب وإن كانت لا تشكّل خطراً إلا أنها شديدة الإزعاج، إذ بالإضافة إلى أنها تتحرك بسرعة من مكان إلى آخر، وفي هذا دليل لا يخفى على أن لها مؤيدين في قبائل وأماكن عديدة، فإن قربها من الحدود، وخطورتها أيضاً، يمكن أن تؤدي إلى مضاعفات أو نتائج غير محمودة العواقب.

خزعل، بعد مشاورات طويلة مع العم دحيم، وبعد رسالة إلى أبيه، قرر أن يترك ابن مياح يتابع أمر هذه الحملة، ورجع إلى موران. كان يريد أن يتابع سفره إلى العوالي، لكن السلطان طلب منه البقاء إذ لا حاجة لمجيئه.

وقبل نهاية الصيف أيضاً، وهذا ما جعل السلطان يتفاءل، عاد هاملتون.

عاد هاملتون هذه المرة عن طريق الحويزة. بقي هناك ثلاثة أيام، تابع بعدها السفر الى موران. ومن موران بعث الى السلطان رسالة رقيقة يشعره بوصوله، وان لديه أموراً كثيرة يريد أن يحبثها معه، ولا يعرف ما إذا كانت لدى السلطان الرغبة في البقاء في العوالي أم العودة الى موران، لكي يتصرف على ضوء ذلك، خاصة وان معلومات موران، خزعل والعم دحيم، وجميع الذين سألهم، أكدوا قرب عودة السلطان وإنها متوقعة بين يوم وآخر!

ما كاد السلطان يتسلم هذه الرسالة، حتى قال لفنر، وكان رأفت شيخ الصاغة ويونس شاهين وعنان بسيوني، موجودين، وكان يريدهم أن يسمعوا:

- من يوم ما الله خلق الدنيا: السلاطين ما يسافرون حتى يتسلموا الرسائل،

لكن هذا أخوك يا فنر، خزعل، الله يصلحه، قلنا له أمسك الأرض، اثبت بمكانك، لكن أبداً!

وزفر السلطان وكأن لهيباً خرج من صدره، ثم تابع:

- ترك الحويزة، قلنا على بركة الله. وصل الى موران، قال أجيك، قلنا له ظل بمكانك. واليوم جاء الصاحب، وبدل ما يدزّه، حتى لو اني جاي وتحركت، قال له إسأل أبوي: «ها يا يوبه: أنت جاي أو متأخر...» الى متى الواحد يظل يعلم البني آدم، وهذا البني آدم ما يتعلم؟

قال رأفت شيخ الصاغة:

- الغايب عذره معه، يا طويل العمر، ويجوز تكون هناك أشياء لا نعرفها.

قال عنان بحدة:

- لكن، يا رأفت بك، في حاجات لا يمكن التساهل فيها، ومثل ما قال جلالته: أي واحد يريد مقابلة السلطان، أو يحمل له رسالة، يجب أن يأتي الى مقام جلالته؛ ومن الخطأ، حسب ما أرى، أن يكون العكس.

تساءل السلطان بألم:

- لكن، يا عباد الله، حنا نواجه العدى أو نعلّم جماعتنا شلون يتصرفون؟

قال عنان بسيوني:

- ارى، يا صاحب الجلالة، ولاسباب كثيرة وهامة، ان تطلب مجيء هاملتون الى هنا، حتى لو كنتم تعتزمون العودة الى موران.

هز السلطان رأسه بحزن، وقال موجهاً الكلام الى فنر:

- ابعث، هالحين، كتاب، وقل لهم فيه: خلي الصاحب يتوجه نحونا.

وابتسم بحزن، وأضاف:

- وحنا يلزم أن نتحرك نحو موران، لأن غيبتنا طالت، وظني أن الغيبات الطويلة تغيّر كثير من الناس.

بعث فنر الرسالة، وبدأ السلطان يستعد للعودة الى موران، وكان مقرراً أن يتوقف فترة في عين نبات، وتوقع أن يلتقي هناك بهاملتون.

سمى امراء للمدن وكلفهم أن يراجعوه بكل صغيرة وكبيرة، وأبلغهم أنه سيعود مرة اخرى قريباً إلى العوالي.

بقي السلطان في عين نبات، ثلاثة أيام الى أن وصل هاملتون.

وخلال الأيام الثلاثة، «والهوا يلعب» كما قال السلطان، نظراً لارتفاع عين نبات، وبعدها عن البحر، ولأنها أول المرتفعات التي تطل على موران، فقد شعر بالانتعاش والحيوية، خاصة وإنه أزاح عن كتفيه الهموم اليومية، فلم ينظر في الاوراق ولم يسمع الشكاوى التي لا تتوقف ولا تنتهي، وبدأ يعد نفسه لمرحلة جديدة. كان يريد أن يصل مع هاملتون إلى اتفاق على ما تبقى في الاطراف، لأن هذه الأطراف تشكّل سكيناً في خاصرته إذا ظلت هكذا، ويمكن أن تكون نافذته وطريقه إلى آفاق كبيرة ومهمة إذا ضمها إليه. ورغم أنه في مرات عديدة سابقة، حاول إقناع هاملتون والآخرين، لأن يفعل ذلك، حتى قبل التفكير بالعوالي، لكن الإجابة كانت دائماً الرفض، ولم يكن الرفض مهذباً في كل الحالات!

الآن، وبعد أن أصبح سيد العوالي أيضاً، لا بد أن يتقدم خطوة جديدة إلى الامام. لقد تأكدوا بأنفسهم من قوته، وتأكد هو أن ما كانوا يقولونه في السابق عن ابن ماضي، وتمسكهم به، وبالمقابل منعهم له من التقدم او التفكير بالعوالي، أو على الاقل ببعض أطرافها، لم يلبث ان سقط. لقد تخلوا عن ابن ماضي بسهولة بالغة. بل اكثر من ذلك يتذكر السلطان كلمات هاملتون في الأيام الأخيرة قبل سقوط الطريفة: قال له بوضوح: «لا يمكن التنازل.. ويجب أن يرحلوا». الآن.. يمكن الاتفاق، نعم الاتفاق، على أشياء كثيرة، خاصة وان هاملتون أصبح صديقاً موثوقاً، ويعرف المنطقة والناس، كما انه يختلف عن الكثيرين الذين جاءوا من قبل. إنهم يريدون الحاكم صديقاً، وكلما كان هذا

الصديق أقوى ويحكم بلداً أكبر أمكن الوصول معه إلى نتائج أفضل. ماذا يفعلون بهؤلاء الشيوخ الصغار الذين لا يستطيعون أن يعملوا خيراً أو ان يردوا شراً؟ هكذا كان يفكر السلطان، وهذا ما كان يود أن يصل إليه، خاصة وان زعماء العشائر الذين ارتبطوا به، وما يتبعهم من الجند، أخذوا في الآونة الأخيرة يتساءلون ثم يسألون: اين نتوجه وماذا نفعل الآن؟ ليس ذلك فقط، اصبحوا متعبين وزادت مطالبهم بعد أن توقفت المعارك او تباعدت. وإذا امكنه أن يسيطر عليهم، أو ان يبعث بهم هنا وهناك، ويطلب منهم الصبر والانتظار، فقد لا يستطيع ذلك في المستقبل. قال ذات ليلة لفنر، بعد أن انتهت حملته وعاد:

- ... ويلزم تعرف يا وليدي: الجنود بدون حرب مثل الهم على القلب، وإذا حكمتهم اول يوم يفلتون أكيد في اليوم التالي، ومن كل بد ولازم نلقى لهم درب، لانهم إذا ظلوا بوجوهنا ما نخلص من طلايبهم!

الآن وقد عاد هاملتون، وخلال الساعات الأولى من اللقاء، وعلى طريقة البدو، لم يشأ السلطان أن يثقل أو أن يستبق، فقد ظلت الأحاديث تدور عامة، شخصية، طريفة، وتخللها الكثير من الأسئلة عن الصحة والعائلة والأولاد، ولم يتردد أي من الطرفين في أن يترك لعواطفه أن تفيض، ويتذكر أموراً قديمة، وأحاديث سابقة، وذكريات. كما أبلغ هاملتون السلطان بالتحيات التي حُمّل بها، وأشار إلى الاهتمام الذي لمسه في الخارج، والمتابعة التي تلقاها أخبار موران والعوالي، كما نقل إلى جلالته وإلى فنر نحيات ملك بريطانيا والحكومة البريطانية.

بعد بضع ساعات من وصول هاملتون الى عين نبات، وصل القنصل الانكليزي أيضاً من جهة الطريفة، وبدا وكأنهما على موعد. وهذا القنصل، الذي لم تمض شهور قليلة على التحاقه بعمله الجديد، لم يرق للسلطان منذ المرة الأولى التي التقى به. كان إنساناً صعباً، قليل التهذيب، كما أشار بسيوني، حيث كان يضع رجلاً فوق الأخرى، ويبدلهما بالتناوب كلما تعب، في حضرة السلطان، كما أنه لم يستأذن جلالته، منذ اللقاء الأول، بأن يسمح له بالتدخين، إذ أشار أنه لا يستطيع الاحتمال، كما لا يقوى على التركيز دون

أن يدخن، خاصة، «وان لقاءاتنا ستطول، وسوف نناقش قضايا حساسة» كما قال وهو يبتسم، في محاولة للتوضيح، أكثر مما كانت لطلب الموافقة. والسلطان الذي اعتبر الأمر ثانوياً، وطلب منه أن يفعل ويتصرف بحرية، ما لبث أن تبين له أن الأمر أكثر دقة وخطورة مما افترض في البداية، خاصة حين رآه رجال السلطان من الحرس والخدم والمرافقين وهو لا يكاد يتوقف عن التدخين!

أمر آخر خلق فجوة إضافية في العلاقة بين الاثنين، إن أحدهما لا يفهم على الآخر، تقريباً. فدنيس ايجلتون يعرف العربية الفصحى المطعمة باللهجة المصرية، ولا يفهم لهجة البداوة فهماً جيداً. والسلطان الذي يتكلم العربية بطريقته الخاصة، وهي أقرب الى البداوة، لا يتصور أن هناك عربية أخرى، ولقد فوجىء كثيراً حين سمع عنان بسيوني يتكلم ذات مرة مع وفد مصري زائر. استغرب الأمر وفكر فيه طويلاً، إذ تصوره إنساناً آخر، وكأنه ليس الذي يعرفه. لكن عجب السلطان أخذ يتراجع سنة بعد أخرى، وكلما ازداد عدد الوافدين الى موران من الأقطار المجاورة.

كان من السهل لهذه المشكلة أن تحل، أو أن لا تنشأ بالأساس، لو أن دنيس تكلم بالانكليزية. فعن طريق المترجمين يمكن أن يجري الحديث، ولا يتكلف أي من الإثنين مشقة إزعاج الطرف الآخر. فدنيس الذي يصرّ على استعمال العربية، عربيته، كان يضطر السلطان، بعض الأحيان، الى النظر في وجوه مستشاريه، خاصة عنان، لكي يساعده على فهم ما يقال. وحين يتكلم السلطان، يستوقفه دنيس لكي يستفسر عن معنى بعض الكلمات، أو يعيد على مسامع جلالته بعض الكلمات لكي يتأكد من دقته.

لو أن الأمور اقتصرت على ذلك لوجدت حلاً، لكنها تجاوزتها الى ما يشبه التفاوت أو الاختلاف، ووصلت في عدة حالات إلى درجة المجابهة. فالأموال التي تم الاتفاق على دفعها، والأسلحة التي كان يفترض أن تصل، والرسائل التي كان ينتظر الإجابة عنها، إضافة إلى أمور أخرى كثيرة جرت خلال الشهور الأخيرة، جعلت السلطان أقرب الى الشك والسلبية، حين يجد القنصل غير مهتم أو ليس معنياً بها بالمقدار الكافي.

ومما زاد في تعقيد العلاقة أيضاً أن أهمية الموضوعات بين الإثنين تتفاوت كثيراً. فما يعتبره السلطان أساسياً ولا يمكن إرجاؤه أو التهاون فيه، ينظر إليه دنيس بتساهل يصل أحياناً إلى عدم الاكتراث. وبالمقابل، إن الإجابة عن سؤال أو الاستفسار حول زيارة لأحد ضباط البحرية البريطانية، أو العلاقة بين موران وإحدى المشيخات، أهم من أي أمر آخر. ولا يكتفي بأن يجعل مثل هذه الموضوعات أساسيةً، وإنما في حالات عديدة كان يعتبرها الوحيدة، أو وحدها التي تستحق الاهتمام والمناقشة. أما الموضوعات الأخرى التي يريد السلطان بحثها أو الاستفسار بشأنها «فيمكن أن نتحدث حولها في الزيارة القادمة»!

رغم كل شيء فقد احتمل السلطان، بل وكان يبدو مقتنعاً وراضياً، فالقنصل نافذته وطريقته الوحيدة في الاتصال، خاصة بعد سفر هاملتون. صحيح أنه لم يخف عواطفه أو رأيه في لحظات معينة، أمام بعض المقربين، لكن تلك العواطف أو ذلك الرأي لا يعني شيئاً إزاء الحاجة أو الضرورة. يجب أن يبقى هادئاً ومتماسكاً، لكي يصل إلى ما يريد، ويحصل على ما يطلب.

مجيء دنيس ايجلتون عصر ذلك اليوم غيّر الجو تماماً. فالسلطان الذي تصرف بهذه الطريقة، ليخلق جواً مؤاتياً لأحاديث حميمة مع هاملتون، وكان يعتبر الليل وقتاً مناسباً للبوح والشكوى، وأيضاً للوصول الى نتائج حاسمة، كما حصل في عدة مرات، سواء أكان مع هاملتون أو مع غيره، فقد اعتبر مجيء القنصل شؤماً. قال لنفسه: «أبد لهذول ما تأمن، وهم بينهم ياكل قلوبهم الشك والحسد. وما يرضي واحدهم أن يكون قوي والكل بالكل، وهذا الأخنب، اللي يحكي من خشمه، ما ترك لنا الصاحب ليلة، حتى نعرف منه ونفهم».

ومع ذلك ظل السلطان مضيفاً عذباً، لم تبدر منه أية إشارة أو ملاحظة يفهم منها الاستياء، بل وبالغ في المودة واللطف، لكي يُشعر هاملتون بالذات، وإلى حد أقل دنيس، بمدى ما يكنه من العواطف والاهتمام، ولأن الليل في

عين نبات يميل الى البرودة، قياساً الى الطريفة إذ تصله نسائم الصحراء فتجعله رقيقاً، وبعض الأحيان لاسعاً، ونتيجة لتعب الرحلة، فقد كانت الليلة قصيرة، على غير ما توقع السلطان، أو ما أراد، خاصة حين استقبل هاملتون. أما بعد أن جاء دنيس، فقد بدا مسروراً أن الرجلين يفضلان تناول العشاء مبكراً، وأن يأويا الى الفراش.

ورغم أنه أعدت لكل منهما خيمة خاصة، وبعد أن انتهى العشاء وغادر الضيوف، فقد مكثا معاً حوالى الساعة. هذه الساعة أقلقت السلطان كثيراً. قال في نفسه: «الصاحب صاحبنا، لكن هذا الاشيقر أبو رِجل ونص، لا بد يكون يهودي أو عدو، وإلا ما جاء بهذي الساعة وبهذا اليوم».

والسلطان الذي بدا موزعاً بين أن يواصل سهره وأحاديثه «مع الخويا» كما فعل في الليالي السابقة، بقصد أن يستريح وينسى، ولكي يكون في أحسن حالاته، وبين أن ينعزل لكي يفكر ويرتب الأمور بطريقة يستطيع معها أن يقنع دنيس أكثر مما يرد إقناع هاملتون. فهذا «الخرندعي» كما يسمي القنصل، «مثل أولاد المكتب، ورقته والقصبة، حتى ما ينسى» يبدو مهماً ومؤثراً، لأن أغلب ما أراده أو قرره حصل، سواء بالنسبة للسلاح أو بالنسبة لدفعات المال التي سلمها، ومجيئه الآن يدل على تلك الأهمية «فقبل ما يغلط صاحبنا، ويقول كذا وكيت جاء حتى يلقنه».

قال لمهيوب، والقمر دائرة سمينة كالكرة:

- ما دام الانكريز دجاج وناموا، خلنا، حنا العربان، ننعزل ونطلّع اللي بروسنا واللي بقلوبنا.
- اللي تؤمر به يا طويل العمر.
- قل للخويا: طويل العمر صدره ضاق، فخلهم يجون؛ وخلي سلمان والعنيزي وابن برقوق يولمون حالهم، لعلهم يروّحون على اللي صدورهم ضاقت وقلوبهم عافت، ويمكن الرب الرحيم يفرجها وتصير أحسن من ما كانت.

وخلال فترة قصيرة، وكان الرجال ينتظرون إشارة من السلطان، انتظمت حلقة الرقص والغناء. صحيح إنهم انتحوا مكاناً قصياً، أقرب إلى نهاية المعسكر تقريباً، لكي يتركوا الضيوف ينامون، كما أشار السلطان، لكن صوت الغناء والصخب، إضافة إلى طلقات الرصاص، وذلك الحنين الذي اشتعل فجأة، وربما ساعد على تفجيره ضوء القمر الذي ملأ السماء، وتلك النسمة العذبة التي كانت تهب من ناحية الشرق، والمحمّلة برائحة الصحراء والذكريات وأيام الطفولة، كل ذلك تكاثف وطغى. والسلطان الذي كان ميالاً الى الوحدة، أو أن يكون مع أقرب الرجال، ما لبث أن نسي أو رغب أن لا يبقى أحد الا ويشارك، وأن يشهد ليلة لا ينساها طوال حياته، خاصة بعد أن إرتفعت تلك الأصوات من أعماق القلوب، وأخذت الأودية تردد صداها، ولأن القصص التي تروى والمشاهد التي تقدم لا تحكي حكايا قديمة، أو ترجع صدى أحداث وقعت في يوم من الأيام، وإنما كانت تبتدع وتتكون في تلك الليلة بالذات.

حتى هاملتون الذي آوى إلى فراشه منذ ثلاث ساعات أو أكثر، لم يستطع النوم، ففي ساعة متأخرة من الليل رآه الكثيرون يحوم، من بعيد، حول المكان، وبدا متردداً في ان يقتحمه دون دعوة، فلما أبلغ السلطان، وفي لحظة خلقت بشكل متعمد صاح جلالته:

- قولوا للصاحب يلحق ما هي كل ليلة مثل هذه الليلة!

والتفت الى مهيوب وهمس باذنه وهو يضحك:

- ومن قبل قالوا: كل يا مجوّع ما هو كل يوم عيد!

في تلك الليلة والأيام الثلاثة التالية حاول السلطان تجنب أية موضوعات قد تثير خلافاً أو تظهر تبايناً في وجهات النظر. اكثر من ذلك تعمد الا يسأل هاملتون عن الاخبار والامور المهمة التي أشار اليها في رسالته، وأوعز، بالمقابل، لرجاله أن يرتبوا للضيوف برنامجاً حافلاً. وقد حضر بنفسه احتفال اليوم الأول، وكان مجموعة من سباقات الخيل والهجن، إضافة الى النيشان. أما رحلة القنص في اليوم التالي فقد رافق فنر الضيوف، واكتفى السلطان باستقبال عدد

من زعماء القبائل وأولم لهم ذلك اليوم، وربما تعمد ألا يكون هاملتون ودنيس إيجلتون ضمن الضيوف، لئلا يساء فهم وجودهما أو الغاية التي جاءا من أجلها. أما اليوم الثالث، والمخصص للراحة، استعداداً لتحرك موكب السلطان في اليوم التالي، فقد اقترح هاملتون زيارة منطقة قريبة من عين نبات، وهي منطقة اثرية مهمة كما وصفها، لأنها كانت محطة رئيسية على طريق التجارة منذ أقدم العصور، ودنيس الذي وافق على مضض، كان يريد قبل ذلك عرض صيغة إتفاق مع السلطان، ودراسة هذه الصيغة والبت بها، مستفيداً من وجود هاملتون. والسلطان الذي طلب إرجاء الموضوع، حين كان في الطريقة يرى أن الوقت لا زال مبكراً، وبالتالي فهو ليس مستعداً قبل العودة الى موران، ومعرفة كثير من الامور، خاصة بعد زيارة هاملتون الطويلة.

حين قال عنان ان القنصل باحثه في الموضوع أجاب السلطان بنزق:

- تبلغه وتقول له: القراطيس بين الأصحاب ما لها قيمة، الأهم منها الثقة...

تنفس بعمق وتابع:

- وإذا الحّ أكثر تقول له: سلمونا الاوراق نطالعها وندرسها ونرد لكم الخبر.

هاملتون بدا مهتماً بزيارة المنطقة الأثرية أكثر من إجراء مباحثات، وقد أوضح وجهة نظره لدنيس منذ الليلة الأولى. كان متأكداً أن السلطان لن يستجيب، أو أنه ليس في وضع يمكن الوصول معه الى نتائج حاسمة، فحول أمور أقل أهمية من توقيع معاهدة، كان يبدي تردداً ويفكر وينتظر، بل وكان كثير الشكوك.

قال دنيس لعنان الذي كلفه السلطان أن يرافق الضيوف لزيارة المنطقة الاثرية، وقد تعمد دنيس أن يكون جلفاً، وأن يُسمع الآخرين، خاصة هاملتون:

- ماذا كان جواب عظمة السلطان حول الاتفاقية والاقتراح الذي تقدمت به؟

- كان موضع اهتمام جلالته.

- ومتى سنبت به؟

ـ عندما يأمر جلالة السلطان.

ـ ولكن متى؟

ـ هو الذي يقرر.

ـ أفهم من هذا الجواب أن الموضوع لن يدرس الآن، وهنا.

ـ إذا كان لا بد من اتخاذ إجراء فإن جلالته يرى أن تسلمونا الصيغة لكي ندرسها، وبعد أن تدرس في موران سوف نبلغكم الجواب.

ـ إذن كل شيء مؤجل؟

قال فنر الذي كان قريباً ويتحدث مع هاملتون:

ـ مستر دنيس.. الوقت غير ملائم لبحث مثل هذه الموضوعات...

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ وبكل تأكيد سنجد الوقت المناسب لبحثها والبت بها.

نظر دنيس إلى هاملتون بعتب اقرب الى الحقد، إذ كان على ثقة أن تصلب السلطان، أو بالأحرى رفضه، لا يمكن أن يكون بعيداً عنه.

قال هاملتون بدعابة:

ـ ارى ان ندرس تاريخ الماضي لكي نفهم الحاضر، فإذا تأخرنا فلا بد أن تفسد الشمس رحلتنا، ولذلك يجب أن نتحرك!

دنيس الذي جاء من الطريفة، ويلتقي بهاملتون لأول مرة، كان يفترض أن الظرف ملائم جداً، ليس لإجراء مباحثات ناجحة فحسب، وإنما للتوصل إلى نتائج نهائية، وهذا ما دعاه للاتصال بهاملتون، والاتفاق معه على أن يلتقيا هنا، إذ يعرف طبيعة العلاقة التي تربطه بـالسلطان، ويعرف أيضـاً أنه عـاد من لندن بهدايا كثيرة، ولذلك لا بد للامرين معاً أن يؤثرا على السلطان ويدفعاه للموافقة على ما كان يرفضه أو يؤجله.

الآن، وقد اكتشف أن هاملتون لا يشاركه الرأي، بل أكثر من ذلك يتواطأ مع الآخرين، ربما لإفشاله أو لإظهاره بمظهر الضعيف العاجز، فإنه لا يجد في نفسه الرغبة لأن يواصل هذه اللعبة العابثة.

قال لعنان:

ـ أرجو أن تبلغ صاحب الجلالة رغبتي في أن أعود الى الطريفة.

سأله هاملتون بسخرية خفية:

ـ الا تود أن تشاهد هذه الآثار المهمة يا مستر دنيس؟

ـ اشكرك يا مستر هاملتون، ثم ان لدي الكثير لأفعله في الطريفة!

قال هاملتون لفنر بعد أن غادر دنيس عائداً الى الطريفة:

ـ أسوأ موظفي صاحب الجلالة ملك بريطانيا اولئك الذين افسدتهم الكتب، إنهم يرون الحياة من خلال ما قرأوه بشكل رديء أو خاطىء، وبدل أن تصحّح لهم الحياة ما تعلموه، يريدون أن يصححوا الحياة بتطبيق الكتب التي قرأوها عليها.

قال فنر بدعابة:

ـ القنصل بينه وبين هذه الديرة عداوة، ما أحبها ولا يريد يفهمها...

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ الله العليم إن هواء الطريفة ما والمه!

السلطان الذي أُشعر بموقف القنصل ورغبته في المغادرة، طلب من عنان ومهيوب أن يرافقاه الى الحلوة، وأن يبذلا جهدهما من أجـل امتصاص غضبـه وترضيته، وإشعاره أن الامور سوف تأخذ مجرى إيجابياً وسريعاً.

ولأن هاملتون كان في هذه المنطقة من قبل، فقد ذهب مع عدد محدود من الرجال ليلقي نظرة، وقد كتب في يومياته ما يلي: «عندما هبطنا في النقطة التي

كنا فيها، بدأت جولة في المنطقة، فرحت أجوس خلال تلك الناحية وأجمع النقوش من هنا وهناك. وكان معظمها يعود الى عهد ثمود. وقد تحولت من صخور «المذبح» الى الوادي كي أفحص الناحية الشرقية من الصخور، حتى وصلنا إلى نقطة يلتقي فيها واديان عند أقدام صخور المذبح. وخلف الطرف الغربي لتلك النقطة، وبعد أن اتجهنا شرقاً عبر طريق ضيق صغير ينحاس قليلاً عن خط امتداد صخور المذبح، وجدنا صخرة منعزلة يبدو أن الطبيعة قد نحتتها على شكل أبي الهول. ومما يستثير الإعجاب والدهشة رأسها المنبسط الذي يشبه رأس أبي الهول في مصر، وكذلك الرقبة والجسم، الامر الذي جعلني اتصور ان «المذبح» قد أقيم هنا حيث توجد الصخرة، كي يقدم الناس عليه قرابينهم لاحد الآلهة. وقد اكتشفت أن فخذ (أبي الهول) قد كشط حتى غدا املس ناعماً، ومن ثم نقشت عليه عبارة بلغ طولها سبعة أنشات الى ثمانية. غير أن هذه النقوش كانت ـ بكل أسف ـ قد تآكلت بشكل بشع بحيث كان من المستحيل أن ينسخها أحد أو يجزم بأنها نبطية أو ثمودية. وكانت هذه الحقيقة مؤلمة فعلاً، غير أنني كنت على شبه اليقين من أننا قد اكتشفنا المذبح الذي وهب المنطقة اسمها. ولما كان الوقت آنـذاك متأخراً، فقد عدنا الى المخيم مؤجلين فحص بقية المنطقة.

«رأينا أثناء جولتنا عدداً من الطيور الغريبةالشكل، لكنه لم يكن معنا ما نصيدها به. . . كما انني عجزت عن التعرف على أنواع هذه الطيور، أو أين تعيش. وربما كانت من الطيور المعروفة باسم سيسي، إذ انها لا تشبه الطيور المعروفة بالحبارى».

حين عاد هاملتون الى معسكر السلطان، عند الغروب، بدا له أن جزءاً من المعسكر قد تحرك، فما عدا خيام الحراسة في المقدمة، وخيمة السلطان في الوسط، إضافة الى خيمة الامير فنر، وعدد من الحرس والمرافقين، فقد بدت الارض خلاء، وأقرب ما تكون سوقاً للحلال أو ملعباً.

زيارة دنيس ايجلتون غير المتوقعة، ثم رحيله الغاضب، تركا في نفس السلطان مرارة، فهؤلاء الاصدقاء، حين يبعثون مثل هذا الشخص، وربما

يوصونه كيف يتصرف، فهم يخطئون كثيراً، لأن الكبير لا يمكن أن يصبح صغيراً، إذا عرف كيف يتصرف، ويحافظ على منزلته. ثم ان سلطان موران والعوالي أيضاً ليس مثل أي من الشيوخ الذين يدللونهم ويتعاملون معهم بهذه الطريقة.

كان السلطان يتوق لأن يسمع الكثير من هاملتون، ورغبته أيضاً في أن يحدثه عن «خويه الأشيقر أبو رجل ونص»، لكنه شعر بالحرج أن يبدأ، إذ لا يريد أن يظهر لهفته أو تعجله، ويريد أن يترك هاملتون نفسه يبدأ.

كان يفترض أن يقضي السلطان في عين نبات يوماً وليلتين، لكي يلتقي هناك بابن مشعان، إذ بعث إليه لأن يوافيه، ثم بعد ذلك يأخذ السيارة ليعود إلى موران، فقد طال بعده عنها وزاد شوقه إليها، وليس ما يدعوه للإبطاء، كما كان الحال أثناء مجيئه للعوالي.

هاملتون أحس ان الظرف في الليلة الأخيرة لأقامتهم في عين نبات ليس مناسباً للخوض في مواضيع جدية أو دقيقة، ولذلك أخذ يحدث السلطان عن الآثار القريبة واهميتها، وأية حضارات تكونت في هذه المواضع، وكيف انه ينوي تخصيص بضع سنوات من حياته لدراسة هذه الآثار والكتابة عنها. والسلطان الذي كان مفتوناً بما يسمع، ويبدي دهشته لوجود هذه الآثار، وقربها من معسكره، وإنه لم يزرها أيضاً، فقد قال تعليقاً على الرغبة التي أبداها هاملتون بقضاء بضع سنوات لدراسة هذه الآثار:

- إذا خلصنا من الهموم الكبيرة، يا الصاحب، وصفي بالنا، اطلب وتمنى، وحتى هذه الحجارة والاصنام، إذا ردت، نخلي الخويا يحملونها وينقلونها للمكان اللي يعجبك!

ضحك هاملتون بصخب، وقال بعد أن هدأ:

- التاريخ لا يمكن أن ينتقل، يا طويل العمر، وكل من يريد أن يدرسه وأن يكتب عنه يجب أن يأتي اليه طائعاً مختاراً؛ ومن أكبر الاخطاء التي وقع فيها كثير من المؤرخين، أنهم جردوا التاريخ من روحه، من المكان الذي وقعت

فيه أحداثه، ومن البشر الذين كانوا جزءاً من هذا التاريخ.

رد بالسلطان مازحاً:

- ما دام هذا رأيك، الله يسلمك، فالحجارة بمكانها، وجماعتنا قالوا: الحجر بمكانه ينفع، فإذا خلصنا شغيلانا ابشر.

ولأن المسير سيكون في السرى فقد آوى الجميع الى فراشهم مبكرين.

في اليوم التالي، وأثناء الإستعداد لتحرك موكب السلطان، قال هاملتون بدعابة:

- الأصلح، يا طويل العمر، أن أتأخر عنكم أو آخذ طريق ثاني، لأن نجمي ونجم ضيفكم ما توالموا، ويكفي اللي حصل من القنصل!

ضحك السلطان، وتذكر أشياء كثيرة، قال لهاملتون وهو ينظر الى البعيد:

- إذا كان هذا رأيك ما يخالف، وبموران نسولف وما يصير الا كل خير!

بعد عودة السلطان الى موران، وما رافق تلك العودة من فرح واحتفالات، وما تخللها أيضاً من مفاجآت، خاصة في قصر الروض، إضافة الى الوفود التي جاءت من انحاء متعددة، من السلطنة وخارجها، جعلت السلطان، رغم توقه لأن يبحث مع هاملتون القضايا الاساسية، أو التي يعتبرها اكثر أهمية من غيرها، مأخوذاً بما يراه وبما أحسه من اهتمام الوفود الاجنبية الزائرة بشكل خاص، الامر الذي اضطره لتأجيل بعض الموضوعات، وأن يركز أحاديثه وأسئلته مع هاملتون على مايجب أن يقال لهذه الوفود، وكيف يكون التصرف معها.

ليس هذا فقط، كل شيء حول السلطان يبدو جديداً، رغم أنه رأى كل ذلك ولم يمضِ بعد أكثر من عام.

نساؤه في القصر... كل واحدة جديدة، وكأنه لم يرها، أو لم يعرفها من قبل: الشكل، نظرة العيون، الشعر، وحتى العطر والحناء، إضافة الى الوان الملابس، وطريقة المشي ورنة الصوت، هذا عدا عن وسائل التأثير الاخرى، بما فيها الاولاد.

أما الحفاوة، أما طريقة التصرف، فإن أموراً كثيرة جدّت أو تكونت خلال غيابه. صحيح أن الصور اختلطت، وبدت غير واضحة في لحظات معينة، لكنه يعرفها ولا يعرفها. ورغم القناعات التي ترسخت لديه من قبل، وكانت أقرب الى العناد، تبين له أن لا بد من إعادة النظر. قال في نفسه «تغير الاماكن والوجوه تجعل الانسان غير متأكد» وبدأ يستعيد في ذاكرته: الزوجات، الاولاد، الحرس، وحتى الخدم. تصور، إزاء بعض الوجوه، وكأنه يراها لأول مرة. قال

لنفسه: «الغريب أن الإنسان لا يرى الاشياء القريبة. لا بد أن يبتعد عنها مسافة كافية، أو وقتاً غير قصير، لكي يراها بوضوح».

ورغم أنه لا يريد أن يشغل نفسه بهذه الامور الا أنه انشغل، وأصبح يفكر فيها.

فنسوة القصر، سواء أكنّ الامهات ام القريبات، أم حتى الخادمات، وبعض الاحيان بتحريض من الزائرات، اخذن يدفعن اليه، وبأوقات يتخيرنها بشكل مناسب، «رسل الوداد والمحبة». ولأن الاطفال كبروا اثناء غيابه، وتغيروا أيضاً، كان ينظر إليهم بكثير من الاهتمام، يريد اكتشاف الشبه أو العلاقة، وكان في غالب الاحيان يحار، لا يعرف، بل وبلغ به الامر ان يحزّر نفسه: «من ناقة لناقة». فبعد أن يمعن النظر بالوجه الصغير الذي يقابله، وبتينك العينين اللتين تضحكان، يقول في نفسه: هذا ابن فضة، او هذا ابن حفصة، او ابن العنود، وبعد أن يحزم امره على أنه ابن فلانة يسأله: شنهو اسم امك.. يا وليدي؟

في مرات كثيرة كان يخطىء.. أما المرات التي حزر فيها فكان يضم الطفل الى صدره، وبعض الاحيان يغطيه بعباءته، خوفاً من الحسد، وحسد عينيه بالدرجة الاولى، ويعتبر أن هذا الطفل محبوب ومقرب إليه اكثر من الآخرين!

بنات السلطان، اللواتي لا يستطعن الوصول الى مجلسه، او حتى الاقتراب منه، ولا يغادرن السور الا من الجهة الغربية ومع المربيات، كن بالنسبة إليه شيئاً عجيباً. فالذكور، رغم احاديث الامهات وتعليم المربيات والخدم، كانوا اقرب الى القسوة والتكبر، او هكذا كان يتبادر في أحيان كثيرة للسلطان. يتصرفون بطريقة مسرحية، وبأكبر من أعمارهم. حتى الأشعار التي يرددونها، كانت أقرب الى حفلة مدرسية مملة. البنات كن شيئاً آخر: تضحك الواحدة بطريقة ترغم أباها على أن يشاركها الضحك ثم المرح. أما إذا مشت، أو أجابت عن سؤال، إذا نظرت إليه واصبعها بفمها، فكان لا يقوى على ان يتمالك نفسه: «لماذا لم أعرف هذه المخلوقات؟ لماذا لم أكن قريباً منها؟».

واكتشف السلطان ان العالم الكبير لا يغني عن العالم الصغير. ودون تردد، وفي محاولة للتعويض، ومن أجل أن يكون أقرب الى أبنائه، قرر أن يعيد

مجلس الإثنين، بل وفكر أيضاً أن يخصص يوماً آخر، لكن بعض الامور الطارئة جعله يرجىء قراراً من هذا النوع.

وفي مجلس الإثنين اختلط الصغار بالكبار، الاحاديث بالطلبات، الاشعار بالنكات؛ وإذا كان السلطان قد توخى منذ البداية ان يكون هذا المجلس مدرسة يتعلم فيها أبناؤه، فقد اكتشف في هذه المرحلة أن الأبناء تعلموا الكثير قبل هذه المدرسة وبدونها! أصبحوا، أو أغلبهم على الاقل، كباراً. ورغم أنه بذل جهداً واضحاً من أجل أن يعطي المجلس نسقاً ثابتاً، كما كان الحال من قبل، إلا أن الأشغال الكثيرة، والوفود الزائرة، إضافة الى الطلبات التي لا تنتهي، والمرسلة مع الأبناء، والتي أخذت تطغى على ما عداها، جعلته يفكر بإنشاء مدرسة داخل القصر، يختار لها أفضل المعلمين، من الرجال الذين يعرفهم واختبرهم من قبل، تتولى المهمة نيابة عنه. سوف يداوم على مجلس الإثنين، وإن كان مضطراً، بعض الاحيان، لاختصاره، لكن المدرسة تبقى ضرورية. يمكن أن يوعز للمعلمين أن يتبعوا طريقته ذاتها في التعليم، بل ويمكن أن يعاونهم في المرحلة الاولى، وقد يحضر بعض الدروس، حتى إذا اخذت الامور مجرى ثابتاً، سوف يكون أكثر اطمئناناً!

خزعل الذي اختص بالقسم الشمالي من القصر، وقد بنى في هذا القسم عدة أجنحة، ووسعها المرة بعد الاخرى، تبعاً لعدد الزوجات وتزايد الاولاد، وما يتبع ذلك من زيادة عدد الخدم والمرافقين والحرس؛ تخير وقتاً مناسباً لكي يستأذن أباه في أن ينتقل الى القصر الجديد الذي بناه، متذرعاً أن المكان أصبح ضيقاً؛ وأشار الى أن الكثيرين بحاجة الى هذا القسم من القصر اذا اخلاه. فوجىء السلطان بالطلب، لكنه لم يعط جواباً. ثم تبين له أن أموراً كثيرة يجب أن يعاد فيها النظر. اكثر من ذلك يجب أن يرسخ تقاليد جديدة في القصر، وفي التعامل مع الاولاد. قال لنفسه «كل ولد يصل الى سن البلوغ يجب ان نفكر بزواجه وتحضيره من أجل الزواج يلزم له هدية: «حصان ومرافق وقريشات، وبعد أن يتزوج، ويجيئه الولد الاول، يقام له احتفال ويسمح له، إذا أراد، أن ينتقل لكي يؤسس عائلة ويعتمد اكثر على نفسه».

وافق السلطان على انتقال خزعل فانتقل خلال شهور قليلة الى قصر الغدير. أما أول من حظي بالتكريم نتيجة التقاليد الجديدة، وقد نقلت عن لسان السلطان بأشكال مختلفة، وفسرت تفسيرات متناقضة، ولم يتردد بعض الخبثاء من الخدم والحرس من إشاعة أن هذا لا ينطبق على الذكور فقط، وبل والاناث. أول من كُـرِّمَ كان فنـر. ففي يوم من أيـام جمادى الآخرة، في بداية الـربيـع، وبعـد انتقـال خزعل باسبوع واحد، دعا السلطان كبار العائلة وعددا من وجوه موران، وبطريقة مليئة بالابهة والمهابة، قدم لفنر واحداً من أحسن خيوله، وأبلغ المجتمعين أن حفيداً آخر ولد له. وفنر الذي بدا محرجاً، وكان يريد أن يبقي الامر دون اعلان ودون ضجة، وجد نفسه وسط العيون والاهتمام.

نساء القصر اللواتي راقبن الاحتفال من أماكن متعددة، وبوسائل متعددة أيضاً، من الاسطحة او من النوافذ، وقد احتطن كثيراً لئلا يراهن الرجال، وبعضهن، اللواتي كن يسكّن في أماكن أبعـد نسبياً، راقبن بالمناظير المقربة، أو عن طريق الخدم والخصيان. لاحظت النسوة اكثر، وقبل الرجال، غياب خزعل. وقبل أن يسألن أو يتأكدن تذكرن غيابه اكثر من مرة، عن المناسبات التي تعني فنر: يوم أن عاد من سفرته الطويلة، يوم معركة الحويزة. واضفن أنه تعمد الانتقال من قصر الروض. أيضاً قبل مجيء الوليد الجديد بأيام.

ومثلما تنتقل الرائحة الكريهة، وقبل أن ينتهي الاحتفال، ودون معلومات من أي نوع، ملأت قصر الروض الإشاعات على أن هذا الإحتفال ليس لتهنئة السلطان بالحفيد الجديد، أو لتهنئة فنر بالمولود الاول، وإنما هو احتفال لتسميته فنر ولياً للعهد. ومما أكد هذه الاشاعات وأعطاها رسوخاً لا يقبل الشك او الاحتمال، أن فنر وقف الى يمين أبيه، أثناء استقبال الوفود وأثناء توديعها، وأن العم دحيم وقف الى يساره!

ومما زاد في قوة هذه الإشاعات أيضاً أن اثنين من أولاد فضة كانا مشاركين في الإحتفال، ومعنى ذلك أن فضة بالذات كانت على علم بما انتواه السلطان، وقد وافقت عليه، ودليل الموافقة انها بعثت بأولادها الكبار أولاً، وإنها كانت وراء «طرد» خزعل من قصر الـروض: ومما يؤكد ذلك، ويجعله أكثـر أهمية

ودلالة أن عـدداً من أولاد السلطان، من هم بمثل اعمار اولاد فضة ومن هم أكبر سناً تغيبوا عن الاحتفال، وهذا معناه أن امهاتهم لا يعرفن بما قرره السلطان، او كان لهن رأي آخر.

تهاني التي إنتقلت من مكان إلى آخر، لمراقبة الاحتفال، كانت ترد على الاسئلة، او نظرات التساؤل، بابتسامة كبيرة وواثقة، وكأنها تريد أن تجيب كل من يسألها، دون كلمات، أن هذا الذي يرونه من تدبير الشيخة وبموافقتها. لم تقل هذا أبداً، لكن طريقتها في التصرف اكدت مثل هذه القناعة، ومما أكدها أيضاً ان تهاني قضت اطول فترة من فترات المراقبة في قصر السلطان ذاته، مع فضة، ونقلت ثلاث من الخادمات، ان المرأتين تشاورتا همساً عدة مرات، رغم وجود عدد من النسوة، وفي إحدى المرات خرجتا معاً إلى غرفة جانبية!

سرور، خادم أمي زهوة، ترك الاحتفال مرتين، وجاء الى القسم الغربي من القصر، وقيل ان الشيخة اختلت به خمس دقائق. وطلبت منه في المرة الثانية أن يسرع بالعودة، وأكد من رآه انه بعد ان أسر بشيء لمهيوب، غادر ولم يعرف إلى أين!

وأمي زهوة، التي كان يروق لها في حالات مماثلة، أن تمر قريباً من مجلس الرجال، وأن تحييهم، تجنبت هذا اليوم المرور، ظلت ملازمـة لجناحهـا لم تغادره. وقيل أنها تعمدت ذلك، لكي لا يُعرف إنها وراء كل ما يجري، وقيل أنها طلبت من تهاني أن تذهب الى فضة، وأن تزور عدداً من زوجات السلطان، لتعرف وتسمع، ثم لتبلغها بما سمعت.

الرجال الذين حضروا الاحتفـال كانـوا خالي البـال مما يـدور في الاقسام الأخرى من القصر. لم يلاحظ بعضهم غياب خزعل. والذين لاحظوا، وقـد حصل ذلك في وقت متأخر جداً، لم يعتبروا الأمر مهماً، ولا يستوجب التوقف، لأن الاحتفال يعني فنر ويعني الجد، وكل من حضر من العائلة غير هذين نافلة.

الذين يعرفون أكثر من غيرهم، كانوا مطمئنين، لأنهم على علم أن السلطان اوفد خزعل لكي يلتقي بإبن مياح بالقرب من الزعفرانة، وقيل ان السلطان دعا

ابن مياح للمجيء الى موران لكنه ادعى أنه لا يستطيع ترك الحويزة، واقصى ما يستطيعه أن يلتقي برسول عند أطرافها، وهكذا تم الاتفاق على الزعفرانة، وعلى أن يكون خزعل هو الرسول، وهذا ما حمله على السفر، وبالتالي لأن يغيب عن الاحتفال!

عمير الذي غاب عن قصر الروض، وارتاح منه السلطان، لم يغب عن ابن مياح، فقد جاء من نقل للسلطان أنه جنّد كتيبة كاملة من عين فضة وما جاورها، والتحق بالحويزة في الفترة الأخيرة. لقد فعل ذلك بعد عودة خزعل الى موران بأسابيع قليلة. وأكد عدد من الذين كانوا هناك في الفترة ذاتها، أن ابن مياح لا يفعل شيئاً دون مشورة عمير وموافقته. ومما عزز هذه الأخبار ان دنيس ايجلتون سأل السلطان عدة مرات ما إذا كان يثق برجاله، وبالقادة خصوصاً، الموجودين في الحويزة ومنطقة الحدود، وحين استغرب السلطان السؤال، ثم تكرار السؤال، أبلغه دنيس أن لديه معلومات مؤكدة تشير الى وجود قوات مناوئة لبريطانيا هناك، وأنها تعبىء القبائل وتحرضها لعمليات واسعة، بهدف محاربة الانكليز وراء حدود الحويزة.

أما لماذا اختار عمير الحويزة، ولم يختر العوالي، ولماذا بدأ خلال هذه الفترة بالذات ومع ابن مياح بالتحديد، فقد أثار الامر مخاوف السلطان، وهذا ما دعاه لإرسال خزعل، ليسترضي ابن مياح ويطمئنه ولكي ينبهه من عمير أيضاً. وهذه المخاوف تزايدت مع تزايد العمليات على الحدود، وما أدت اليه من تهديدات وتوتر. وقد استغل ابن ماضي هذه الاجواء ليحرك بعض القبائل في العوالي، وليرسل عدداً من السفن المحمّلة بالمتطوعين. وتواردت الاخبار من العوالي، وكلها تشير إلى أن الفترة القادمة ستكون صعبة، إذا لم يبعث السلطان بنجدات كبيرة وسريعة، خاصة الى جبهة الطريفة.

ايجلتون الذي اعتبر نفسه مخذولاً ومحارَباً من القصر، لا يمكن أن يسلم أو أن يسكت. والأخبار التي وصلت الى موران أكدت أنه زار عدداً من رجالات ابن ماضي وراء الحدود، وأنه قدم لهم أموالاً ووعوداً، وقيل انه طلب منهم تأليب أنصارهم والرأي العام في العوالي على الحكم الجديد. ومما يحمل على

تصديق هذه الأخبار، أن الناس في العوالي أصبحوا يجاهرون بعدائهم ورفضهم، ويطالبون ان تتمتع العوالي بالحرية وأن تحكم نفسها دون أن يشيروا الى ابن ماضي. أما المشاكل التي يعاني منها الناس، والمصاعب التي أخذت تتزايد فإن كان بعضها طبيعياً، فلا شك ان القسم الآخر من تدبير أناس معادين.

مع هذه التحركات والرسائل غير المباشرة، يبعث ايجلتون أيضاً، وبعد أسابيع من عودة السلطان الى موران، بمسودة المعاهدة التي يفترض أن توقع بين بريطانيا العظمى ودولة موران. ويربط تقديم المعونة المخصصة بالموافقة وبإبرام هذه المعاهدة.

قال السلطان لهاملتون، بعد أن هدأت ضجة الاحتفالات وانتهت زيارات الوفود:

- وبغيبيتك، الله يسلمك، حصلت امور كثيرة، هنا وهناك، وقلنا لأرواحنا ما نسوي شيء الى ان يرجع الصاحب. وهالحين رجعت بالخير والسلامة فيلزم نسولف.

قال هاملتون وهو يبتسم:

- أنا رهن إشارتك، يا طويل العمر، وكلي آذان صاغية.

- حنا نريد نشوف... انتم شنهو شوركم؟

- حول اي القضايا، يا طويل العمر؟

- قضايانا كلها!

وضحك السلطان وتطلع بتحديد الى عيني هاملتون، وهو حين يفعل ذلك، يقول، دون كلمات: لنترك، جانباً، كل المجاملات، ونتكلم بصراحة. وهاملتون الذي فهم معنى هذه النظرة، ابتسم وقال:

- تعرفون، يا طويل العمر، منذ أن وصلت الى بلادكم ونزلت بضيافتكم، كان هدفي ان أقوم بدور إيجابي، وأن أكون واسطة خير، بينكم وبين حكومة صاحب الجلالة البريطانية. وتعرفون أنه ليس لي صفة رسمية يمكن من